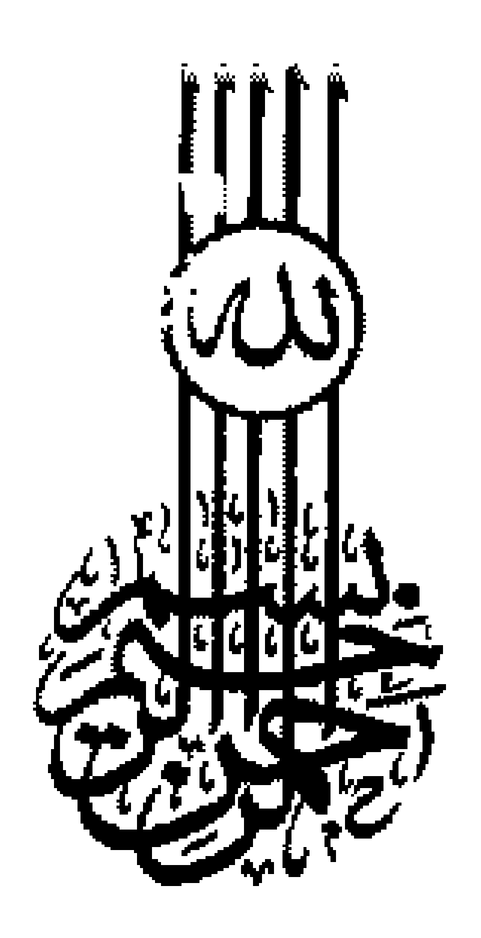


علي وحقوق الإنسان

الدار العربية للموسوعات



علي وحقوق الإنسان

تأليف

الأستاذ الكبير جورج جرداق

تقديم الكاتب الكبير

الأستاذ ميخائيل نعيمة

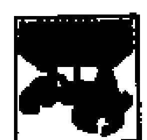
الجزء الأول

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٦ م ــ ١٤٢٦ هـ

طبعة مزيدة ومنقحة



الدار العربية للموسوعات

الحازمية ـ ص.ب: ٥١١ ـ هاتف: ٠٠٩٦١٥/٩٥٢٥٩٤ ـ فاكس: ٠٠٩٦١٥/٤٥٩٩٨٢ هاتف نقال: ٠٠٩٦١٣/٢٨٨٣٦٣ ـ ٠٠٩٦١٣/٥٢٥٠٦٦ ـ بيروت ـ لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com

البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

كلمة النّاشر

هذا هو النص الكامل للسفر الذي أعدّه الأديب الكبير جورج جرداق عن الإمام علي بن أبي طالب.

أما الكتاب الذي صدر منذ حين فلقي من النجاح ما انقطع نظيره، وأحدث ضجة كبرى إذ تلقته الملايين من القراء بالإعجاب والإكبار، وتُرجم إلى اللغات الفارسية والهندية والإنكليزية، وزوّر لأكثر من مرة.

وإذ يدفع المؤلف إلينا اليوم بهذه الدراسة الموسوعية بكاملها للنشر، لا بدّ له من إثبات فصولها جميعاً بالترتيب الذي وضعه لها أصلاً قصد التدرج المنطقي بالبحث، مما اقتضى بالضرورة أن يبدأ الجزء الأول من هذا السفر ببعض الفصول التي نشرت في الكتاب التمهيدي السابق ولاسيما الفصول الأولى التي تعتبر إطاراً تاريخياً لا بدّ من الاستهلال به كي لا يبتر شيء من فصول هذه الموسوعة. أضف إلى ذلك أن هذه الفصول ذاتها منقحة وموسعة ومضاف إليها كثير من البحث والرأي الجديدين، مما يوجب إثباتها، وبعد ذلك تبدأ في هذا الجزء بالذات، الأبحاث الجديدة التي تُنشر لأول مرة وتستمر حتى آخر أجزاء هذا السفر.

أما ما يحتويه هذا السفر من الأبحاث الجديدة في أدب الدراسات العلوية، فقد أشار إليه المؤلف في مقدمته الرائعة التي تلي هذه الكلمة.

ومنها الأبحاث القيمة التي تستهدف الكشف عن تماسك شخصية الإمام علي. والمقابلة الممتعة بين الإمام علي وسقراط عظيم فلاسفة اليونان، في فلسفة الأخلاق وما إليها. ثم ما يمثله عليّ من أسباب العدالة الكونية الشاملة القائمة بذاتها. وتتبع معنى (الإنسان) في إنسانيات العصور جملة تمهيداً لتجلية هذا المعنى عند ابن أبي طالب، ولمقابلة بين علي ومفكري العصور في أكثر من جانب إبرازاً لمكانة هذا البطل العربي العظيم بين أولئك الأبطال. ثم ذلك البحث الخلاق الذي يضع المبادىء العلوية موضعَ المقابلة مع مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى بنصوصها الكاملة، وهو من أعمق وأدق الأبحاث التي عالجها أديب عربي حتى الآن. تليهِ أبحاث واسعة في موضوع الإمام علي والقومية العربية. ومن هذه الدراسات الجديدة أيضاً بسط أحوال الناس بكل طوائفهم في عصر الإمام علي وفي ما تلاه من عصور بسطاً مبنياً على نظر جديد في دراسة تاريخنا. ثم أثر الإمام علي في تاريخ الأدب العربي وفي توجيه الروح العربي. تلي ذلك أبحاث واسعة في معنى التشيع في تاريخ الشرق والردّ على المؤلفين الذين بحثوا هذا الموضوع بأسلوبٍ تقليدي متوارث لم يُجلّ حقيقة. ومنها تلك الفصول التي ينقد بها المؤلف أساليب الباحثين العرب والأجانب عندما يعالجون القضايا الهامة في أحداث التاريخ العربي ويفسرون أخباره. ثم استعراض لجميع المؤلفات التي وضعت عن علي في لغة العرب ولغات الأجانب.

وإننا إذ ندفع إلى الطبع هذه الموسوعة، نلبي رغبة العدد الكبير من المعجبين بأدب جورج جرداق، الذين ينتظرون منذ أكثر من عام، صدور هذا السفر الخالد.

المقدّمة
بقلم ميخائيل نعيمة

لنا في حياة العظماء معين لا ينضب من الخبرة والعبرة والإيمان والأمل. فهم القمم التي نتطلّع بشَوقٍ إليها ولهفة، والمنارات التي تكشُح الدياجير من أمام أرجلنا وأبصَارنا. وهم الذين يجدّدون ثقتنا بأنفسنا وبالحياة وأهدافها البعيدة السعيدة. ولولاهم لتولّأنا القنوط في كفاحنا مع المجهول، ولرفَعْنا الأعلام البيض من زمان وقلنا للموت: نحن أسراكَ وعبيدك يا موت. فافعل بنا ما تَشاءُ.

إلاّ أننا ما استسلمنا يوماً للقنوط، ولن نستسلم. فالنصْر لنا بشهادة الذين انتصَروا منّا. وابن أبي طالب منهم. وهم معنا في كل حين، وإن قامت بيننا وبينهم وهدات سحيقة من الزمان والمكان. فلا الزمان بقادر أن يخنق أصواتهم في آذاننا، ولا المكَان بماحٍ صورهم من أذهاننا.

وهذا الكِتاب الذي بين يديك خير شاهد على ما أقول. فهو مكرّس لحياة عظيم من عظماء البشَرية، أنبتتْه أرض عربية، ولكنها ما استأثرتْ به. وفجّر ينابيعَ مواهبه الإسلامُ، ولكِنه ما كان للإسلام وحده. وإلاّ فكَيف لحياته الفذّة أن تلهب روح كاتبٍ مسيحيّ في لبنان، وفي العام ١٩٥٦، فيتصدّى لها بالدرس والتمحيص والتحليل، ويتغنّى تغني الشاعر المتيَّم بمفاتنها ومآثرها وبطولاتها؟.

وبطولات الإمام ما اقتصرت يوماً على ميادين الحرب. فقد كان بطلاً في صفاء بصيرته، وطهارة وجدانه، وسحر بيانه، وعمق إنسانيته، وحرارة إيمانه، وسموّ دعته، ونصرته للمحروم والمظلوم من الحارم والظالم وتعبُّده للحق أينما تجلّى له الحق. وهذه البطولات، ومهما تقادم بها العهد، لا تزال مقلعاً غنياً نعود إليه اليوم وفي كل يوم كلما اشتدَّ بنا الوجد إلى بناء حياة صالحة، فاضلة.

لست أريد أن أستبق القارىء إلى الكشف عن مواطن المتعة في هذا الكتاب. فهي كثيرة. منها بيانٌ مشرق يسمو هنا وهناك إلى سوامقَ من الصور الشعرية، المشبوبة العاطفة، الزاهية اللون، العذبة الرنَّة. ومنها اتِّزان في التقدير والتفسير. ومنها محاولة جريئة في نقل عليٍّ وآرائه السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية إلى مسرح الحياة التي نحياها اليوم. وهي محاولة بارعة وموفّقة، ما فطن لها الذين كتبوا في الموضوع من قبل. ناهيك باجتهادات جديدة في تفسير بعض الأحداث التي رافقت حياة الإمام تفسيراً يغاير النمط الذي درج عليه مؤرّخوه حتى اليوم.

إنه ليستحيل على أي مؤرخ أو كاتب، مهما بلغ من الفطنة والعبقرية، أن يأتيك حتى في ألف صفحة بصورةٍ كاملة لعظيم من عيار الإمام عليّ، ولحقبةٍ حافلة بالأحداث الجِسام كالحقبة التي عاشَها. فالذي فكَّره وتأمّله، وقاله وعمله ذلك العملاق العربي بينه وبين نفسه وربّه لِمّا لم تسمعه أذن ولم تبصره عين. وهو أكثر بكثير ممَّا عمله بيده أو أذاعه بلسانه وقلمه. وإذ ذاك فكل صورة نرسمها له هي صورة ناقصة لا محالة. وقصارى ما نرجوه منها أن تنبض بالحياة.

إلا أن العبرة في كتاب من هذا النوع هي في تفحُّص ما اتصل بنا من أعمال عليّ وأقواله. ثم في تفهُّمه تفهُّماً دقيقاً، عميقاً. ثم في عرضه عرضاً تبرز منه صورة الرجل كما تخيله المؤلف وكما يشاؤك أن تتخيله.

ويقيني أن مؤلف هذا السفر النفيس، بما في قلمه من لباقة، وما في قلبه من حرارة، وما في وجدانه من إنصاف، قد نجح إلى حدٍّ بعيد في رسم صورةٍ لابن أبي طالب لا تستطيع أمامها إلا أن تشهَد بأنها الصورة الحية لأعظم رجل عربي بعد النبي.

ميخائيل نعيمة

كلمة المؤلف

للإنسانيةِ تاريخٌ طويلٌ غريبٌ واحد.

أمّا ما يؤلف طولَه فعمرُ الإنسان القديمُ تمتدّ به يد الدهر حتى تصله بأول أيامِ الأرض، ثم هذا التطوّر المتثاقل البطيء من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ ومن حياةٍ إلى حياة.

وأما ما يؤلف غرابته فأكثر من أن يُساق في مقدمة أو يُبحث في كتاب. ولعلّ أبرز مظاهر هذه الغرابة ما نراه من فترات زمنية عاشتها هذه الجماعة أو تلك من البشر، أو هذا الفرد أو ذاك، في قمة من قمم الصعود الإنساني بين منخفَضاتٍ سحيقةٍ رهيبةٍ من الانحدار، حتى ليرتاب الناظر إلى هذه القمم تُحاط بهاتيك المنحدرات، بأن للتاريخ نظاماً حسابياً قاصداً يسير عليه! وإلاّ فكيف يُفسّر ارتفاع الأغارقة في عصرٍ من عصورِ هذا التاريخ واقعٍ بين أعصرٍ شتّى من المهاوي المتلاحقة. فإذا هم يعبّرون عن حقيقتهم خلال هذا الشموخ بعباقرة تصنع أيديهم صُوَرَ الخير والجمال وتكشف عن وجه الحق، وتضع عقولُهم أصولاً وقواعد في الفن والعلم والأخلاق وما إليها من شؤون الفكر وشؤون الكيان الإنساني جميعاً. وإذا بمدينتهم العظمى أثينا تعلو في الأرض حتى إذا طمحتْ إليها أبصار الغزاة تعالَوا إليها من كل وادٍ ووثبوا عليها من كل سهل فغالتها حرابُهم ونشرتْ على جدرانها ظلال الفناء، ثم ما انكشفتْ لهم حقيقتها وما تنطوي عليه من

معاني الكمال الإنساني، إلا ركعوا بين خرائبها وقَبَعوا كالأطفال ينظرون ويسمعون ويطيعون ثم يقبّلون مواطىء أقدام الشعراء والمصورين والفلاسفة، ويخلّون الأرض التي قدّسها الفكر وقد هانت عليهم مطامعهم في الغزو وصغرتْ حرابُهم ولانت قسيّهم وانقلبوا من برابرةٍ جُفاة إلى بشرٍ يحملون إلى الدنيا ما قلّ أو ما كثر من معاني الجمال التي لُقّنوها بين أطلال المدينة العظمى! وإذا بأيدي الأغارقة تمتدّ بنور الإنسانية إلى أقاصي الأرض، على رؤوس الأيام وهام الحُقب وأعظِمْ بما يصنعون!.

أمّا ما يؤلف وحدةَ هذا التاريخ، فكوْن المراحل التي مرّت بها شعوب العالم متشابهةً جوهراً وإن اختلفت شكلاً بعض الأحايين؛ وكونُ السياط الموجعة التي ذاقتها مواكب البشر جميعاً تحملها الأيدي ذاتها يغيّر اسمَها الزمانُ ويُكسبها لونَها المكان؛ وكون الغاية التي استهدفتْها شعوب الأرض في سيرها الموعر الشاقّ خلال رحلة التاريخ واحدةً كذلك وإن اختلفت عليها الأسماء! وفي تاريخ الإنسانية الواحد أمرٌ يجعل هذه الوحدة ضرورةً لازمةً قائمة بذاتها، وهو أنّ كل تقدم سجّله الإنسان، فرداً أو جماعة، هو نسيجٌ موحّد أسهمت الإنسانية بكاملها فيه، وبكل عصورها، منذ كان الإنسان حتى يومه هذا.

وإذا كانت هذه هي قصة التاريخ: قصة التطوّر الشامل ضمن خطوط عامّة كبرى، فما هو دورنا نحن العرب في نسج حوادثه؟ وما هو عملنا خلال مراحله في خدمة الإنسانية، أي في خدمة أنفسنا؟.

لقد أسهمنا، بحكم وجودنا على سطح الأرض، بتاريخ الإنسانية بما فيه من طولٍ وغرابةٍ ووحدة! ولعل إسهامنا في غرابته أظهر وجه في صفحات تاريخنا الخاص. هذه الغرابة التي يمثلها، في طورٍ من أطوار تاريخنا، شموخُ عليّ بن أبي طالب وشموخُ أقرانٍ له، بين منحدَرات هبطت بُعَيْدَ أيامه وتشقّقتْ بها الأرض حتى ما يبين لها قعر. شموخٌ في الفكر والقلب خليقٌ بنا

أن ننظر إليه كما ننظر إلى كل قمةٍ في تاريخ الإنسانية الواحد.

وما ضيّق على الإنسان آفاقه في القديم إلا ما ارتضاه لنفسه من حدودٍ شادها الضلال وركّزتْها العادة وشمخ بها التاريخ جيلاً بعد جيل.

وما عطّل على بصيرة المرء رؤيةَ الرحاب الرحبة والمسافات البعيدة والقمم الشاهقة، إلا غيومٌ ثقيلات يتنفّس الجهلُ فتتراكمُ وتزدحم وتطغى وتسودّ.

ولطالما ضاقت هذه الحدود في أكثر عهود التاريخ، فعطلت مواهب الإنسان التي أُوتيها لاكتشاف ينابيع الخير وراء الحدود. ولطالما طغتْ هذه الغيوم وتجهّمت فمنعتْ عن الإنسان أنْ يسبح في اللجّ ويشتدّ جرياً في مناكب الأرض.

أمّا ينابيع الخير هذه، وأمّا السماء واللجّ ومناكب الأرض وما تحوي، فما هي في كثرها إلا أكفّ العظماء الحقيقيين الذين مرّوا في هذه الأرض مرورَ الغمامات الخيّرة فوق الصحارى البيد! غمامات تمرّ كالأمل المشرق في عتمة اليأس. وتهطلُ في جنباتِ الصحارى هطول الحياة في جفاف اليَبَس، ثم تمضي وهي تاركةٌ وراءها الخضرةَ والنضرةَ والرواء والسُّقْيا لقومٍ جياعٍ عطاش!.

لقد طُويت صفحات التاريخ السود وبكت على نفسها تلك الضلالات والغباواتُ التي حدّتِ الإنسان بصراً وبصيرة، وضيّقت على العظماء فحصرتْ بعضهم في نطاقٍ من الناس لا يتخطّاه آخرون ولا يجوزه نظر. فإذا بالدائرة تتسع حتى تشمل الخلق جميعاً! وإذا بالعظيم الحق لا يخصّ طائفة من البشر ولا قوماً دون قوم! وإذا بسقراط للأغارقة والهنود والصينيين والعرب والناس أجمعين! وإذا غيره من العظماء لكل العالمين. وإذا عليّ بن أبي طالب، عظيم طائفة العظماء في الشرق، لكلّ من تمشي

به قدمٌ مَثله في ذلك ـ ومثَل أقرانه من نوابغ الأرض ـ مَثَل الشمس إذ تغمر الأرضَ سهولها وجبالها، قمَمها ووديانها، برّها وبحرها، فما على الإنسان إلا أن يَستنير بنورها فلا يُقيم دونه حدوداً وجدراناً، وأن يتدفّأ بنارها في برودة أيامه فلا يسعى في منع الدفء إلى زوايا الصقيع من حياته.

في تاريخ الشرق، كما هي الحال في تاريخ البشر جميعاً، غُزاة، ومجرمون، ولصوص محترفون، وأغبياء، وتافهون، شاء منطقُ العصور القديمة والمتوسطة أن يجعل منهم في حياتهم ملوكاً وقادة وأصحاب قولٍ فصْل وأمر مُطاع، وأن يصنع منهم بعد هلاكهم أبطالاً وعظماء، فخلع عليهم في الحالتين الألقاب الضخمة بغير حساب! وها نحن ما نزال تصفع وجوهَنا، في الكتب التي يتنافس في تلفيقها بعض حملة الألقاب، صفحاتٌ باردة كأنها الزمهرير من «بطولات» أولئك المجرمين، وفصولٌ من «عظمة» أولئك التافهين، حتى ليوهم هذا النمطُ من المؤلفين قراءهم بأن البطولة ليست إلا نوعاً من تصرّف النخاسين، وبأن العظمة ليست إلا شيئاً من البراعة في النهب والسلب والاغتصاب والتقتيل والتدمير واصطناع أسباب الإبادة، ثم التبجّح بالجريمة والزهو بالتفاهة والاعتزاز بصناعة الترويعِ والتجويعِ وكل أمرٍ فظيع!.

لذلك جئنا بهذا الكتاب، بعد أن طلبنا العافية لأولئك المؤلفين، نلمّ فيه بشخصية بطل حق، لأنه إنسان حق، لعلّنا نضيفه إلى سلسلة المؤلفات الخيّرة التي تتكاثر في مكتبتنا العربية اليوم. وبذلك نستيقظ على أمورٍ أهمّها:

إن تاريخنا هو أيضاً صفحاتٌ رائعة من الإشراق الإنساني العظيم تشرّفنا كعرب كما تضيف شرفاً إلى تاريخ الإنسان.

ومن الأمور التي نستيقظ عليها في دراسة عليّ وعصره وما تلاه من عصور، ذلك المقدار العظيم من الإسهام في مقاومة الظالم ونصرة

المظلوم؛ ومن معاندة الاستعباد والاستغلال والعمل على تقويض أسبابهما بِسَنِّ الأنظمة والدساتير في النطاق الذي تسمح به إمكانات الزمان والمكان، وبالتضحية في سبيل الكرامة الإنسانية بكل عزيز من الدم والحياة؛ فإذا بنا نعي أكثر فأكثر أن تاريخنا ليس كلّه ظلمةً وظلماً. ففي بقايا لياليه ومضاتٌ وبروق! وفي دياجيره متألقاتٌ وأهلّة! وفي غياهب جَوره غُرَرٌ حسانٌ وأيامٌ بيضٌ وشموس ضاحكات، ثم أمطارٌ هَتَنَتْ بها السماء على صحاريه رذاذاً تارةً وطوراً عُباباً!.

وإن مثل هذه الصفحات المشرقة في تاريخنا لتؤهلنا إلى أن نعيد النظر في أنفسنا من جديد، تحطيماً لكثير من القيود التي كبلتنا بها عصورُ الظلمات الطويلة، وتمجيداً للبطولة الحقيقية التي هي بطولة فرد من الأفراد أو جيلٍ من الأجيال في سبيل الإنسانية بأسرها، وتدعيماً لقومية عربية إنسانية تجعل خدمة الإنسان ـ في نطاقها وفي كل نطاق ـ غايتَها البعيدة وهدَفها الأقصى. ذلك أن الشعب الذي أمكنه أن يعبّر عن عبقريته منذ أربعة عشر قرناً برجل كعلي بن أبي طالب ثم بمجموعة من الناس كبعض تلاميذه وأنصاره يومذاك، هو شعب يستطيع اليوم ـ في عصر غزو الأفلاك ـ أن يمشي مع القافلة التي تسير وهي تنظر أبداً إلى الأمام، وهي إنْ نظرت إلى الوراء فلكي تستمد من وجودها الطويل عزيمةً وقوة، لا لكي تستريح حيث حطّ بها السير أو حيث جرفها تيّار التاريخ!.

أضف إلى ذلك كله أمرين اثنين، أولهما: أن كل شعب من شعوب هذه الأرض الوسيعة قد نظر إلى الشوامخ في صفحاته الخاصة من تاريخ الإنسانية الواحد، فدرَسها درساً كثيراً، وجلّى مكانة كلٍّ منها فوضعه في مقامه، مفيداً من ذلك عبرةً وقوة. ثم راح بعد ذلك يبحث في أنصاف الشوامخ، وفي أنصاف هؤلاء كذلك، وهلمّ جراً، متمماً ما يمكن له أن يفيد من حوادث التاريخ وسيَرِ أبطاله وعظمائه الحقيقيين، آخذاً منهم حافزاً

جديداً له على المسير. فلمَ لا نفعل مثلما يفعلون؟ ولِمَ لا نضع شوامخنا إلى جانب شوامخهم بعد الموازنة والمقابلة وقصّةُ تاريخنا واحدة وعظماؤنا لنا أجمعين؟.

وثاني الأمرين أنّ عليّ بن أبي طالب من الأفذاذ النادرين الذين إذا عرفتَهم على حقيقتهم بعيداً عن الصعيد التقليديّ الذي درجنا على أساسه ندرس رجالنا وتاريخنا، عرفتَ أنّ محورَ عظمتهم إنما هو الإيمان المطلق بكرامة الإنسان وحقه المقدس في الحياة الحرة الشريفة، وبأن هذا الإنسان متطوّر أبداً، وبأن الجمود والتقهقر والتوقّف عند حالٍ من أحوال الماضي أو الحاضر ليست إلاّ نذير الموت ودليل الفناء.

فقليلٌ جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويُلقون في نفسك مثل هذه القاعدة الأصل من قواعد التطور وكأن علياً ينزع بها عن لسان الطبيعة وقلب الحياة: «لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم!».

وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويلقون في نفسك مثلَ هذه القاعدة العظيمة التي تطال المسلك الإنساني بكامله فتوجّه كل نشاط وتراقب كل عمل: «من اعتدل يوماه فهو مغبون». وما يريد ابن أبي طالب بذلك إلا التصريح بأن الغبن لا يلحق الجماعة من الناس إلا إذا استوى حاضرهم وأمسهم، وبأنّ الغُنم هو أن يكون حاضرهم خيراً من يومهم. ولا يتم ذلك إلا بالانسياق مع تيار الحياة الذي لا يهدأ.

وقليلٌ جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويُلقون في نفسك موازينَ العدالة الكونية تنبثق عن نفسها وبنفسها تقوم، متكشّفين بنور العبقرية أن «من أساء خلقَه عذّب نفسه!».

وقليلٌ جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين أدركوا وعاشوا

وقالوا إن «كل إنسان نظير في الخلق» و «إن الناس أسوة!».

وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين وعَوا أن «الاحتكار جريمة» وأنه «ما جاع فقير إلا بما مُتّعَ به غنيّ» وأن «الذنب الذي لا يُغفر هو ظلم العباد بعضهم لبعض» ثم راحوا يخلقون القوانين وينظمون الدساتير على أساس هذا الوعي الكريم!.

وقليلٌ جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين عاشوا هذه المبادىء الأصول جميعاً، وجلّوها وأقاموا عليها مذاهب فكرية واجتماعية متماسكة خرجوا بها من نطاق الأفكار المستقلّ بعضها عن بعض إلى إقامة البناء المنظم الواحد ذي القواعد والأركان!.

ثم إن لِما انبثق من وجود عليّ قصةً في تاريخنا ذات فصولٍ عجاب! قصة تناوَلت خطوطها الكبرى من شموخ علي ومن صموده وراحت تنسج حوادثها أيدي الزمان! إنها قصة الثورة التي عاشها العالم العربي خلال عصورٍ قاتمات تناهى سوء حالها في الاستئثار والامتهان وطغيان ليالي الاستبداد الرهيب!.

فلا قويّ فيها ـ بمقياس قوة البهيمة ـ إلا وهو سيدٌ مطاع ينكّل ويقتل وينهب ويسطو ويضرب الخلقَ بالترويع!.

ولا لصّ فيها إلا وهمّته أنّ يأكل الناس مع الآكلين!.

ولا سفّاح إلاّ ورقاب الأبرياء مَحصَدةٌ لسيفه!.

ولا جاهل إلاّ وقصرهُ من جماجم المفكرين!.

ولا عبد إلا وله مأثرةٌ في قتل حُر!.

ولا تافه إلاّ ويمشي في الأرض مرحاً وهو يحسب أنه يخرق الأرض وأنه يبلغ الجبالَ طولاً!.

ولا جَزْر وَغَواع من جراء هؤلاء إلا وله رأيٌ وصوتٌ ويدٌ في تحديد مدة الحياة للأحياء، وكأنّ تاريخنا من ثم فصل من تاريخ الإنسانية العامّ الذي عرف من هذه المظالم كثيراً أو قليلاً! وعلى سبيل المثال العابر، أفلمْ يحكم «سيراكوز» في العصر القديم طاغية حقير يدعى دينيس فيبيع أفلاطون العظيم رقيقاً فيفتديه أحد أصدقائه ويرد إليه حريته! ثم يقوم بعد دينيس ابنٌ له أحقر من أبيه يدعى دينيس الصغير، فيعقد النية على أن ينكّل بالفيلسوف الجليل، فينجو الفيلسوف للمرّة الثانية؛ ثم يعود ويعتزم قتله، فينجو هذه المرة أيضاً بأعجوبة على يد أحد تلاميذه المخلصين؟.

أقول إنها قصة الثورة التي عاشها العالم العربي خلال المهالك المفزعة في ضمائر الأحرار وعلى ألسنتهم وبأيديهم، وهم كثيرٌ في طليعتهم تلاميذ علي الآخذون من نهجه وخلقه وصموده في وجه الاستبداد، والممثلون للقوى المعارضة في حكم الطغاة في أكثر أدوار تاريخنا المتوسط والقديم.

ثورة الإنسان المرهَق المظلوم الذي تبنّى قصة الدفاع عن نفسه وعن المستضعَفين والمضطهدين مختاراً أو مَسوقاً لا فرق. وقصة هذه الثورة الطويلة التي علّلها كثيرون فقال بعضهم إنها خيرٌ كلّها فأيّدوها، وقال بعضهم إنها شرّ كلها فأنكروها، جديرة بأن تدرس في ضوء جديد وهي في حقيقتها البعيدة التي نراها استمرار مشدود على الزمان لقصة علي ذاتها مع محاربيه بالسيف والحيلة. وهي بذلك صفحات من الكفاح في سبيل الحياة خطها في تاريخنا آباء لنا سابقون، فكانت لنا تعويضاً عظيماً عما في أمسنا من آثام واعتداءات!.

وخلاصة القول، إننا إذ ننطلق من النطاق العربي إلى النطاق العالمي الوسيع. ومن حدود الزمان العربي المقيّد بتاريخين متقاربين إلى حدود الزمان العالمي الذي يشمل بدء وجود الإنسان حتى عصر النهضة في

أوروبا، والذي عاش فيه عباقرةٌ عظام، وسُنّت دساتير، وقامت ثورات اجتماعية وأخلاقية وسياسية، لا بد لنا أن ندرك أن لابن أبي طالب مكانة بين هؤلاء الأفذاذ أصحاب الدساتير ومحدثي الثورات، فما هي هذه المكانة! وما هو محل الرجل بين أولئك الرجال؟.

أليس من الغبن أن يدور الحديث في أكثر المؤلفات الموضوعة عن ابن أبي طالب حول موضوعات تكاد تنحصر في واحد يدور فيه كلّ بحث وكل جدال، وهو إنّ جاوزه فللكلام على الضرب بالسيوف حتى تتقوس والطعن بالرماح حتى تتقصف، ثم عن مقاتليه تنحطّ عليهم الطير من السماء وتمزّقهم سباع الأرض؟!.

إن لهذه الأمور موضوعاً في تاريخ علي ولا ريب، لأن أخبارها انحسرت عن ألف قضية وقضية في التاريخ البعيد. ولكن جوانب العظمة الحقيقية في ابن أبي طالب أكثر من ذلك. وهي إنّ درست فلكي تتوضح بعض الخفايا التاريخية في حياة الرجل وحياة معاصريه، لا لكي يدور على محورها كل بحث وكل نقاش.

لقد جهدنا أن يحفل هذا الكتاب بنظرات جديدة تتعلق بعصر علي، وبنظرات موسّعة جديدة كذلك تتناول عبقريته، ثم بالتفاتة جامعة تشمل ما انطوى عليه تاريخ الإنسانية من معنى الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً وكيف تدرّج هذا المعنى من طورٍ إلى طور وفقاً لسير التاريخ العامّ، لنوضح بعد ذلك ما أمكننا أن نوضح من معنى الإنسان عند علي بن أبي طالب بالمقابلة بينه وبين مفكري العصور من بعض الجوانب، وبين مبادئه العامة ومبادىء الثورة الكبرى المعروفة بالثورة الفرنسية بوصفها تجمع ما في الإنسانيات القديمة والمتوسطة من معنى الإنسان، ثم بوصفها خاتمة عهود في تاريخ البشر وفاتحة عهد جديد!.

ومما أثبتناه أيضاً في هذا الكتاب أبحاث تتناول كلًّا من عليّ

وسقراط بالتحليل، ثم تتناول الرجلين بالمقارنة والموازنة في فلسفة الأخلاق وفي غيرها من شؤون الإنسان. وبحثٌ يُظهر أن علياً يمثل في جملة كيانه جانباً عظيماً من العدالة الكونية الشاملة. ودراسة واسعة الغرضُ منها الكشف عن مقدار ما في شخصية ابن أبي طالب من تماسكٍ لا يصحّ بغير وجوده بحثٌ ولا يستقيم رأي. ولقد بدا لنا من تماسك هذه الشخصية ما يُدهش ويُعجب. ثم أبحاث تدور حول معنى التشيُّع في التاريخ العربي وفيها كشفٌ عن الأغلاط التي رضيَها أكثر المؤلفين لأنفسهم بصدد هذا الموضوع الدقيق. وأخرى تتناول أثر عليّ في الأدب العربي خلال العصور المتوسطة. ودراسةٌ خاصة بعنوان: الإمام عليّ والقومية العربية. ثم دراسات كثيرة غيرها.

وقد مهدنا لهذه الأبحاث جميعاً برأيٍ لنا مفصّل في أساليب الباحثين ساعة يدرسون تاريخنا القديم ويرون آراءهم في قضاياه. وبفضل تحدثنا فيه عن الحدود الحقيقية التي يمكننا أن ندرس تاريخنا ضمنها. وأنهيناها بالنظر في الدراسات التي وضعها المؤلفون العرب والأجانب عن ابن أبي طالب وبإبداء رأينا فيها.

بقي أن نوضح أمراً يتعلق بما أشار إليه بعض النقّاد من مقاطع هنا أو هناك هي أقرب إلى الشعر منها إلى البحث. ولمّا كان هذا الأمر موضّحاً في الفصل الذي عقدناه عن الأوروبيين والإمام، فقد كفينا نفسنا والقارىء عناء إيضاحه الآن. وإنّ ردّنا على هذا التزمّت المنسوب زُوراً إلى العلم، والذي يريد أن يسلب النارَ حرارتَها والريحَ عصفَها والنهرَ مجاريه، والذي لا نرى فيه إلاّ كلالاً وعجزاً يتستران ببرقعٍ صَنَعاه وقالا إنه من صنع العلم، لَجديرٌ بأنْ نلفت إليه النظر لأنه يتناول جوهراً في أسلوب الدراسات، لا عَرضاً.

وأنْ نكون قد أنصفنا بعض أطوار تاريخنا وأفدنا منها عبرةً في سيرنا

الصاعد مع موكب الحياة المتجددة أبداً، أُسوةً بغيرنا من إخواننا البشر الذين يُفيدون من تاريخهم الخاص، وأُسوة بغيرنا وبأنفسنا ساعة نُفيد من تاريخ الإنسانية الشامل. ذَلِكُمْ رجاؤنا من هذا الكتاب.

جورج سجعان جرداق

أرضُ المعجزات

مَهد النبوّة

أرضٌ هي المُعجزةُ بما كانت، وهيَ المعجزة بما ستكون!.

فلواتٌ عظيمة الاتّساع لو جادها الغيثُ ومدّها بالخضرة والنضرة والرواء لأطعمت جياع الدنيا وكستْ عُراة العالمين، وفيها من الامتداد ما لا يحده خيالٌ ولا يضبطه تصوّر. ولكنها بَوَادٍ ما تزالُ في أول تكوينها من رمالٍ متعرّجة ملتوية تموّجتْ أو تصلّبتْ أو لعبتْ بها زعازع الريح فهيَ أرضٌ تثور. ومن كُثبانٍ هنا وأودية هناك جعلتها اللوافحُ من حَبّ الرمال فهي من عجبٍ تقعدُ وتقوم. ومن جبالٍ جُرْدٍ قليلة الارتفاع هي الجذْبُ تجمّعَ وتكوّرَ وعلا علوّاً هزيلاً. ومن قفارٍ بركانية لافحة استوتْ صُلبة أرضُها ذات حجارةٍ سُودٍ نَخِرَةٍ كأنها أُحرقت بالنار فهي مقذوفاتٌ تجمّدت حرارةً وسواداً فدعوها حَرّاتٍ وجعلوا لها أسماء ويا لبؤس الأسماء! إنها فلواتٌ لا تصلح للزراعة ولا للإقامة، وفي الزراعة علّةُ السّكنى. وهي في ذلك من أشدّ أقاليم العالم حرارة وأقلّها سماحاً بالنّدى على الرغم من بحارٍ ثلاثة تحيط بها. وقد يجودها الغيثُ في بعض الأقاليم فيكسبها شيئاً من الطراوة، فيتربّصون مواسمه فيخرجون إليه بكل ما لهم من إبل ونساء وأولاد. إلا أن ريح السَّموم وهي شرّ ريح تثور في جنباتها وأواسطها فتقضي على كل رطب فيها وقد تقضي على الحياة. فإذا بالشعراء يغنّون نسيم الصَّبا المنعش إذا هبّ عليهم من الشرق، كمنْ يبتهجون بعبقة من رائحة الجنة!.

أما أنهارها فلا نهر واحداً فيها دائم الجريان. ولكنْ سيولٌ غِزارٌ تُجري حين تفيض الأمطار في بعض الأقاليم، آخذة بطون الأودية المشتبكة مَسِيلاً لها، فإذا بالقوم يحتالون على بعضها بسدودٍ تحبس المياهَ ولو إلى حين.

أمّا حيوانُها فغيرُ حيوانِ سائرِ الأرض. لقد جعل اللّهُ له سُوقاً طوالاً ليُمكنه أن يقطع المسافات الشاسعة فلا يتيه في عرض الفلاة. كما جعل لبعضه خُفّاً مستديراً كي لا تغرق سُوقُهُ في الرمال. وهيّأ له من قوة الاحتمال والصبر بمقدار ما هيّأ لموطنه من وعورة المسلك وأهوال الطريق. ثم خصّه بمقاومة الظمأ والقيظ، وبمعدةٍ تختزن المياه لأيّام. وقد تُستخلَص هذه المياهُ بإحدى الوسائل فيشربها البدويّ، صاحبُ البعير، الذي سمّاه ألفاً من الأسماء.

ونبتُها، ولن أسهب في وصفه، نادرٌ، شائكٌ حَرّان، ظمآن العروق!.

أما بيوتها فمن الخطأ أنّ تُدعى بيوتاً. فإنْ هي إلا مضارب تنفخ فيها الرياحُ اللافحة ويغزوها الحرّ القائظُ فإذا بها وَعَرَاء الصحراء سواءٌ بسواء. وهي، إلى ذلك، لا تُضرَب إلاّ في أقاليمَ وأقاليم. فمن العبث أنْ يسعى ساكنوها إلى الإقامة حيث يشاؤون، أو يَقَرُّوا في مكانٍ أمين، فهم على موعد دائم مع الرحيل.

أمّا آلة العيش فيها فالأسودانِ: التمرُ وما كان من الماء. بالإضافة إلى ما قد يكون من لحم الإبل وقنص البيد.

وتحمل طبيعةُ الصحراء قاطنيها على الغزو فالاقتتال. فالنزاعُ الدائم هو نظامهم الاجتماعي في الأصل!.

وعلى صحارى الجزيرة وداراتها تُلقي الشمسُ رداءً من لهيب فإذا الصعلوك يشوي على حصاها الذئبَ الصريع أو الشاة الجَزُور.

وعلى صحارى الجزيرة وداراتها يخيّم الضجرُ القاتلُ والسأمُ المر. فمشاهدها واحدةٌ لا تتبدلُ في انبساطٍ من محيط الرمال على قلّة الواحات، وفي الأمل الكليل الذي لا تهيّىء له الفلواتُ انعقاداً ولا امتداداً.

وليس من شأن هذه الطبيعةِ القاسية، وهذا العيش الرتيب، وهذا الوجودِ الصعب، أنْ تخلق في أهل الصحراء شعوراً بسَعَةِ الكون وشمُول الحياة وامتدادِ قيَم الخير ممّا يُليّن النفسَ ويملأ القلب. فمثْل هذه الأحاسيس تنبتُ في الواحات الخُضْرِ لا في المَهَامهِ البيد، ولدى الناعمين بالعيش لا في قلوب التاعسين.

ولا عبرة في بعض قرى الجزيرة العامرة في ذلك الزمان. فهي قرًى تتناثر هزيلةً عجفاء، كئيبةً سوداء، بين حرّات سُود، تُباعد ما بينها مجاهلُ يضلّ فيها الدليلُ ويعبسُ وجهُ الأرض! أمّا عُمرانُها فأشبه ما يكون بالقليل إلى جانب الأقلّ، وبالعسير إلى جانب الأعسر. وهي فوق ذلك، خاضعةٌ لجوّ الصحراء العام من حيث قسوة المناخ، وطغيان الفاقة، وبُعد الأسفار، والعزلة عن مآتي العالم، اللّهمّ إلا ما كان في بعض أرض الطائف ويثرب من ثروةٍ نسْبية.

أمّا مكّة، فبيتٌ للأوثان!.

أما أهلها، فتجّار من مقاييسهم أخْذُ الروح بالدينار!.

❀ ❀ ❀

شظفٌ من العيش في جحيمٍ من الرمال، في سأم من الحال، في يأسٍ من الغدِ ماحق! هذه هي جزيرة العرب!.

وإنسانُها؛ أليس من العجب أن يكون في هذه الأرض إنسانٌ وفي جوارها خصْبٌ ورُواء، وغذاءٌ وكساء ووفْرةٌ من كلّ عيشٍ تكفي مَن عَبَرَ إليه سبيلاً!.

وجود هذا الإنسان في هذه الأرض لا يبغي عنها بديلاً ولا يرضى بغيرها موطناً، وقد حاصرتْه جبالُه وبحاره وآفاقه وصحاريه، هو المعجزة التي كانت: معجزة الصحراء قبل ثورةِ محمد وثورةِ علي!.

❀ ❀ ❀

ولكنْ، ما ينابيعُ الأرض إذا تفجّرت بالخير!

ما واحاتُ النعيم إذا اشتعلتْ بالخضرة!

ما ثروة الدنيا إذا تجمّعتْ في بلد!

ما رطوبة الليل وأنداء الصباح، وأنفاس الصبا!

ما أجسامٌ تقيم على ناعم العيش في أرضٍ تدرّ العسلَ واللبنَ وتُعطي المرّ واللبان!

ما ضحك الطبيعة، ومرحها، وتوثّبها، في كل فردوس!

ما كل ما يُمكن للدنيا، دون جزيرةِ العرب، أن تعطيه يومذاك!

ما كل ذلك شأناً وقيمةً إلى جانب ما ستطلعُ به أرضُ المعجزاتِ على الدنيا!

لقد أطلّت على الدنيا يومذاك بما هو أجلّ وأعظم، حين تنادى الكون، وتوحّد الزمن، وصفتِ الينابيع، وانجلتْ قيمُ الحياة، وانطلق ضمير الوجود في مخضٍ من الإنسانية المطلقة وفي فيْضٍ من تمجيد الخير وتصعيد الطبيعة وتمديد عناصر الفضيلة، لتحلّ وحدةً حية في نزيل غار حراء، محمد بن عبد الله! ثم لتستمرّ في صفوة الخيّرين، الثائر العظيم عليّ بن أبي طالب!.

بَعْثُ هذا الكائن العظيم، واستمراره في ابن عمه العظيم، تجسيداً للحقيقة العظمى، على مثل هذه الأرض، في قومٍ من مقاييسهم أخْذُ الروحِ

بالدينار، هو المعجزة التي ستكون: معجزة الصحراء بعد محمّد وعليّ، صاحبَي الثورات الاجتماعية الخيّرة على بؤس ذلك المحيط وذيّاك الزمان!.

صَوْت محمّد

من لهيب الصحراء المحرقة وهجٌ في عينيه!.

ومن انبساط الرمال أمام وهج الشمس صراحةٌ على شفتيه!

ومن جنائن يثرب وخمائل الطائف، ومن واحات الحجاز السابحة في الفضاء كأنها الجزرُ المتناثرةُ في محيطٍ من الرمل تحت ضوءِ القمر، نداوةٌ في قلبه ورفقٌ في دمه!

ومن عصف الرياح الهُوج، ثورةٌ في خياله!

ومن بيان الشعر ونور السماء، سحْرٌ في لسانهِ وقبَسٌ في روحه!

ومن صِدق العزيمة ولغة الفكر، مضاءٌ في حسامه ورسالةٌ في يمينه!

ذاك هو محمد بن عبد الله، نبيّ العرب، ومحطّم الوثنية التي أقصت الإنسان عن أخيه الإنسان: وثنية المال، ووثنية العادة، العنصر الخرقاء!.

❀ ❀ ❀

كان بنو قريش يختصرون الدنيا بدرهمٍ يَزلقُ من يد الأعرابي ليستقرّ في جيوبهم!

وكانوا يوجزون قِيَمَ الحياة بتجارة رابحة وكسبٍ يضاف إلى كسب، وقافلة تسير في الشعابِ والأَوْهُدِ، وتقطع البيدَ على حَذْو النّوق ولا تجد

لها مَقْيلاً غيرَ ظلٍّ من دوحةٍ قُرَشيّة، ولا مَوْئلاً إلاّ في مكة الوثنية حيث يعتزّ الدرهمُ ويشمخ الدينار!

وعصف في آذانهم صوتٌ تخلّعتْ له أعصابُهم، وتمزّقتْ شهواتُهم ومالت به الدنيا عليهم تقول:

إنّ للإنسان قيمةً غير التي تعرفون! وإنّ للأعرابيّ السادرِ في مجاهل البِيد رسالةً غير التي تزعمون!.

ذلك الصوت، كان صوت محمد!

❀ ❀ ❀

وجدّت أسدٌ وتميم في طريق الحماقة، وحثّوا السير في مهاوي الضلال، وطفقوا يَئِدون بناتهم وليس لهم في وأدهنّ من حاجةٍ إلاّ اتّباع العادة وتمكين ما حَرّفَ الإنسانُ من آيات الخالق، وما أنكرَ من جمال الطبيعة، وما شوّه من فتنة الكون!.

وتردّدَ في أسماعهم صوتٌ رفيقٌ جرتْ عليه نسماتُ الحنان وخفقاتُ الحب وهمسُ الحياة يقول:

إليكم عن الوأد يا عباد الله! للأنثى منكم مثل ما للذكر! وليس لمخلوق على آخر حقّ الحياة والموت، وإنما هو الله مَن يحيي ويميت!.

ذلك الصوت، كان صوت محمد!.

❀ ❀ ❀

وانطلق الأعراب يتفانون بحدّ السيف ويتقارعون بألسنة كأنّها سياطُ الجحيم، ويلثمون أفواه العذارى على شفارِ المهنّد، فإذا هم خلْطٌ من فوارسَ يَفخَرون، ورجالٍ يُصرعون، وأطفالٍ يصرخون ويستغيثون، وينشأون على غير المودّة وغير الإخاء.

ودوّى في خيامهم صوتٌ أشدّ قصفاً من الرعد، وأمدّ هولاً من العاصفة، يردّد ويقول:

ما هذا الذي تصنعون! أَلَكُم أن تقتتلوا وأنتم إخوةٌ في خالق السماء والأرض؟ الحرب من عمل الشيطان والسلم أولى بكم وفيه ذُواقُ النعيم الذي تشتهون!.

ذلك الصوت، كان صوت محمد!

❀ ❀ ❀

وأدرك العربَ الزهوُ كما لم يدرك شعباً ولا أمّة!

وأبدوا من الاحتقار للأعاجم ما يُبديه الاعتدادُ والغطرسةُ والخُلُقُ الأعجفُ العِربيد. فنال الأعجميّ من الامتهان ما أزرى بكرامتِهِ كإنسان. فشقّ ذلك على صاحب الرسالة فأفاق المتغطرسون على صوت يقول:

ليس لعربي فضلٌ على أعجمي إلاّ بالتقوى. والإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره[1].

ذلك الصوت، كان صوت محمد!

❀ ❀ ❀

أما المعذبون في الأرض.

أما المشرّدون الذين لفحتْهم سمومُ الصحراء، ونَبَذَهم المجتمع الأجير، وضَيّقتْ عليهم الحياةُ فباتوا من الوجود أحقرَ من ذرّات الرمال، وصاروا من العيش على الصحائف السود؛ أمّا أولئك فَهُمْ أصدقاء صاحب

(١) من أقوال صاحب الرسالة.

الرسالة، كما كان الفقراء والمنبوذون أصدقاء المسيح عيسى ابن مريم وأصدقاء غيره من عظماء الأرض. وهو من أجلهم جعل الحكم شورى وحرّم الاستعباد واستغلالَ الإنسان للإنسان، وأمّم بيتَ المال وجهودَ الناس، وألهب ظهور أعمامه القرشيين بالسياط الخيّرة، وتطلّع بجملة كيانه إلى وحدة الكون مجسّداً في إلٰه، وهم يُغرون به السفهاءَ والصِّبْيَةَ فيرجمونه بالحجارة ويسخرون منه!

أمّا أولئك المعذّبون في الأرض والمشردون والأرقّاء، الذين كان منهم بلال مؤذّن الرسول وأول مؤذنٍ في الإسلام، فهم الذين تفتّحتْ قلوبهم على صوتٍ أعمقَ صدًى من نشيد الصباح وأمدّ سلطاناً من جِنْح الليل، وأفعلَ في النفس من صوت القَدَر:

«الخلق كلّهم عيالُ الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله»[1].

ذلك الصوت، كان صوت محمد!

❀ ❀ ❀

أما خصومُه وراجموه والساخرون به، فقد تلقّوا عن لسانه هذا الصوت المحيي:

﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾[2].

ذلك الصوت، كان صوت محمد!

❀ ❀ ❀

---

(١) من أقوال صاحب الرسالة.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

أمّا المحاربون في سبيل حياة أفضل، واما أنصاره ضد الشر، وأما مَن قد تُحدّثهم نفوسهم بهدر الحقوق والكرامات في ساحة الجهاد والذود عن الثورة القويمة، فقد ثبتتْ في قلوبهم هذه الكلمات الرائعة:

«لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً فانياً ولا منعزلاً بصومعته، ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء»[1].

ذلك الصوت، كان صوت محمد!

❀ ❀ ❀

وحمل العرب من ابن عبد الله ذلك الصوتَ الكريم. وامتدّوا به أوّلَ أمرهم على بسْطة الأرضِ حتى أغرقوا فيه كلّ ذي تاج وسلطان. وحتى أوثقوا الصلة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان وروح الكائنات التي جسّدها نبيّ الصحراء إلٰهاً سوياً لا شريكَ له!

واتّسع ظل محمد بن عبد الله وتعاظم حتى اكتنف العالم القديم. فإذا هو من مطلّ الشمس إلى مغربها أرضٌ تُنبت الخيرَ والمعرفةَ والسلم! وإذا بنبيّ الصحراء يمدّ يده فوق الدنيا ليبذر في أرضها بذور الإخاء والحب.

وصار لدولة العرب رجلٌ في الهند، ورجلٌ في الأندلس!

وعُقد على جبينِ الشمس تاجُ شعبٍ عظيم!

❀ ❀ ❀

وكانت، على هذا الصوتِ، الدعوةُ إلى الإخاء الإنساني. وكان رفْع أيدي الحكام عن الشعب وأمواله وجهوده، ومساواةُ الناس في الحقوق:

---

(١) من أقوال صاحب الرسالة.

الصغير والكبير، المحكوم والحاكم، العربي والأعجمي، فالناس كلهم إخوان متساوون.

وكانت، على هذا الصوت، الدعوةُ إلى تحرير المرأة من جور الرجل، وتحرير العامل من ظلم صاحب العمل، وتحرير الرقيق والخدم من العبودية والهوان بما يحمله فكرُ الزمان وتأذن به طبيعةُ المحيط، وإشراكُ الشعب في السلطان، على غير ما رأى فلاسفةُ الأولين الذين قرّروا حرمان العمال والصنّاع والموالي من الحقوق المدنية لـ «انحطاط» ما يمارسونه من المهن والصناعات، وجعلوا الدنيا طبقاتٍ في الحقوق والواجبات!

كان أكثر ما يمكن أن يكون من الخير العامّ في منطق ذيّاك الزمان وإمكانات أبنائه.

وحُرّم الرّبا واستغلال الإنسان للإنسان!

وكان صوت عليّ بن أبي طالب!

وكانت ثورةٌ على مجتمعٍ آخذٍ من كلّ بغيٍ وعدوان!

الضمير العملاق

الإمام عليّ بن أبي طالب، عظيم العظماء، نسخةٌ مفردةٌ لم يرَ لها الشرق ولا الغرب صورةً طبق الأصل لا قديماً ولا حديثاً.

شبلي الشميّل

علَى هَامَة التَّاريخ

ما هو من الآدميين إلاّ بمقدار ما يسمون بمقياس الضمير والوجدان.

هلاّ أعرتَ دنياك أذناً صاغيةً فتخبرك بما كان من أمر عظيمٍ ما أعطت الدنيا أن تُحدّثك عن مثله إلاّ قليلاً بين جيلٍ وجيل!

هلاّ أعرتَ دنياك أذناً وقلباً وعقلاً فتُلقي إلى كيانك جميعاً بخبر عبقريٍّ حملتْ منه في وجدانها قصّة الضمير العملاق يعلو ويعلو حتى لتَهون عليه الدنيا وتهون الحياة. ويهون البنونَ والأقربونَ والمال والسلطان ورؤية الشمس المشرقة الغاربة. وحتى يندفع بصاحبه ارتفاعاً فما هو من الآدميين إلا بمقدار ما يسمُون بمقياس الضمير والوجدان!

هلاّ أعرتَ دنياك هذه الأذنَ وهذا القلبَ وهذا العقل، فتروي لك مع المعرّي، ومع الطيّبين من الأقربين والأبعدين، قصةَ الشهادة تصبغ الفجر والشفق بدمِ العدل والحق الصريعين، فإذا دماء الشهيد في أواخر الليل فجرانِ وفي أُولياته شَفقان!

هلاّ ضربت بعينيك حيث شئتَ من تاريخ هذا الشرق، سائلاً عن فكرٍ هو من منطق الخير نقطةُ الدائرة، تشد إليها آراء جديدة في الحياة والموت، ونظراتٍ عميقة في الشرائع والأنظمة والدساتير وقوانين الأخلاق، وفي مكانها من المجموعة البشرية على صعيد التعامل والتعاطي وربْط الإنسان

بالإنسان في مجتمع هو من الكلّ وللكلّ على السواء!

هلاّ سألته عن فكرٍ أنتج للناس مذهباً في الحكمة هو من مذاهب العصور ومن نتاجها القيّم يرِثُهُ الأوّلون فيورثونه الأبناء والأحفاد، فيجتمعون له، فيأخذون منه بقدر طاقتهم على الأخذ وما يتركونه فهو للطالعين المُقبلين!

هلاّ سألته عن ذكاء غريب أورث صاحبَه الشقاء والناسُ منه في نعيم. ومدّ أمام أنصاره وأخصامه الطريق وما يزال! ذكاء العالم الباحث عن كل علّة وكل نتيجة؛ الراغب في الاكتشاف والتبيين وتركيز ذاته على قواعد ونواميس؛ العميق الواسع الإدراك، السابر الأغوار حتى لا تفوته أعمال الناس وهي ما تزال في نفوسهم خواطرَ وفي رؤوسهم أفكاراً! ذكاء العالم الذي أوتي من المواهب ما جعل علمَه متصلاً بكل علم أخلاقيّ جاء بعده في هذا الشرق، بل أصلاً له!

هلاّ عرفت بين العقول عقلاً نافذاً كانت له السابقة في إدراك حقيقة كبرى هي أصل الحقائق الاجتماعية وعلّة تركيب المجتمع وتسييره على هذا النحو دون ذاك؛ وهي الموضوع الذي تدور عليه دراسات الباحثين العلماء في الشرق والغرب اليوم بعد ألف وأربعمائة عام وما ينيف تمرّ على إدراكه إياها. ولا نعني بها إلا واقع الاستغلالية وأساليبها في الاحتيال على قواعد الطبيعة، وفي تضليل العقول عن أسبابها الصحيحة ونتائجها المحتومة، وتفاهة منطقها الذي صنعه الأغنياء لاستثمار الفقراء، والحكام لاحتكار مجهود الناس، وبعضُ الإلهيين لتثبيت سلطانهم على الأرض!

هل عرفتَ العقل الجبار يقرّر، منذ بضعة عشر قرناً، الحقيقة الاجتماعية الكبرى التي تضع حدًّا لأوهامٍ لها ألف مصدر ومصدر فيعلن أنه «ما جاع فقير إلاّ بما مُتّع به غني» ثم يردف قائلاً لتقييم هذه الحقيقة: «ما رأيتُ نعمةً موفورة إلاّ وإلى جانبها حق مضيع!» أمّا إلى أحد عُمّاله فيبعث

بهذا القول في صدد الحديث عن الاحتكار، باب الغبن الاجتماعي ودعامته: «وذلك باب مضرّةٍ للعامة، وعيبٌ على الولاة، فامنعْ من الاحتكار!».

هل عرفت عظيماً دلّه عقله الجبّار، منذ بضعة عشر قرناً، على اكتشاف سرّ الإنسانية الصحيح فإذا سرّها متصلٌ اتصالاً عميقاً بالشعب الذي لم يكن حكّام زمانه وملوكه ليقيموا له وزناً أو ليشعروا له بوجود إلاّ في نطاقِ ما يكون لهم سلّماً ومطيّة. فإذا كان رافاييل قد اتّخذ من إحدى فلاّحات الريف الإيطالي نموذجاً للعذراء أُمّ المسيح ليضع في هذا النموذج كل ما يحبّه ويريده من معاني الكرم الإنساني؛ وإذا كان تولستوي وفولتير وغيتي قد عملوا في صنيعهم الفكري والاجتماعي ما هو من روح رافاييل في صنيعه هذا، فإن ذاك العظيم قد سبقهم إليه بمئات السنين مع الفارق بين ظرفه الصعب وظروفهم المؤاتية، وبين مجتمعه الضيّق ومجتمعاتهم الواسعة، فإذا هو يحارب الملوك والأمراء والولاة والأثرياء! يحارب عبثهم وسخف تفكيرهم في سبيل الشعب المظلوم المهان فيُقسم قائلاً: «وأيم الله، لأنصفنّ المظلوم من ظالمه ولأقودنّ الظالم بخزامته حتى أُورده منهلَ الحق وإن كان كارهاً». ثم يطلق في آذان أُمراء زمانه العابثين هذه الصيحة المدوّية التي يكمن وراءها من المعرفة لحقيقة أهل الأرستقراطية التافهين، المتعالين على تفاهتهم، ولحقيقة الشعب البائس الشقي، ما لا مزيد عليه، فيقول بإيجازٍ كأنه صوت القدَر: «أسفلُكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلُكم!». وما يقصد من وراء هذا إلا الإشارة الصريحة إلى ما يُخفي الحرمانُ والجور من مواهب أبناء الشعب في الخير. وإلى ما يستتر في ثياب الإقطاعيين والحكام والمحتكرين من شياطين الشر وأبالسة الأذى والمكر!

هل عرفتَ عظيماً ساق إلى مدارك الناس حقيقةً إنسانية قديمة كالأزل، باقية كالأبد، عميقة حتى ليستشفّها كبار العقول والنفوس كلٌّ منهم

على نهجه ووفق مزاجه؛ وحتى ليأبى العاديّون إلاّ العيش في ظلالها وهم لا يعرفون. فإذا بهم يرضون بما قسَط لهم الأجداد والآباء من أفكار وآراء لا تتطلب منهم عناءً ولا جهداً لأنها أُنزِلتْ فيهم منزلة العادة والتقليد. حقيقة كانت أساساً لفلسفات إيجابية، وأُخرى سلبية، وأعني بها البحثَ عن المطلق للاستقرار. والبحث عن المطلق لا يعني في أعماقه إلاّ البحث عن الحقيقة في وجهٍ من الوجوه. يتعاون في هذا البحث العقلُ والقلب والخيال وما ينبثق عنها من خلق، ثم الظرفُ والمناسبة والدوافع والنوازع على اختلاف معانيها وأشكالها. وقد أدرك هذا المطلقَ على نحوٍ معيّن. ثم أدرك بعقله وقلبه أن في كل استقرارٍ على المطلق قوة؛ فإذا هو مثالُ هذه القوة؛ وإذا قوّته تبدو في انتصاره وانكساره على السواء لأنها، هنا وهناك، هي الغالبة القاهرة سيّانِ عندها النصر والهزيمة في ميدان القتال وميدان السياسة وكل ميدان. فليس في الغلبة أو الهزيمة محكّ لها؛ فهي إنما تحمل بذاتها كلّ مقياسٍ وكل ميزان!

هل سألتَ تاريخ هذا الشرق عن صلابة العقيدة لا تُجرّحها الزلازلُ ولا يشوبها من البراكين وهَنٌ! وأي زلزال أشدّ على العقيدة من ائتمارٍ أقلّه إجماع الخصوم، وهم كُثْرٌ أقوياء، على التخطئة والتكفير ما إليهما من ذنوب! وأيّ بركان أحرقُ للعقيدة من التهديد بالموت المحتوم، ثم من الموت نفسه! ثم، هل سألتَ كيف يكون الصراع من أجلِ العقيدة لا يواربُ ولا يساوم، ولا ينطوي على نفع ولا يدور في نطاق من الأثرة والاستعلاء، اللهمّ إلاّ إذا كان نجاح العقيدة هو النفع والاستعلاء والأثرة!

هل طلبتَ إلى الدنيا أن تناجيك بحديث الرحمة تنطلق من قلبٍ ملأتْه الرحمة ومن لسانٍ تجري عليه بَرْداً وسلاماً، فإذا هي القوة الغالبة تتحطم على بابها مغرياتُ الأرض المتفجّرةِ بالمغريات تأتي من غير مصدرها، في عهدٍ هو عهد القسوة والاستغلال واحتكار المنافع يتقاتل عليها الخصوم ثم

يلتقون على قتال صاحب القلب واللسان الرحيمين!

هل عرفتَ البراءة في قاموس الكلمات التي يردّدها الناس ويكتبونها ويعيشونها في كثيرهم أو قليلهم وكلٌّ منهم يأخذ منها بحُكم تكوينه، تنادي إليها أخواتها جميعاً من سلامة القلب وصفاء النية، والطهارة الخالصة التي لو مَثَّلَتها لمَا أحسنتَ لها تشبيهاً بدموع الليل وأنداء الفجر لأنها طهارةُ الإنسان ما فَضِلَهُ فجرٌ ولا ليل! البراءة الصافية الطاهرة تنبع من القلب السليم الطاهر الذي تطمئنّ إلى صاحبه كما يطمئنّ الشتاء إلى حرارة الشمس، وتثق به كما تثق الأرض بالماء فتحيا وتخضرّ!

هل عرفتَ عظيماً أدرك من أسباب المحبة والوفاء فوق ما أدرك الآخرون! ثم ما أدرك هذه المحبةَ وهذا الوفاء إلاّ في نطاق الطبع الخالص الذي يجري بنفسه من نفسه، فأحَبّ وما تكلّف حبًّا، ووفى وما تَكلّف وفاءً، وفهمَ بعميق فكره وعميق حسّه أن الحرية لها قدسيةٌ يريدها الوجودُ ويأبى عنها بديلاً وفي رحْبها تدور كل عاطفة وكل فكر؛ وفي رحبها يكون الحب ويجري الوفاء صريحين طليقين، فإذا «شرّ الإخوان مَن تُكلّف لَه» وإذا خيرهم غير هذا!

هل سألت عن حاكم يحذّر نفسه أن يأكل خبزاً فيشبع في مَواطن يكثر فيها مَن لا عهدَ لهم بِشِبَع؛ وأنْ يلبس ثوباً ناعماً وفي أبناء الشعب من يرتدي خشن اللباس؛ وأن يقتني درهماً وفي الناس فقرٌ وحاجة؛ ويوصي أبناءه وأنصاره ألاّ يسيروا مع نفوسهم غير هذه السيرة؛ ثم يقاضي أخاه لمكانِ دينارٍ طَلَبَه من مال الشعب من غير بلاء، ويقاضي أعوانه ومبايعيه ووُلاته من أجل رغيفٍ يأكلونه في رشوةٍ من غنيّ. فيتهدّد ويتوعّد ويبعث إلى أحد وُلاته بأنه يُقسم بالله صادقاً إنْ هو خان من مال الشعب شيئاً صغيراً أو كبيراً ليَشدّنّ عليه شدّةً تدعُهُ قليلَ الوفْر، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر. ويخاطب آخر بهذا القول الموجز الرائع الإيجاز: «بلغني أنك

جرّدتَ الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلتَ ما تحت قدميك، فارفعْ إليّ حسابك». ويتوعد ثالثاً ممن يرتشون ويسعون في الإثراء على حساب المستضعفين، يقول: «فاتّقِ الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرَنّ إلى الله فيك، ولأضربنّك بسيفي الذي ما ضربتُ به أحداً إلاّ دخل النار!».

هل عرفتَ من الخلقِ أميراً على زمانه ومكانه يطحن لنفسه فيأكل ما يطحن خبزاً يابساً يكسره على ركبتيه؛ ويرقع خفّه بيديه؛ ولا يكتنز من دنياه كثيراً أو قليلاً على ما مرّ، لأن همّه ليس إلاّ أن يكون للمستضعَف والمظلوم والفقير يُنصفهم من المستغلّين والمحتكرين ويمسك عليهم الحياةَ وكريم العيش؛ فما يعنيه أنْ يشبع ويرتوي وينام هانئاً وفي الأرض «من لا طمع له في القرص» وفيها «بطون غرثى وأكبادٌ حرّى» قائلاً، ويا لشرف القول: «أأقنع من نفسي بأن يقال أميرُ المؤمنين ولا أُشاركهم مكارهَ الدهر؟» ولأنّ أقل ما في هذه الدنيا شأناً هو خيرٌ عنده من ولاية الناس إن لم يُقم حقاً ويُزهقْ باطلاً؟!.

هل عرفتَ، في موطن العدالة، عظيماً ما كان إلاّ على حقّ ولو تألّب عليه الخلقُ في أقاليم الأرض جميعاً. وما كان عدوّه إلاّ على باطلٍ ولو ملأ السهلَ والجبل. لأن العدالة فيه ليست مذهباً مكتسباً وإنْ أصبحتْ في نهجه مذهباً فيما بعد؛ وليست خطةً أوضحتْها سياسة الدولة وإنْ كان هذا الجانبُ من مفاهيمها لديه؛ وليست طريقاً يسلكها عن عمْد فتوصله من أهل المجتمع إلى مكان الصدارة وإن هو سلَكها فأوصلتْه إلى قلوب الطيّبين؛ بل لأنها في بنيانه الأخلاقي والأدبي أصل يتّحد بأصول، وطبعٌ لا يمكنه أن يجوز ذاته فيخرج عليها، حتى لَكأنّ هذه العدالة مادةٌ رُكّب منها بُنيانه الجسماني نَفْسُه في جملة ما رُكّب منه، فإذا هي دمٌ في دمه وروحٌ في روحه!

هل عرفتَ، في موطن الخصومات، عظيماً حاربه ذوو المنافع وفيهم نَفرٌ من ذوي قُرباه، وقاتَلوه، فخذلتِ المفاهيمُ الإنسانيةُ المنتصرين عليه لأنه انتصارٌ للحيلة والمساومة والائتمار وكسْبِ الدنيا بسيفِ ظالمٍ غاشم. ورفعتِ المنكسرَ لأن انكساره، في ضوء العقل والقلب، يتضمن جوهر الشهادة في سبيل كرامة الإنسان وحقوقه وما يتوق إليه من بلوغه العدالة والمساواة. وهكذا كان نصرُهم هزيمةً وانكسارُه انتصاراً عظيماً لقيمة الإنسان!

هل سألت التاريخ عن محاربٍ شجاعٍ فائقِ الشجاعة، يبلغ به حبّه لصفة الإنسان في مقاتليه، ويبلغ عطفُه عليهم أن يوصي أصحابه، وهو المصلح الصالح الكريم المغدور به، فيقول: «لا تقاتلوهم حتى يَبدأوكم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوِراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى!» ثم تُجليه عن الماء عشراتُ الألوف المؤلفة من طالبي دمه على غير حقّ، ويُبلغونه أنهم سيمنعون عنه الماء الجاري حتى يموت عطشاً. فيزلزلهم عن الماء ويحتلّه. ثم يدعوهم إلى هذا الماء أُسوةً بنفسه وبصحبه وبالطير الشارب ولا زاجرَ له، ثم يقول: «ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممّن قدرَ فعفّ: لكاد العفيف أن يكون ملاكاً من الملائكة» حتى إذا هو طالته اليدُ الآثمة فقضتْ عليه، قال لصحبه بشأن قاتله: «لأن تَعفوا أقرب إلى التقوى!».

محارب شجاع تتصل في قلبه أسبابُ الشجاعة الغريبة والفروسية النادرة، بأسباب العطف والحنان العجيبين، فيعاتب المتآمرين به وله القدرة على أنْ يضربَ فيصرَع. وهو لا يعاتبهم إلا منفرداً، أعزل، حاسر الرأس، وهم مدججون بالسلاح لا يكاد يبدو لهم وجهٌ إلاّ من خلاله؛ ثم يذكّرهم بالإخاء الإنساني وبالمودّات؛ ثم يبكي لهم إذا هم حثّوا السير في هذه الطريق. حتى إذا أبوا إلاّ دمَه وهو سيف المستضعَف والمحروم، صبر لهم

حتى يبدأوه القتال، ثم راح يُزلزلهم زلزلةً ويقصفهم قصفاً ويعصف بمطامعهم كما تعصف الرياحُ السافيات برمال الصحراء فتذروها بَدَداً بدداً. وهو لا يصرع منهم إلا الطاغية الباغية الذي تَبيّن فيه العداء والقصد للشر! ثم إذا هو ظفرَ بكى قتلاهم وهم في الواقع قتلى الأنانية والأثرة تأتيهم من المطمع السقيم والهوى المنحرف!

هل عرفت من الخلق أميراً توافرت لديه أسباب السلطان والثروة كما لم تتوافر لسواه فإذا هو منها جميعاً في شقاءٍ وحسرةٍ دائمين. وتوافرت لديه محاسن الحسب الشريف فقال: «لا حسب كالتواضع». وأحبّه محبّوه فقال: «من أحبني فليستعدّ للفقر جلباباً». وغالوا في حبّه فقال: «هلك فيّ محبّ غالٍ» بعد أن خاطب نفسه يقول: «اللهمّ اغفر لنا ما لا يعلمون!» فألّهوه، فعاقبهم أشد عقاب! وكرهه آخرون فوقف منهم موقف الناصح لإخوانه في الخلق. وسبّوه فاستاء صحبُه وأجابوهم بالسباب فقال لهم: «أكره لكم أن تكونوا سبّابين». وخاصموه وأساؤوا إليه وما حفظوا له غيبةً ثم خرجوا عليه، فكان يقول: «عاتبْ أخاك بالإحسان إليه واردُدْه بالإنعام عليه». و «لا يكوننّ أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته، ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان». وأغروه بمسايرة بعض الآثمين، ولو إلى حين، حفاظاً على سلطانه، فقال: «صديقك من نهاك وعدوّك من أغراك» ثم أردف: آثِرِ الصدق حيث يضرّ بك على الكذب حيث ينفعك. وحاربَه مَنْ أسدى إليهم معروفه، فخاطب نفسه يقول: «لا يُزهّدنّك بالمعروف من لا يشكر لك». وتحدّثوا لديه عن نعيم الأرض فنظر إلى المتحدث يقول: «كفى بحسن الخلق نعيماً». ثم عادوا يُغرونه بالنصر يأتيه على أسلوب الحاكمين، فقال: «ما ظَفِرَ مَن ظفِر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب». وعلم من سيئات أخصامه ما لا يعرفه سواه، فغضّ عنها طرفه وسلا خاطره وهو يردد: «أشرَفُ أعمال الكريم غَفْلَتُه عمّا يعلم».

وأعان أعداؤه والجهَلةُ من أنصاره الدهرَ عليه بما يُدخل التشاؤم بالناس في كل قلب، فإذا به ما يزال يقول: « لا تظنَّنّ بكلمةٍ خرجتْ من أحدٍ سوءاً وأنتَ تجدُ لها في الخير مُحْتَمَلًا!».

هل عرفت إماماً لدينٍ يوصي وُلاته بمثل هذا القول في الناس: «فإنهم إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق. أعطِهم من عفوك وصفحك مثلَ الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه!» هل عرفت صاحب سلطان تمرّد على سلطانه لإقامة الحق في الشعب، وصاحب ثروة أنكر منها إلاّ القرصَ الذي يُمسك عليه الحياةَ وما الحياةُ لديه إلاّ نفع إخوانه في الخلق... أمّا الدنيا فلتغرّ سواه!

ثم، هل سألت تاريخ هذا الشرق عن نهجٍ للبلاغة آخذٍ من الفكر والخيال والعاطفة آياتٍ تتّصل بالذوق الفنّي الرفيع ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر؛ مترابطٍ بآياته متساوق؛ متفجّرٍ بالحس المشبوب والإدراك البعيد؛ متدفّق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع؛ متآلفٍ يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبيرُ بالمدلول، أو الشكل بالمعنى، اندماجَ الحرارة بالنار والضوءِ بالشمس والهواءِ بالهواءِ؛ فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالةَ السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموّج والريح إذ تطوف، أو قبالَةَ الحدثِ الطبيعي الذي لا بدّ له أن يكون بالضرورة على ما هو كائنٌ عليه من الوحدة التي لا تُفرّق بين عناصرها إلا لتمحو وجودَها وتجعلها إلى غير كَوْن!.

بيانٌ هو من مشاركة الحسّ السمعي للعقل بحيث يحوّل لك المعاني إلى أنغامٍ هي في حدّ ذاتها المعاني الكاملة كما تشاء الطبيعةُ الحيّة وتريد. وهو من مشاركة الحسّ النظري للعقل بحيث يحوّل لك المعاني إلى لوحاتٍ فنيّة لها خطوطُها وأشكالها وألوانها، فإذا بك من ذلك في عالمٍ زاخرٍ بروائعِ الفن تتمازج به صورٌ وموسيقى، وأنغامٌ وألوان!

بيانٌ لو نطقَ بالتقريع لانقضّ على لسان العاصفة انقضاضاً. ولو هدّد الفسادَ والمفسدين لتَفَجّر براكينَ لها أضواءٌ وأصوات. ولو انبسط في منطقٍ لَخاطَبَ العقولَ والمشاعر فأقفل كلّ باب على كلّ حجةٍ غير ما ينبسط فيه. ولو دعا إلى تأمّلٍ لَرافق فيك مَنْشأ الحسّ وأصْل التفكير فساقكَ إلى ما يريده سَوْقاً، وَوَصَلك بالكون وصْلاً، ووحّد فيك القوى للاكتشاف توحيداً. وهو لو راعاك لأدركتَ حنان الأب ومنطق الأبوة وصدْق الوفاء الإنساني وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي! أمّا إذا تحدّث إليك عن بهاء الوجود وجمالات الخلق وكمالات الكون، فإنما يكتب على قلبك بمدادٍ من نور النجوم! بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة، وتنزيلٌ من التنزيل بيان اتّصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون، حتى قال أحدهم في صاحبه: إن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق!.

هل عرفتَ عقلاً كهذا العقل، وعلماً كهذا العلم، وبلاغةً كهذه البلاغة، وشجاعةً كهذه الشجاعة، تكتمل من الحنان بما لا يعرف حدوداً حتى ليبهرك هذا القدر من الحنان كما يبهرك ذلك القدر من المزايا تلتقي جميعاً وتتّحد في رجلٍ من أبناء آدم وحواء. فإذا هو العالم المفكر الأديب الإداريّ الحاكم القائد الذي يترك الناس والحكام وذوي المطامع والجيوش يتآمرون به، ليُقبل عليك فيهزّ فيك مشاعرَ الإنسان الذي له عواطف وأفكار، فيهمس في قلبك هذه النجوى الرائعة بما فيها من حرارة العاطفة الكريمة قائلاً: «فَقْد الأحبّة غربة» أو «لا تشمت بالمصائب» أو «ليكن دنوّك من الناس ليناً ورحمة» أو «واعفُ عمن ظلمك وأعطِ مَن حرمك وصِلْ مَن قطعك ولا تبغض من أبغضك!».

هل عرفتَ من الخلق عظيماً يلتقي مع المفكرين بسموّ فكرهم، ومع الخيّرين بحبهم العميق للخير، ومع العلماء بعلمهم، ومع الباحثين بتنقيبهم، ومع ذوي المودّة بمودّاتهم، ومع الزهاد بزهدهم، ومع المصلحين

بإصلاحهم، ومع المتألمين بآلامهم، ومع المظلومين بمشاعرهم وتمرّدهم، ومع الأدباء بأدبهم، ومع الأبطال ببطولاتهم، ومح الشهداء بشهادتهم، ومع كل إنسانية بما يشرّفها ويرفع من شأنها، ثم إنّ له في كل ذلك فضل القول الناتج عن العمل، والتضحية المتصلة بالتضحية، والسابقة في الزمان!.

عظيماً يهون لديك أمر غالبيه ونصر المنتصرين عليه لأن أيامهم إنما هي من الأيام التي عجَّت بالمتناقضات واصطبغت بالغرائب حتى أصبح فيها شمال الحياة يمينَها وتحتُها فوقَها وأرضُها سماءها!.

وسواءٌ لدى الحقيقة والتاريخ أعرفتَ هذا العظيم أم لم تعرفه؛ فالتاريخ والحقيقة يشهدان أنه الضمير العملاق الشهيد أبو الشهداء عليّ بن أبي طالب صوت العدالة الإنسانية وشخصية الشرق الخالدة!.

وماذا عليكِ يا دنيا لو حشدتِ قواكِ فأعطيتِ في كل زمنٍ عليّاً بعقله وقلبه ولسانه وذي فقاره!!.

من الجذور العلويّة

- ويلبثانِ معاً يشهدانِ الشمسَ تسبحُ في صفاء السماء، حتى إذا استوتْ في مكانها من الفضاء اللانهائي العجيب، لبثتْ قليلاً ثمَّ راحت تهوي إلى جانبٍ من الكونِ مجهول!.
- كانت عبقريّة عليٍّ تتفتح فيه، وهو صبيّ، شعوراً عميقاً طاغياً بنصرة الخير، وتضحيات أشبه بصُنع المعجزات!.

النَّبيّ وأبُو طَالِب

وكأنَّ قوَّة الكون أرادت لهما أَنْ يستيقظا معاً في
وحدة الطبيعةِ وامتثال النجوم، على روعة
الخَلق وفتنة الوجود. وعلى جمال الأزل والأبد
يجتمعان في كواكب السماء، وشفوف الأثير،
وحركة الأرض، وصَخَب الحياة!

إذا نظرنا من الأمور إلى بواطنها دون ظواهرها، وإلى معانيها دون أشكالها، وإلى استمرار حقيقتها بالإجمال لا إلى تأريخ جزئياتها بالتفصيل، تبيّنَ لنا أن قضية عليّ بن أبي طالب هي قضية محمد بن عبد الله. وأن موقف علي وأنصاره من معاوية وجماعته هو موقف الرسول والمسلمين الأوَل من أبي سفيان وأبي جهل ومَن وراءهما من العصابة القرشية، مع فارقٍ واحد هو أن الرسول استطاع أن يقهر عصابة التجار والمستبدين والمستغلين وبائعي الدنيا برتبةٍ وبدولةٍ من قريش، فيما اختلف الظرفُ وحساب الأقدار بالنسبة لعليّ بن أبي طالب فلم يقهر عصابة التجار والمستبدين والمستغلين وبائعي الدنيا برتبةٍ وبدولةٍ من الأسرة الأموية.

ولكن، إذا فات عليّاً أن يحكم في رقاب الناس كبني أميّة، وما كانت رسالته في مثل هذا الحكم، فما فاته أن يحكم في قلوب الطيّبين من الناس. وله من صفات الإنسان الأمثل ما يجعله جديراً بالسلطان على القلوب.

وقبل أن أبدأ الكلام على عليّ بن أبي طالب، لا بدّ من أن ألقي نظرةً عجلى إلى الوراء، لاستجلاء الرابطة العميقة التي تشدّ عليّاً وذويه إلى محمد بن عبد الله، سواء في الحوادث الجزئية التي تحمل تاريخاً وأرقاماً، أو في الأجواء الروحية والأدبية التي تهيأتْ في بيت واحد، واجتمعت في هذا وذاك من أهل البيت، وكان الرسول التعبير الأمثل والأكمل عن هذه الأجواء، وكذلك كان ابن أبي طالب.



حين حُرم الرسول من حذب الأب وحنان الأم، كفِله جدّه ـ وجدّ علي ـ عبد المطلب الهاشمي. وكان جده يحبه ويفديه بنفسه. وكثيراً ما حدّث جلساءه وهو ينظر إلى حفيده، بأنه سيكون لهذا الطفل شأنٌ عظيم. وقد رفعه جده، مع صغر سنه، وأقعده في مجلسه العام، دون أعمامه، في ظلال الكعبة.

ولما توفي جدّه، كفله عمه أبو طالب ـ والد عليّ ـ فاستمر الغلام يحيا في جوّ الحنان والدعة وحسن التربية الذي خلّفه الأب الراحل للابن المقيم.

أمّا كيف كفِله أبو طالب بعد أبيه وهو أشدّ إخوته عَوزاً وأكثرهم بنين، فلأنّ أباه عبد المطّلب حين احتضر للموت دعا أبا طالب وخصّه دون سائر أبنائه بشرف هذه الكفالة وهذه الرعاية. وقصّة هذا الاختيار مقبولةٌ معقولة. فعبد المطّلب يعرف أبناءه واحداً واحداً ويُدرك من حقيقتهم ما بدا وما خفي. وهو ما اختار أبا طالب إلاّ استئناساً بما يعرف من أمره وما يُدرك. فإنّ الحنان والعطف وإنْ كان لأكثر وُلْد عبد المطّلب منهما نصيب، لم يبلغا في قلوبهم من القوة والبعد ما بَلَغا في قلب أبي طالب. وأثر الحنان والعطف في حُسن الكفالة والرعاية أظهرُ من أثر المال. لذلك

كله اختار أبا طالب أبوه لرعاية محمد. أضِفْ إلى هذا أن أبا طالب كان يضمر من العطف على ابن أخيه ما يدفعه دفعاً إلى رعايته وإن لم يكلّفه ذلك أبوه. فكيف إذا اجتمع هذا العطف وهذا التكليف.

وممّا لا مراء فيه أن أبا طالب صاحب شخصية جميلة ومحبّبة. شخصية جميلة تطالعنا بحكمة الشيخ الطيّب الأمين المجرّب الذي يضع كل ما أُوتي من طيبةٍ وأمانة وتجربة موضعَ العمل والتنفيذ في كل حال.

وهذه الصفات التي يستجليها شيئاً فشيئاً كلّ من اطّلع على سيرة هذا الشيخ الجليل، هي التي أدركها القرشيون من أهل الجاهلية ساعة قالوا فيه: «قَلّ أن يسود فقيرٌ وساد أبو طالب».

وفي هذا القول إشارة صريحة إلى نظر أهل مكة قبل الإسلام إلى شؤون السيادة وكيف أنها لا تُصرّف إلاّ على أيدي الأغنياء. وفيه كذلك إشارة صريحة إلى عظمة خُلق أبي طالب التي هيّأته بالرغم من فقره إلى أن يسود ويعلو رأيُه آراءَ الأثرياء.

واستمرّت الأخلاق الخيّرة التي يتميّز بها بيت عبد المطلب تتركز في نفسية محمد وتبدو في تصرّفاته. حتى لكأنّ الله لمّا اختار رسوله من بني عبد المطلب اختار لتنشئته هذا العمّ الكريم. وكأنّ قوة الوجود الشاملة هيّأت لأبي طالب أن يعلم من أمر ابن أخيه ما لا يعلمه سواه. فإذا هو يخرج بالصبيّ في يوم قحط وجدب، ويطلب إليه برفق ولينٍ أن يلصق ظهره بالكعبة. فإذا الصبيّ يفعل ما طلب إليه عمّه، ويلوذ بإصبعه نحو السماء وما في السماء آنذاك غيمةٌ أو قَزَعَةٌ من غيم. فإذا بالسحاب يُقبل من هنا ومن هنا، فيهطل المطر، فيخصب الوادي وتحيا الأرض. فلمّا سئل أبو طالب عن هذا الصبيّ قال: هو محمد ابن أخي وفيه أقول:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى، عصمةٌ للأرامل

ومهما يكن من شأن هذه الرواية، فهي رمزٌ إلى مقدارٍ عظيم من التحابّ وتعاطي الخير بين الصبي وعمّه.

ويستمرّ أبو طالب في شرف خدمة هذا الصبي. ويبادله الحنان والمودّة والعطف. ويرافقه دائماً فلا ينام إلاّ إلى جنبه ويخرج فيخرج معه. وكثيراً ما تهطل عيناه بالدمع ساعة ينظر إليه مشفقاً قائلاً: إذا رأيتُه ذكرتُ أخي أباه.

ويتهيّأ أبو طالب للرحيل إلى الشام في ركْبٍ للتجارة. فحين يعزم على المسير ينظر إليه محمد ويقول: «يا عمّ، إلى مَن تكلُني لا أب لي ولا أمّ!» فيرقّ له أبو طالب ويردفه خلفه ويقول: «والله لأخرجنّ به معي لا يفارقني ولا أُفارقه أبداً».

وهكذا يأبى أبو طالب إلاّ أن يكون محمدٌ رفيقَ سفرٍ له إلى الشام وهو ما يزال في حدود الرابعة عشرة أو ما يقلّ. فيمرّان بمَدْين ووادي القرى وديار ثمود. ويقفان من بلاد الشام عند جنائن الأرض. ويلبثان معاً يشهدان الطبيعة الحيّة والصامتة. يشهدان الشمس تسبحُ في صفاء السماء ويُشرق وجهها فوق ما ترامى من الأرض وأطرافِها، حتى إذا استوتْ في مكانها من الفضاء اللانهائي العجيب، لبثتْ قليلاً ثم راحت تهوي إلى جانبٍ من الكون مجهول! وهي إذا لملمتْ آخر شعاعاتها وغاصت وراء تُخوم الأرض، أقبل الليل يمتدّ ويسودّ ويُلبس كل شيء من نفسه ظلاماً لا يُزهّيه إلاّ وميضٌ لَيّنٌ من نجوم السماء!.

فإذا ما بنفس أبي طالب من معاني الطبيعة يشفّ في نفس محمد، فإذا هي جزء من ذاته يتكوّن وينمو تحت نظرة العمّ المحب. وإذا كلّ ما في الطبيعة من مُوحيات الكآبة والحزن، والفرحة والغبطة، والبساطة والعمق، يتجاوب في كيان محمد ويمثلُ فيه روحاً إنسانيًا ومعانيَ كونيّة.

أجل، كأنّ قوة الوجود الشاملة أرادت لهما أن يستيقظا معاً في وحدة الطبيعة وامتثال النجوم، على روعة الخلق وفتنة الوجود. وعلى جمال الأزل والأبد يجتمعان في كواكب السماء، وشفوفِ الأثير، وحركة الأرض، وَصَخب الحياة!.

وهذا هو الراهب بَحيرا، أو جرجس على الأصل، يُضيف ركْباً من قريش فيهم أبو طالب وابن أخيه، في صومعةٍ يسكنها على طريق الشام ولا يسكنها إلاّ من تناهى إليه علمُ النصرانية، فيُغذّي ما في نفس أبي طالب من ابن أخيه وهو يلحظُه لحظاً شديداً ويهشّ له ويبشّ، إذ يُنبئُه بأنّ هذا الصبيّ سيكون له في العالم شأنٌ عظيم. فينظر أبو طالب إلى الصغير نظرة الحب والإعجاب، ويعطف الأب على أعزّ بنيه. ويتحرّك في نفسه الشعورُ بموجبات الاستمرار على الخير الذي يربط محمداً بعمّه ويجعله سرّ بيته.

وراح أبو طالب يسمع أهل مكة ينعتون محمداً بالأمين، وهو دامع العين خافق القلب، إعجاباً وغبطة!.

ولما طلبتْ خديجة من محمد أن يتزوج بها ـ بعد أن ردّت طلب أشراف قريش من ذوي الجاه والمال ـ لم يجد أمامه غير عمه أبي طالب، نجيّه في المكرمات، ليعقد في روحه وعلى لسانه، رباطه المقدس مع هذه السيدة الفاضلة. ولمّا كان أبو طالب أولَ مَن لمَسَ السموّ في أخلاق محمد، فقد لبّى نداءه للحال وأدرك أنّ محمداً لم ينطق في هذا المقام إلاّ بما يريده هو في أعماق نفسه وما يرتئيه.

وبعد أن هبط الوحي على محمد في غار حراء، كان أول من صلّى معه زوجته خديجة وعلي بن أبي طالب. وكانا أول الناس إيماناً بالنبي. فلما بلغ ذلك أبا طالب قال لولده عليّ: أي بنيّ، ما هذا الذي أنت عليه؟ فقال عليّ: يا أبتِ، آمنتُ برسول الله وصدقتُ ما جاء به وصلّيت معه واتّبعته! فقال أبو طالب: يا بنيّ، إنه لم يدْعُك إلاّ إلى خير، فالزمْه!.

ولما أمر النبي المسلمين الأوّل أن يهاجروا إلى الحبشة تخلّصاً من قريش، كان جعفر بن أبي طالب على رأس المهاجرين، وكان أشدّهم حباً لابن عمه الذي ربي وإياه في كنف أبيه.

وكان أبو طالب أول من قال شعراً في الإسلام يفيض بالحب لمحمد ويدعو إلى نصرته. وكان يكثرُ عليه كلّ عملٍ أو قولٍ فيه بعض الأذى لابن أخيه.

ودمعتْ عينا أبي طالب، يوم أبلغه القرشيّون التجّار أنهم عازمون على قتله وقتل محمد إلّمْ يُخلِّ محمدٌ الطريقَ التي يسلك. دمعتْ عينا أبي طالب لا خوفاً على حياته وحياة بنيه وابن أخيه، بل إعجاباً بموقف محمد ساعةَ بلغه النبأ. وخلاصة الخبر أن قريشاً لما ائتمروا بمحمد وأرادوا قتله مشوا إلى عمه أبي طالب وطلبوا إليه أن يسلمهم محمداً فأبى. ومضى في دعوته ومضت قريش في ائتمارها. ثم ذهبوا إلى أبي طالب ثانيةً وثالثةً وقالوا له: يا أبا طالب، إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا. وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا. وإنا والله لا نصبر على هذا من شتْم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنّا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحدُ الفريقين!.

وبلغ محمداً ما كان من أمر هؤلاء، فأطرق إطراقةً وقف إزاءها تاريخُ الوجودِ كلّه مبهوتاً لا يدري بعدها ما اتّجاهه! أيسير التاريخ في طريقه هذه أم يتغيّر وجهه؟ ففي الكلمة الواحدة التي تنطق بها شفتا هذا الرجل حُكمٌ على سير التاريخ! والتفتَ الرجلُ العظيمُ إلى عمّه وهو ممتلىءٌ بقوة إرادته ومضاء عزيمته وصدق دعوته وإخلاصه لِما وَقَف له نفسَه وحياتَه، لينطق بهذه الكلمات الخالدات التي تُجسّم نفسية أصحاب الرسالات: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره اللّهُ أو أهلك فيه، ما تركتُه!» وبكى أبو طالب إعجاباً

وحبّاً عظيماً، وكان وحده آنذاك الشاهد على اتجاهٍ جديد سوف يتّجه التاريخ على يد ابن أخيه!.

ولم يكن هذا الحب العميق الذي يلفّ محمداً في بيت عمّه أبي طالب ليأتيه من جانبٍ واحد وحسْب، بل كان كل من في البيت يضمر لمحمد العطف والحنان والبرّ، ولاسيّما فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب ووالدة عليّ. فقد كانت هذه المرأة الفاضلة تحدب على محمد حدْب الأمّ على ابنها بشهادة النبيّ نفسه الذي كان يكرمها ويعظمها ويدعوها: أُمّي! وكان يردّد أبداً هذا القول: «لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرّ بي منها!».

ولعلّ هذا الاحترام الذي كان محمد يضمره ويبديه لزوجة عمّه أبي طالب، وإنزاله إياها منزلة الأمّ، ثم شعوره بالفرق العظيم بينها وبين معظم النساء القرشيات يومذاك، أمثال حمّالة الحطب، أمورٌ تجمعتْ في نفسه ودفعتْه إلى أن يسمّي أحبّ بناته إلى نفسه باسمها، وأعني بها السيدة فاطمة زوجة عليّ وأمّ الحسن والحسين.

وقال أبو طالب مرةً لوفد قريش الذي جاء يطلب إليه تسليم محمد للعصابة القرشية: «فوالله لا نُسْلمنّه ولا نترك نصرته حتى نفنى عن آخرنا».

ولم ينسَ أبو طالب دقيقةً واحدة في حياته أن محمداً إنما هو استمرار عبقرية الخُلق التي يتميز بها بصورة عفوية هو وأخوه عبد الله وأبوهما عبد المطلب. فلما حضرته الوفاة جمع إليه قوماً كثيراً وقال لهم: «إني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصدّيق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به. وكأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبَر والأطراف والمستضعفين بين الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظّموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش أذناباً وضعفاؤهم أرباباً. وإذا أعظمُهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم عنه أحظاهم عنده! يا معشر قريش، كونوا له وُلاةً ولحزبه حُماة. واللّهِ لا يسلك أحدٌ

سبيله إلاّ رشدَ ولا يأخذ برأيه أحد إلاّ سعد. ولو كان لنفسي مدةٌ ولأجَلي تأخيرٌ لدفعتُ عنه الدواهي. إن محمداً هو الصادق الأمين فأجيبوا دعوته واجتمعوا على نصرته وراموا عدوّه من وراء حوزته فإنه الشرف الباقي لكم على الدهر!».

توفي أبو طالب بعد أن كفل النبيّ وصانه وقاوم قريشاً في سبيله ووقف في وجهها مدافعاً عن دعوته، زهاء اثنين وأربعين عاماً بليلها ونهارها.

ولما توفي أبو طالب شعر النبيّ بأنه فقد أعظم ركن يستند إليه ويدفع عنه أذى قريش. وما كان هذا الشعور إلاّ تدليلاً على تجاذُب أسباب الخير بين محمد وعمه: رب البيت الذي نشأ فيه وسما خلقه! وإذا كان من أسباب هذا الشعور بخسارة أبي طالب أن محمداً فقد به نصيراً يفديه بدمه ويدفع عنه الأذى، وملجأ حصيناً ضد قريش والمستبدين الغُلاة من بينها حتى أنه قال: «ما نالني من قومي سوء حتى مات عمي أبو طالب»، فما تعليل هذا الحزن العميق الذي غزا قلب محمد بموت عمه؟ وما علّة هذه الكآبة وما كان محمد إلاّ صبوراً حازماً واثقاً بنصر رسالته مهما كثر العدوّ وقلّ الصديق، ومهما كان من شأن الأخيار والأشرار! أجل ما علّة هذه الكآبة إن لم تكن الكارثة التي حلّت بمحمد هي كارثة الإنسان بأعزّ من يعطف عليه ويحميه؟ وما تكون هذه الدموع الغزار إن لم تكن شاهداً على أن النبي ـ كرجل ـ أحس بأنه فقد شيئاً من ذاته، من حاضره وماضيه؟.

النّبيّ وعَليّ بن أبي طالب

كنا ننظر إلى عليّ في أيام النبي كما ننظر إلى النجم.

عمر بن الخطاب

وفي البيت الطالبيّ الواحد تنمو الروح الواحدة بالصدق والصفاء ووحدة النظر إلى الكون والحياة. وتستمرّ على أصولٍ أعمق وفروع أكثر في علاقة النبي مع ربيبه الطفل، ثم الصبي، ثم الشاب، ابن عمّه العظيم عليّ بن أبي طالب!.

وإذا نحن نظرنا إلى ميلاد المعاني الإنسانية في قلبٍ وروح، رأينا أن عليّ بن أبي طالب إنما وُلِدَ مؤمناً بالرسالة الخيّرة ونصيراً لها. فإن خصائص البيت الطالبي الذي ربي فيه محمد، انتقلت بصورة طبيعية إلى ابن عمه ساعة ميلاده.

ونما خلق عليّ على شمائل بيت أبيه أبي طالب، ذاك الذي أصغتْ جدرانه لأول عبارة من محمد، وخرجت منه الدعوة الإسلامية إلى الوجود. فإن علياً ما كاد يبلغ الرابعة من عمره، حتى ضمّه محمد إليه وآخاه. وقد أشار عليّ إلى تعهّد محمد إياه، بخطبته التي تسمّى بالقاصعة وفيها يقول:

«وقد تعلمون موضعي من رسول الله، بالقرابة القريبة والمنزلة

الخصيصة. وضعني في حجره وأنا وليدٌ يضمّني إلى صدره ويكنفني فراشه ويُمسّني جسدَه ويُشمني عرفَه. وما وجد لي كذبةً في قول ولا خطلةً في فعل. وكنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يومٍ من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به».

وهذا هو أول الزمن الذي يتأهل الغلام فيه لتلقي بذور الأخلاق الفاضلة. ولطالما جاور عليّ محمداً في خلواته، وسار على نهجه في الانقطاع عن القرشيين المتردين في ليلٍ من جهالتهم وجمودهم على ما هم عليه من عاداتٍ وأخلاق. ولطالما عاش في ذلك الجوّ الزكيّ إلى جوار ابن عمه وهو أثيرٌ لديه حبيب على قلبه. وإن مثل هذا الجوار وهذا الإخاء لم يظفر به واحد ـ غير علي ـ من أصحاب الرسول وتلاميذه!.

لقد فتح علي بن أبي طالب عينيه على الطريق التي رسمها ابن عمه. وعرف العبادة أول ما عرفها من صلاته. ونعمَ بعطفه وحنانه وإخائه. فإذا هو من محمد ما كان محمدٌ من أبي طالب!.

وخفق قلب عليّ أول ما خفق بحبّ ابن عمه. ونطق لسانه أول ما نطق بما لقّنه إياه من رائع القول. واكتملت رجولته أوّل ما اكتملت لمؤازرة النبي المضطهَد! وإذا كان النبي يحبه أنصاره، ويحترمه أعداؤه، فهل يكون ربيبه وتلميذه وأخوه عليّ إلاّ شيئاً من كيانه! شيئاً عظيماً من كيان عظيم!.

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أول الدعوة احتكاماً للعقل وتخلّصاً من الوثنية؛ وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقّاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفق بها رسالة محمد واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطه؛ وإذا أسلم قومٌ، بعد انتصار النبي، امتثالاً للواقع وتزلّفاً للمنتصر كما هي الحال بالنسبة لأكثر الأمويين؛ إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف تتفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية، وتتّحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن، فإنّ عليّ بن أبي طالب قد ولد مسلماً لأنه من معدن

الرسول مولداً ونشأةً، ومن ذاته خلقاً وفطرة. ثم إن الظرف الذي أعلن فيه عمّا يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته، لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين. ولم يرتبط بموجبات العمر. لأن إسلام عليّ كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف إذ كان جارياً من روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها.

لقد كان أول سجود المسلمين الأول، لآلهة قريش!.

وكان أول سجود عليّ لإله محمد!.

ألاَ إنه إسلام الرجل الذي أُتيح له أن ينشأ على حب الخير وينمو في رعاية النبي ويصبح إمام العادلين من بعده، وربّان السفينة في غمرة العواصف والأمواج!.

هذا أخي

قال النبي لعليّ:
إن فيكَ لَشبَهاً من عيسى ابن مريم!

ولاستجلاء هذه الوقائع بأرقامها لا بدّ من ذكر بعض الأحاديث التي تؤيدها وتضمن وجودها، وتخبرنا إلى أيّ مدى كان التآخي الروحي بين النبي وابن عمه العظيم. كما تخبرنا إلى أي مدّى كان عليّ وارثاً لمزايا الرسول، مصطبغاً بصبغته، أثيراً لديه، حبيباً إليه، عظيماً في جنانه وعلى لسانه. ويمكننا بعد ذلك أن نستنتج أن الرسول إنما كان يمهّد لعليّ سبيل الخلافة ضمن الحدود التي تشترطها ثورة الإسلام والتي يتمّ بها سلطانه وانتشاره. يمهّد لعليّ سبيل الخلافة لأنه رأى فيه صورةً عنه من حيث سموّ الخلق ونبل المقصد وسائر المكارم التي سيجري عليها القول بالتفصيل.

حدّث الطبراني عن ابن مسعود أن النبي قال: النظر إلى وجه عليّ عبادة.

وحدّث بعضهم عن سعد بن أبي وقاص قال، قال النبي: من آذى علياً فقد آذاني.

وذكر اليعقوبي في الجزء الثاني من تاريخه أن النبي خرج ليلاً بعد رجوعه من حجة الوداع منصرفاً إلى المدينة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له «غدير خم» لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة. وقام

خطيباً وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه. اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه». وجاء في التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي أن عمر بن الخطاب لقي علياً بعد ذلك فقال له: «هنيئاً لك يابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

وهذا الحديث أخرجه كثير من المؤرخين ومن العلماء أمثال الترمذي والنسائي والإمام أحمد بن حنبل، كما رواه ستة عشر صحابياً. **وقد ذكره عددٌ من الشعراء أولهم حسّان بن ثابت الأنصاري، قال:**

يناديهُم، يومَ الغديرِ، نَبيّهم	بخمٍّ، وأسمعْ بالنبيّ مناديا
وقال: فمن مولاكُم ووليّكمْ؟	فقالوا، ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا، وأنت نبيّنا؛	وما لك منّا بالوصاية عاصيا
فقال له: قمْ يا عليّ، فإنني	رضيتُك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنتُ مولاه، فهذا وليّهُ،	فكونوا له أنصارَ صدقٍ، مواليا

ومن الشعراء الذين ذكروا ذلك اليوم أبو تمام الطائي. ومن الذين أسهبوا في وصفه الكميت الأسدي في قصيدة عينية يقول فيها:

ويوم الدّوح، دوحِ غديرِ خمٍّ	أبانَ له الولايةَ لو أُطيعا
ولم أرَ مثل ذاك اليومِ يوماً،	ولم أرَ مثله حقاً أُضيعا

ومن كتاب الآل لابن خالويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله لعلي بن أبي طالب: حبك إيمان، وبغضك نفاق. وأول من يدخل الجنة محبك، وأول من يدخل النار مبغضك.

ولا يختلف الرواة والمحدثون في أن النبي طالما ردّد هذه العبارة وهو ينظر إلى علي: «هذا أخي!».

وقال النبيّ مرة لعليّ: «إن فيك لَشَبهاً من عيسى ابن مريم!» و «لا يُبغضك إلا منافقٌ!».

وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال: «قال رسول الله وهو في محفل من أصحابه: إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همّه وإبراهيم في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سنّه ومحمد في هديه وعلمه، فانظروا إلى هذا المقبل! فتطاول الناس بأعناقهم فإذا هو عليّ بن أبي طالب».

وبالإسناد عن زيد بن أرقم: «قال رسول الله ألا أدلّكم على ما أن تساءلتم عليه لم تهلكوا، إن وليّكم الله وإن إمامكم عليّ بن أبي طالب فناصحوه وصدّقوه».

وقال الرسول، وقد شكا إليهِ بعض أصحابه شأناً من شؤون علي: ما تريدون من عليّ؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ عليّ مني وأنا منه وهو وليّ كل مؤمن بعدي.

وبعث الرسول علياً إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يُركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم. فأبى عليّ فشكوه إلى الرسول بعد رجعتهم. وتولّى شكايته سعد بن مالك الشهيد، فقال: يا رسول الله، لقينا من عليّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق... ومضى يعدد ما لقيه. حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب النبي على فخذه وهتف به: «يا سعد بن مالك الشهيد، بعض قولك لأخيك عليّ؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله».

ويروى أن قريشاً أصابتها أزمة وقحط فقال محمدٌ لعمّيه حمزة والعبّاس: ألاَ نحمل ثقلَ أبي طالب في هذا المحل؟ فجاؤوا إليه فسألوه أن يدفع إليهم وُلْدَه ليكفوه أمرهم فقال: دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم. فأخذ العبّاسُ طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ محمدٌ علياً وقال لهم: قد اخترتُ ما اختاره الله لي عليكم! قالوا: فكان عليّ في حجر الرسول منذ كان عمره ست سنين، وكان ما يُسدي إليه من إحسانه وشفقته وبرّه وحُسن تربيته كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبي طالب به حيث مات عبد المطلب وجعله في حجره.

من هذه الأحاديث، ومن غيرها، يثبت أمر واحدٌ لا يقوم حوله جدل وهو: أن النبي كان يشعر بنوع من الإخاء لعلي بن أبي طالب، وأن علياً كان ممتلئاً بهذا الإخاء. ثم إن النبي كان يوجّه الأنظار إلى العظمة الإنسانية التي تتمثل في شخصية عليّ، وإلى أنه خير من يستطيع أن يتمم شروط الرسالة من بعده.

ومن الروايات الثابتة، ما يلقي نوراً ساطعاً على هذه الإرادة الكونية التي شاءت أن يكون عليّ شيئاً من ذات الرسول. وقد هيأت هذه الإرادة ظروفاً ومناسباتٍ برزت فيها خصائصُ ما كان لأحد أن يشارك بها عليّاً:

فها إن علياً ولد في الكعبة التي أصبحت قبلة أشواق المسلمين وكان مولده فيها بعد أن أصبحت الدعوة الإسلامية شيئاً موجوداً بذات محمد وإن لم يكن قد أفصح عنها بعد. وكان موئله بيت أبي طالبٍ أبيه، بيت محمد.

وكان علي أول من رأت عيناه إلى النبي وزوجته خديجة وهما يصلّيان! ثم إنه كان أول المسلمين وهو لم يبلغ مبلغ الشباب. ولما عوتب على إسلامه دون مشورة أبيه أبي طالب، أجاب على الفور: «لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب. فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله!».

وظلّ الإسلام زمناً وهو محصورٌ في بيت محمد: فيه وفي زوجته وابن عمّه ومولاه زيد بن حارثة.

ويوم دعا النبي عشيرته الأقربين إلى طعام في بيته وشاء أن يحدثهم داعياً إياهم إلى الإسلام، قطع عمّه أبو لهب حديثه واستنفر الآخرين لينهضوا ويغادروه. ثم دعاهم محمد في الغداة كرّة أخرى، فلما طعموا قال لهم: «ما أعلمُ إنساناً في العرب جاءَ قومه بأفضل مما جئتكم به، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟» فأعرضوا عنه وهمّوا بمغادرة بيته كما فعلوا في المرة الأولى. فما كان من عليّ إلاّ أن نهض، وهو ما يزال صبياً دون

الحلم، وقال: «أنا يا رسول الله عَونُك، أنا حربٌ على من حاربتَ!» فضحك بنو هاشم وقهقه بعضهم، وجعلوا يتنقلون بأنظارهم من أبي طالب إلى ابنه الغلام، ثم انصرفوا مستهزئين.

وكان لواء عليّ مع النبيّ في كل قتال وكل زحف. وما كانت فروسيته التي توجز معاني الشهامة فيه، وما كان دمه وقلبه ولسانه إلاّ وقفاً على ابن عمه النبي وعلى إنجاح الرسالة النبوية. فقد فعل في أعداء محمد الأفاعيل ضمن شروط الفروسية الشريفة. وثبت كالجبل الراسخ أمام صناديد قريش يوم بلغ الفزع من أنصار النبي وزلزلت قلوبهم وقعة الخندق، فانكشفت عنه خيرة صحبه. فكانت من عليّ البادرة التي أعادت إلى المسلمين الثقة بالنصر وآذنت بهزيمة قريش وأبطالها.

وأكبِرْ بجهاد عليّ يوم فُتحت على يده حصون خيبر القوية وفيها من المقاتلين الأشداء كل من يُرعب ويخيف لطول ممارستهم للحرب والقتال. وخلاصة ذلك أن حصار المسلمين لحصون خيبر كان قد طال. وأهل هذه الحصون يستميتون في الدفاع عنها إيماناً منهم بأن هزيمتهم أمام محمد هي القضاء العاجل على مؤامرات بني إسرائيل في جزيرة العرب، وعلى تجاراتهم وزعاماتهم. فبعث الرسول أبا بكر الصدّيق إلى الحصن كيف يفتحه. فقاتل قتال البطل المؤمن بصالح القتال. ولكنه رجع دون أن يفتح الحصن. فبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة. فكان حظه كحظ أبي بكر أمام الحصن المنيع والمقاتلين الأشداء. فدعا الرسول إليه عليّ بن طالب وأمره بأن يمضي ويفتح الحصن. فمضى عليّ إليه وهو ممتلىء غبطة بهذه الخدمة الجديدة للعقيدة التي تحيا في دمه. فلمّا دنا من الحصن وأدرك أهله أن خصمهم إنما هو علي بن أبي طالب الذي لم ينهزم في قتال ولم يثبت له مقاتلون، خرجوا إليه جماعات فضربه رجلٌ منهم فطرح تُرْسه من يده فتناول عليّ باباً ضخماً وجعله في يده كالترس. فلم يزل في يده

وهو يقاتل حتى فتح الحصن المنيع. ولم يسقط هذا الحصن إلا بعد أن قتل أكثر فرسانه وفي طليعتهم قائدهم الحارث بن أبي زينب.

ثم إن هنالك أمراً عجباً!.

لقد عرف التاريخ أبطالاً يحاربون في سبيل عقيدةٍ وإن كانوا يؤثرون السلم على الحرب ويفضلون أن تجري الأمور في مجاريها الطبيعية دون ما يضطرّهم مكرَهين إلى القتال.

وعرف التاريخ أبطالاً استشهدوا في سبيل غاية شريفة وهدف نبيل!.

ولكنّ مثل هذه البطولة وهذا الاستشهاد، لا يكونان في ساعتهما عملاً بطيئاً من شأنه أن يثير في الخيال صور الموت ومأساة انتظاره! بل يجريان في غمرة من الحماسة الطاغية. وقد يكونان في رعاية الجماعات وتحت الأنظار والقلوب!

أمّا علي بن أبي طالب، فما كان أعجب أمره يوم غامر في سبيل عقيدته التي هي عقيدة محمد بن عبد الله، وفي سبيل الحق ورعاية الشرف والإخاء، هذه المغامرة التي لم يعرف التاريخ أجلّ منها، وأقوى وأروع، وأدلّ على وحدة الذات بين عظيمٍ وعظيم.

فعندما اشتدت مساءات قريش وسعى القوم جادّين إلى الإجهاز على الإسلام بقتل الرسول، ذهب محمد إلى بيت أبي بكر الصدّيق وأخبره بأنه عازم على الهجرة لأنّ قريشاً قد ائتمرت به وتنوي قتله. فطلب الصدّيق أن يصحبه في هجرته فأجابه إلى ما طلب.

ولمّا اعتزم الرجلان مغادرة مكة، كانا على يقين لا يطاله أدنى شكّ في أن قريشاً ستتبعهما. لذلك رأى محمد، بما أوتي من عبقرية في إدراك الأمور، أن يسلك في هجرته طرقاً غير مألوفة لدى القرشيين، وفي موعدٍ كذلك غير مألوف.

وفي الليلة ذاتها التي اعتزم محمد أن يهجر مكة فيها، أعدّت قريش عصابةً كبيرة من الرجال الأشدّاء لقتله، وأوفدتْهم لكي يحاصروا داره مخافةَ أن يستتر بالظلام ويفرّ من أيديهم.

غير أن محمداً كان في ليلة الهجرة هذه، قد أسرّ إلى ابن عمه علي ابن أبي طالب أن يتسجّى بُردَه الأخضر وأن ينام في فراشه. وأمره أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدّي الودائع التي كانت عنده للناس!

وامتثل عليّ لأمر محمد والغبطة تملأ نفسه كما هي حاله أبداً أمام كل تضحية يقوم بها في سبيل الرسول.

وأحاط هؤلاء الرجال من قريش بدار محمّد. وأوثقوا حولها الحصار حتى ليستحيل على الهواء أن يخرج منها دون أن يمرّ بسيوفهم المُشرَعة. ثم جعلوا يوصوصون من فرجةٍ إلى فراش النبي فيرون في الفراش رجلاً فتطمئنّ خواطرهم إلى أن محمداً لم يفرّ.

ولمّا كان الثلث الأخير من الليل، وكانت عيون هؤلاء ما تزال ترى رجلاً راقداً في فراشه، كان النبي في دار أبي بكر ليخرج وإياه من خَوخة في ظهرها وينطلقا إلى غار ثَوْر حيث لحق بهما رجالٌ من قريش منع الله عنهم إدراك الرجلين الكبيرين.

لقد كان عليّ بمغامرته هذه استمراراً لمحمد. وكانت تضحيته من روح المقاومة التي عُرف بها ابن عمه العظيم. وكان مبيته في فراش النبي تزكية للدعوة وحافزاً على الجهاد الطويل! ثم إن في هذه المغامرة ما يوجز الحقيقة عن الإمام وطباعه ومزاجه، فإذا هي صادرة عنه كما تصدر الأشياء عن معادنها دون تكلّفٍ ودون إجهاد. ففيها نموّه الذهني المبكر الذي جعله يدرك حقيقة الدعوة التي يدق فهمها فهماً صحيحاً على من كان في مثل سنّه. وفيها زهده بالحياة إذا لم تكن عُمراً لمكارم الأخلاق. وفيها صدقه

المرّ وإخلاصه العجيب. وفيها عدله بين نفسه وبين سواه من أهل الجهاد، وما يتوخاه بذلك من نصرة للمظلومين والمستضعفين إذا قُتل هو ونجحت الرسالة على يدي صاحب الهجرة. وفيها مواجهته للأمور بسماحة وبساطة لا يعرف معهما إلى الكلفة سبيلاً. وفيها المروءة والوفاء والطيبة والشجاعة وسائر صفات الفروسية التي يمثّلها عليّ بن أبي طالب. بل هي شيء من استشهاده المقبل!.

وتستمر صلات المودة والإخاء بين محمد وعلي. ويستمر بينهما تعاطي الخير على إنجاح الرسالة؛ هذا التعاطي الذي يتماسك في أعماقه ويتحد منذ أن عرف محمدٌ أبا طالب، ومنذ أن عرف عليٌّ محمداً، ومنذ أن اجتمع الثلاثة في بيت واحد قام على مزايا الشهامة. وما كانت خصائص البيت الطالبي إلا حافزاً لأبي طالب وابنه عليّ على فهم عبقرية محمد فهماً يتمثل لدى الأول شعوراً وتضحية، ولدى الثاني فكراً جباراً وشعوراً عميقاً شاملاً وتضحيةً أشبه بصنع المعجزات!.

ويدرك الرسول هذه الحقيقة. ويحبّ علياً هذا الحب الذي يأخذ مصدره من حبّه للرسالة ذاتها. ثم إنه لا يكتفي بأن يحبه وحده، فنراه يحببه إلى الناس في كل ظرف وكلّ مناسبة ليمهّد له سبيل الخلافة في زمنٍ يأتي، شرط أن يدرك الناس قيمة عليّ بوصفه استمراراً للرسول فينتخبوه اختياراً وحبًا وثقةً، لا لكونه ابن البيت الهاشمي وابن عم النبي. فإن النبي قد اتّقى هذه العصبية. بل إنه حاربها جاهداً وحطّم مفاهيمها تحطيماً. وكان من جملة أعماله أنه أقصى معظم الهاشميين، وهم آله، عن الولاية والعمالة وحظوظ الدنيا بعد أن حرم نفسه هذه الحظوظ.

صِفَة الإمَام

قال واصفو عليّ بن أبي طالب وفيهم صاحب ذخائر العقبى، أنه كان وهو في تمام الرجولة، ربعة القامة أميَل إلى القصر. أسمر شديد السمرة، أبيض اللحية طويلها. أدعج العينين في سعة. حسن الوجه واضح البشاشة كثير التبسّم، أغيدَ كأنما عنقه إبريق فضة. عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبعِ الضاري لا تبين عضدُه من ساعده بل أُدمجا إدماجاً. شثن الكفّين، أبجرَ يميل إلى السمنة في غير إفراط. ضخم عضلة الساق دقيق مستدقّها. ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقّها. يتكفّأ في مشيته على نحوٍ يقارب مشية النبي. ويُقدِم في الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوي على شيء. ثم إنه كان من القوة الجسدية على ما يدهش العقول، فربما رفع الفارس بيده فجَلدَ به الأرض غير جاهدٍ ولا حافلٍ كأنه يرفع طفلاً وليداً. وربما أمسك بذراع البطل فكأنه أمسك بنَفَسه فلا يستطيع أن يتنفس. واشتهر عنه أنه لم يبارز فارساً إلا صرعه مهما كانت قواه بالغة ومهما كان شأنه عظيماً. وقد يحمل الباب الضخم الذي يعيا الأبطال بقلبه أو تحريكه فيأخذه بيدٍ واحدة ويتترّس به كأنه ترسٌ عادي: وقد يزحزح بيدٍ واحدة الصخر الضخم لا يزحزحه رجالٌ مجتمعون. ثم إنه قد يصيح الصيحة في ميدان القتال فتنخلع لها قلوب الشجعان أفراداً وجماعات! وكان له من مكانة التركيب صلابة على الطوارىء الجوية فلا يبالي ألَبِسَ ثياب الشتاء في الصيف أو ثياب الصيف في الشتاء!.

الخُلق العظِيم

- شكا أحدُ الناس عليّ بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب في خصومةٍ، وكان عمر أميراً للمؤمنين. فأحضرهما وقال لعليّ: قف يا أبا الحسن بجانب خصمك! فبدا التأثّر على وجه عليّ. فقال له عمر: أكَرِهْتَ يا عليّ أن تقف إلى جانب خصمك؟ فقال عليّ: لا يا أمير المؤمنين! ولكني رأيتك لم تسوِّ بيني وبينه، إذ عظّمتَني بالتّكنية ولم تكنّه.
- خرج عليٌّ وهو راكبٌ فمشى معه قومٌ فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا. قال: انصرفوا، فإنَّ مشيَ الماشي مع الراكب مفسدةٌ للراكب ومذلّة للماشي.

الخُلق العظِيم

من الصعب والمصطَنع تجزئةُ الصفات والطباع والأخلاق في الكائن الحيّ ولاسيما العظيم. فهي متماسكة متفاعلة يكمّل بعضها بعضاً ويكون هذا منها سبباً في ذاك أو نتيجةً لذلك، أو مرادفاً لأحدهما أو لِكِلَيْهما في العلّة والنتيجة. لذلك لا تستهدف محاولتي التجزيئية هذه إلاّ عملاً ينقسم في النظرية ويتّحد في التطبيق. وفي مثل هذه التجزئة النظرية ما يسمح لي بالاستنتاج والتعليل؛ على أن يجري هذا الاستنتاج من طبيعة الأشياء جرياً عفوياً بديهياً. كل ذلك في تلميح وإيجاز. وغايتنا أن نحيط بشخصية الإمام عليّ من نواحيها جميعاً، فتكون معرفتنا لطباعه وأخلاقه إطاراً يدور فيه بحثنا فيما بعد. ولنبدأ بالكلام على عبادة الإمام ومعناها.

اشتهر عليّ بن أبي طالب بتقواه التي كانت علّة الكثير من تصرّفاته مع نفسه وذويه والناس. وإني لأرى أن تقوى عليّ ليست شيئاً من العبودية المفروضة بحكم الظرف والهوى على أنماطٍ من الأتقياء. ففيما ترى العبادة لدى معظم هؤلاء رجْع أصداء الضعف في نفوسهم أحياناً، ومعنًى من معاني التهرّب من مواجهة الحياة والأحياء أحياناً أخرى، وهوَساً موروثاً ثم مدعوماً بهوَسٍ جديد مصدره تقديسُ الناس والمجتمع لكلّ موروثٍ في أكثر الأحيان، تراها عند الإمام أخْذاً من كل قوةٍ ووصْلاً لأطراف الحلقة الخلقيّة التي تشتد وتمتدّ حتى تجمع الأرضَ والسماء، ومعنًى من معاني

الجهاد في سبيل ما يربط الأحياء بكل خير. وهي على كل حال شيء من روحِ التمرّد على الفساد يريد محاربته من كل صوب؛ ثم على النفاق وروح الاستغلال والاقتتال من أجل المنافع الخاصة من هذا الجانب، وعلى المذلّة والفقر والمسكنة والضعف من الجانب الآخر. ثم على سائر الصفات التي تميّز بها عصره المضطرب القلِق. وهي شيءٌ كثير من روح الشهادة في سبيل ما يراه عدلاً. أوَ لم تكن تقواه من مقتضيات هذه العلامة للإيمان التي يتحدث عنها بقوله: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّكَ على الكذب حيث ينفعك؟» ثم، ألم يقضِ شهيدَ هذا الصدق وكانت منافعُ زمانه في غير الصدق؟ بل زِدْ على ذلك وقل: ألم يحيَ شهيدَ هذا الصدق، إذا صحّت مقاييس الشهادة على الأحياء؟ ثم، إن مَنْ تبصّر في عبادة الإمام تبيّن له أن علياً متمرد في عبادته وتقواه كما هو متمرد في أسلوبه في السياسة والحكم. ففي عبادته افتتان الشاعر يقف في هيكل الوجود الرحبِ صافيَ النفس ممتلىء القلب، حتى إذا انكشفت له جمالات هذا الكون تجاوبت وما في كيانه من أصداء وأظلال وموازين، فأطلق هذه الآية الرائعة التي نرى فيها دستوراً كاملاً لتقوى الأحرار وعبادة عظماء النفوس: «إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار. وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد. وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار!».

إن عبادة الإمام ليست شيئاً من سلبية الخائف الهارب أو التاجر الراغب كما هي الحال عند الكثيرين من المتعبّدين. بل هي شيء من إيجابية الإنسان العظيم، الواعي نفسَه والكون، على أساسٍ من خبرة المجرّب وعقل الحكيم وقلب الشاعر!.

وبهذا المفهوم للتقوى والعبادة كان عليّ يوجّه الناس إلى أن يتّقوا الله في سبيل الخير الإنساني العام، أو قلْ في سبيل أمرٍ أجلّ من رغبة تجّار العبادات في نعيم الآخرة. كان يوجّههم إلى التقوى لعلّ فيها ما يحملهم

على أن يعدلوا وينصفوا المظلوم من الظالم، فيقول، «عليكم بتقوى الله. . . وبالعدل على الصديق والعدوّ». ولا خير في التقوى، في نظر الإمام، إلاّ إذا دفعتْك إلى أن تعترف بالحقّ قبل أن تُشهد عليه، وألاّ تحيف على من تبغض ولا تأثم في من تحب وألاّ تخدع أحداً وأن تعفو عمّن أساء إليك.

❀ ❀ ❀

ومن كان معنى العبادة في نفسه هذا المعنى لا بدّ أن ينظر إلى الحياة كما نظر إليها علي بن أبي طالب! فهي لا تُبتغى لمتاع ولا تُرجى للذة عابرة. بل لما يمكنها أن تحتوي من أصداء تتجاوب مع النفس الشاملة. لذلك زهد عليّ في الدنيا وتقشف. وكان صادقاً في زهده كما كان صادقاً في كل ما نتج عن يمينه أو بدَرَ من قلبه ولسانه. زهد في لذة الدنيا وسبب الدولة وعلة السلطان وكل ما يطمح لبلوغه الآخرون ويرون أنه مرتَكز وجودهم. فإذا هو يسكن مع أولاده في بيتٍ متواضع تأوي إليه الخلافة لا الملك. وإذا هو يأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها فيما كان عمّاله يعيشون على أطايب الشام وخيرات مصر ونعيم العراق وما يمكن للحجاز أنّ يقدّم. وكثيراً ما كان يأبى على زوجته أن تطحن له فيطحن لنفسه وهو أميرٌ للمؤمنين، ويأكل من الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته. وكان إذا أرعده البرد واشتدّ عليه الصقيع لا يتخذ له عدّةً من دثارٍ يقيه أذى البرد. بل يكتفي بما رقّ من لباس الصيف إغراقاً منه في صوفية الروح. روى هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلتُ على عليّ بالخورنق، وهو فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة هو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل ذلك بنفسك؟ فقال: والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتُها من المدينة.

وسُمع عليٌ يقول على المنبر: «مَن يشتري مني سيفي هذا، فلو كان

عندي ثمن إزارٍ ما بِعته». فقام إليه رجلٌ فقال: أسلفك ثمن إزار!»

وخرج عليٌّ إلى السوق يقول: «من عنده قميص بثلاثة دراهم؟» فقال رجل: «عندي». فجاء به فأعجبه، فأعطاه ثم لبسه وقال: «الحمد لله الذي هذا من رياشه!».

وأتى أحدُهم عليًا بطعامٍ نفيسٍ حلو يقال له الفالوذج، فلم يأكله عليٌّ ونظر إليه يقول: «واللّهِ إنكَ لطيّب الريح، حسن اللون، طيّب الطعم، ولكنْ أكره أن أعوّد نفسي ما لم تعتدْ».

وظل يعيش في بيته عيش الكفاف حتى غدر به ابن ملجم. وإنّ أحداً من رعاياه لم يمت عن نصيب أقلّ من النصيب الذي مات عنه عليّ وهو خليفة المسلمين. ولعمري إن صوفية عليّ هذه ليست إلاّ معنى ومزاجاً من معاني فروسيته مزاجها، وإنْ بدا للبعض أنهما مختلفان. أوَ لم تكن فروسية عليّ في حقيقتها تعبيراً عن شهامةٍ وخلق؟ وجهاداً في سبيل فكرة سامية وإنسانية تتّجه به إلى نصرة المضطهدين والمستضعفين وإلى انتزاعهم من بين الأنياب الضارية؟ وهي إذا كانت كذلك ـ وهي كذلك ـ أفلا تأبى عليه أن ينعم في بلد يكثر فيه الأشقياء والتعساء!.

وقد روى أحدهم أن علياً أصابه وعائلته الجوعُ يوماً فلم يجدوا في البيت شيئاً يأكلونه. فخرج عليٌّ ليعمل في سبيل كسب القوت وأجّر نفسه ليلةً يسقي نخلاً بشيء من شعيرٍ حتى أصبح واستلم الشعير وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه ويقال له الحريرة. فلمّا تمّ نضجُه أتى مسكينٌ يرجو طعاماً فأطعموه. ثم صنع الثلث الثاني فلما تمّ نضجه أتى آخر يرجو طعاماً فأطعموه. ثم صنع الثالث فأتى أسيرٌ من المشركين فسأل فأطعموه وطووا يومهم ذلك دون طعام.

وقد حملت هذه السيرةُ الطيبة عمرَ بن عبد العزيز ـ أحد خلفاء

الأسرة الأموية التي تكره علياً وتختلق له السيئات وتسبّه على المنابر ـ على أن يقول: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب!.

والمشهور أن علياً لم يبنِ آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة. وأنه أبى أن يسكن القصر الأبيض الذي كان معدًّا له بالكوفة لئلّا يرفع سكنه عن سكن أولئك الفقراء الكثيرين الذين يقيمون في خصاصهم البائسة. ومن كلام عليّ هذا القولُ الذي انبثق عن أسلوبه في العيش انبثاقاً: «أأقنع من نفسي بأن يقال «أمير المؤمنين» ولا أشاركهم مكاره الدهر؟» ويروي ابن الأثير أن علياً تزوج فاطمة بنت الرسول وما لهما فراشٌ إلاّ جلد كبش ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحاً لهما بالنهار. فلما صار خليفة قدم عليه مالٌ من أصفهان فقسمه على سبعة أسهم، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة!.

وكان عليٌّ يقول: «أفضل الزهد إخفاء الزهد».



ويمثل عليّ بن أبي طالب الفروسية بأروع معانيها وبكل ما تنطوي عليه من ألوان الشهامة. والإباء والترفع أصلان من أصول روح الفروسية. فهما إذن من طبائع الإمام. لذلك كان بغيضاً لديه أن ينال أحد الناس بالأذى وإن آذاه. وأن يبادر مخلوقاً بالاعتداء ولو على ثقة بأنّ هذا المخلوق إنما يقصد قتله. وروح الإباء والترفّع هذه هي التي ارتفعت به عن مقابلة الأمويين بالسباب يوم جعلوا يرشقونه به. فليس من خلق العظيم أن ينال مَن ناصبوه العداء بالسباب ولو سبّوه. بل إنه منع على أصحابه أن ينالوا الأمويين بالشتيمة المقذعة. فهو ما كاد يسمع قوماً من أصحابه هؤلاء يسبّون أهل الشام أيام حروبهم بصفين، لأنهم سايروا الغدر وماشوا الخديعة، حتى قال لهم: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر،

وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهمّ احقن دماءَنا ودماءَهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق مَنْ جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به».

❀ ❀ ❀

ومروءة الإمام أندر من أن يكون لها مثيل في التاريخ. وحوادث المروءة في سيرته أكثر من أن تعد. منها أنه أبى على جنده وهم في حالٍ من النقمة والسخط أن يقتلوا عدوّاً تراجع، وأن يتركوا عدوًّا جريحاً فلا يسعفوه. كما أبى عليهم أن يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالاً. ومنها أنه صلّى في وقعة الجمل على القتلى من أعدائه وطلب لهم الغفران. وأنه حين ظفر بألدّ أعدائه الذين يتحينون الفرص للتخلص منه، وهم عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص، عفا عنهم وأحسن إليهم وأبى على أنصاره أن يتعقّبوهم بسوء وهم على ذلك قادرون. ومن حوادث المروءة هذه أن علياً ظفر بعمرو بن العاص، وهو لا يقل خطراً عليه من معاوية بن أبي سفيان، فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته ويستمر في مؤامرته ضده، لأن عمراً هذا رجاه، على أسلوب خاص، أن يعفّ عنه وقد أصبح ذو الفقار فوق هامته! ولو قضى عليّ على عمرو آنذاك لكان قضى على المكر والدهاء وجيش معاوية! وفي معركة صفين، حاول معاوية وجماعته أن يميتوا علياً عطشاً، فحالوا بينه وبين الماء زمناً وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً! ولكنْ، ما كان من أمره وأمر جيش معاوية بعد ذلك؟ كان أن حمل عليهم الفارس العظيم فأجلاهم عن الماء. ثم أتاح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده. وهو لو منع عنهم الماء لانتصر عليهم واضطرهم إلى التسليم خشية الموت ظمأ! وعرف مرة أن رجلين من أنصاره ينالان من عائشة في موقعة الجمل التي أدارتها عائشة للقضاء عليه فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم أقبل على عائشة بعد انتصاره في هذه الموقعة

وودعها أكرم وداع، وسار هو نفسه في ركابها أميالاً، ثم أوصى بها وأرسل من يخدمها ويحفّ بها ويوصلها إلى المدينة مكرّمة محترمة. قيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّمهن بعمائم الرجال وقلّدهن السيوف. فلما كانت عائشة ببعض الطريق ذكَرت عليّاً بما لا يجوز أن يُذكَر به. وتأفّفت وقالت: هَتَكَ ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي! فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهنّ وقلن لها: إنما نحن نسوة!



وتتماسك هذه الصفات الكريمة في سلسلة لا تنتهي وبعضُها على بعض دليل. ومن أروع حلقاتها الصدقُ والإخلاص. وقد بلغ به الصدق مبلغاً أضاع به الخلافة وهو لو رضي عن الصدق بديلاً في بعض أحواله لمَا نال منه عدوّ ولا انقلب عليه صديق. وقد حدث أن اجتمع عليه مرةً كبار المهاجرين يريدون إقناعه بمسايرة معاوية إلى أن يستتبّ له الأمر فيقصيه. فخالفهم جميعاً مترفعاً عن الحيلة والمواربة. وقد جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته بالخلافة، وهو من ذوي الحنكة والحيلة وحسن التدبير، فقال له: «إن لك حق الطاعة والنصيحة. وإن الرأي اليوم تحرزُ به ما في غد. وإن الضياع اليوم تُضيعُ به ما في غد. أقرِرْ معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة جنودهم استبدلتَ أو تركت!».

فصمت عليّ غير طويل، ثم أعلن عن إبائه الحيلةَ قال: «لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري!».

ولما ظهرت حيلة معاوية أطلق الإمام عليّ هذه العبارة التي تصح أن تكون صيغةً للخلق العظيم، قال: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنتُ من أدهى الناس».

ومن قوله في التشديد على ضرورة الصدق مهما اختلفت الظروف: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك، على الكذب حيث ينفعك!».

❀ ❀ ❀

والشجاعة في حدودها الصحيحة ليست عملاً جسدياً بل طبعاً من طباع النفس ومزيّة من مزايا الإيمان. وشجاعة الإمام هي من الإمام بمنزلة التعبير من الفكرة وبمثابة العمل من الإرادة، لأن محورها الدفاع عن طبْعٍ في الحق وإيمانٍ بالخير!

والمشهور أن أحداً من الأبطال لم ينهض له في ميدان. وأن فارساً لم يثبت أمامه على صهوة. فقد كان، لجرأته على الموت، لا يهاب صنديداً بالغاً ما بلغ من القوة والبأس والصولة ورهبة الصيت. بل إن فكرة الموت لم تجلْ مرة في خاطر الإمام وهو في موقفِ نزال. وإنه لم يقارع بطلاً إلاّ بعد أن حاوره لينصحه ويهديه. والمشهور أنه اجترأ، وهو غلام لم يطرّ شاربه بعد، على عمرو بن عبد ود فارس الجزيرة العربية وبطل المشركين المهاب في مواقعهم مع المسلمين. وكان اجتراؤه العجيب على هذا الفارس انتصاراً منه للهداية على الغرور، وعلى الزهو والخيلاء. فلما كانت وقعة الخندق، في مطلع الإسلام، خرج عمرو مقنّعاً بالحديد ينادي جيش المسلمين: من يبارز؟ فهال عليًّا هذا التحدّي وأثار عزيمته، فصاح: أنا له! فقال النبي، وبه إشفاق عليه لحداثة سنه من جهة، ولبأس عمرو من جهة ثانية، وكان عمرو يساوي ألف فارس في نظر أصحابه وأعدائه، قال لعليّ: إنه عمرو. اجلس! وبعد أخذٍ وردّ طويلين، وبعد أن كرر عمرو نداءه مراراً وهو يؤنب المسلمين، أذن النبي لعليّ فمشى إليه فرِحاً مغتبطاً. فنظر إليه عمرو فاستصغره وأبى أن ينازله. ثم أقبل عليه يسأله من أنت؟ فقال عليّ: أنا علي، ولم يزد. قال عمرو: ابن عبد مناف؟ قال: ابن أبي طالب. فأقبل عمرو عليه يقول: يا بن أخي، من أعمامك مَن هو أسنّ،

وإني أكره أن أريق دمك. فقال له عليّ: لكني واللّهِ لا أكره أن أريق دمك. فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف قال واصفوه كأنه شعلة نار. واستقبل عليّ الضربة بدرقته فقدّها السيف وأصاب رأسه. ثم ضربه عليّ على عاتقه فسقط ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلا عن عمرو وهو صريع!.

وقد سبق التحدّث عن فصولٍ من شجاعته النادرة بعد أن اكتملت رجولته وكيف أنه كان يخلع أشد الفرسان صولة وأرهبهم جانباً من صهواتهم فيرفعهم بيده في الهواء ويجلد بهم الأرض جلداً، لا جاهداً ولا متعباً.

وفي نهج البلاغة أن معاوية انتبه يوماً فرأى عبد الله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره، فقعد، فقال له عبد الله يداعبه:

يا أمير المؤمنين: لو شئت أن أفتك بك لفعلتُ. فقال: لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر! فقال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفتُ في الصف إزاء عليّ بن أبي طالب؟ قال: لا جرمَ إنه قَتَلك وأباك بيسرى يديه وبقيتْ اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها!.

وإذا عرفنا أن عبد الله بن الزبير من أشد الأبطال بأساً ومن ألدّ أصحاب الفتنة خصومةً لعليّ، أدركْنا مدى ما يصوّره من شجاعة عليّ وبطولته ساعةَ أراد أن يبالغ في وصف شجاعته هو فما رأى أبلغ من أن يصوّر نفسه واقفاً في صفٍّ من المحاربين إزاء عليّ! وإذا عرفنا كذلك عداء معاوية لعليّ وحرصه الشديد على أن يكتم كل فضيلةٍ من فضائله عملاً بمصلحة ملكه الجديد، ثم رأيناه يقول هذا القول، أدركْنا من شجاعة عليّ هذا المدى البعيد الذي حمل معاويةَ قسراً على الاعتراف بما اعترف به.



وكان علي، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، يتورع عن البغي أيّاً كان الظرف. فقد أجمع المخبرون والرواة والمؤرخون أن علياً يأنف القتال إلاّ إذا حُملَ عليه حملاً. فكان يسعى أن يسوّي الأمور مع أخصامه ومن يبادره بالعداوة على وجوهٍ سلمية تحقن الدم وتحول دون النزال. وكان يردّد على أسماع ابنه الحسن هذا القول: «لا تدعوَنّ إلى مبارزة».

ولمّا كان قول الإمام لا يخرج إلا عن معدن صافٍ، فقد طالما عمل بوصيته لابنه الحسن وعفّ عن القتال إلاّ مكرَهاً. من ذلك أن جنود الخوارج لما أخذوا يعدّون العدة ليحاربوه، ونصحه أحدهم بأن يبادرهم قبل أن يبادروه، أجاب قائلاً: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني». ورأى أن شهامة الفارس وعقيدة المؤمن بالخير، ووثبة الإنسانية في روحه، تقضي عليه بأن يجادلهم لعلّهم قانعون. وفيما كان يعظ قوماً فيهم كثيرٌ من الخوارج الذين يكفّرونه، بهرتْ عِظتُه بعض هؤلاء الخوارج فصاح، وقد أرغمته بلاغةُ عليّ وسحر بيانه على الإعجاب والإكبار، قائلاً: قَاتَلَه الله كافراً ما أفقَهَه! فهمّ أتباع عليّ بقتله، فصاح بهم يقول: إنما هو سبٌّ بسبب أو عفوٌ عن ذنب!.

وقد مرّ بنا ذكر ما كان من شأنه وشأن جنود معاوية ساعة عزم هؤلاء على أن يميتوه عطشاً. وساعة قابل سيئاتهم بإحسانه فلم يمنع عنهم ورود الماء بل ساواهم بنفسه وأتباعه! وله مع معاوية وجنوده أخبار لا يتسع لذكرها مجال. وكلّها تشير إلى عبقرية علويّة خاصة في التورع عن البغي وفي الأخذ بالحسنى. من ذلك ما وراه أحد مؤرخي سيرة الإمام قال:

واتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجلٌ يسمى كريز ابن الصباح الحميري. فصاح بين الصفّين: من يبارز؟ فخرج إليه رجلٌ من أصحاب عليّ فقتله كريز ووقف عليه ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه آخر، فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى: من يبارز؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه. ثم نادى رابعةً: من يبارز؟ فأحجم الناس جميعاً ورجعَ

من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه! وخاف عليّ أن يشيع الرعب بين صفوفه، فخرج إلى ذلك الرجل المُدلّ بشجاعته وبأسه فصرعه. ثم قال يُسمِع الصفوف: يا أيها الناس، لو لم تبدأونا ما بدأناكم! ثم رجع إلى مكانه!.

ومن ذلك ما جرى يوم موقعة الجمل. فحين اجتمع عليه أخصامه وساروا بجهدهم إليه، أمر أصحابه أن يصطفّوا ففعلوا، فقال لهم: «لا ترموا بسهم ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، واعذروا!» وكان يأمل بذلك أن يجتنب الحرب ويسوّي الأمور سلماً فيحقن الدماء فلا يموت من الناس مَن يموت، قتيلاً! وما هي إلا دقيقة حتى رمى رجلٌ من عسكر القوم بسهم فقتل رجلاً من أصحاب عليّ: فصاح عليّ: «اللهم اشهد». ثم أصيبَ رجل آخر فقتل، فقال «اللهم اشهد». وأصيب عبد الله بن بديل فأتى به أخوه يحمله فقال عليّ: «اللهم اشهد». ثم كانت الحرب.

وطبيعة التورع عن البغي أصلٌ من أصول نفسية علي وخلقٌ من أخلاقه. وهي متصلة اتصالاً وثيقاً بمبدئه العام الذي يقوم بمعرفة العهد وصيانة الذمة والرحمة بالناس حتى يخونوا كل عهدٍ ويقسوا دون كل رحمة. ومن أروع صور المودة وآيات الوفاء أن يقف فارس في حومة الحرب وينظر إلى معارفه من منازليه نظرة المؤاخاة الداعية إلى السلم ويذكّرهم ما بينه وبينهم من عهد سبق ومودة تربأ بنفسها أن تنقلب أو تخون. يذكّرهم ما بينه وبينهم من عهد يريد بذلك أن ينزع من أيديهم السلاح ويحل ما تعقّد من الأمور على صورة هي للسلم والصفاء أقرب! فإنه لا يحارب عدوّاً له سابقةُ مودةٍ به إلا بعد أن يأخذ بتذكيره هذه السابقة ويستعيد على مسامعه ما سلف من عهد الإخاء والصفاء. فلعلّ في الصداقة القديمة ما يحيي ضمير هذا العدو فيكون له رادعاً عن العداوة والبغضاء. وما كان لعليّ أن يستنجد الصداقة على العداوة لولا ذلك الفيض العظيم

من الوفاء والحنان تزخر به نفسه ويطغى على جنانه.

ومن الدلائل القاطعة على عاطفة الوفاء العميقة التي كانت تعمر قلب الإمام، وعلى دفْق المودة في نفسه، أخباره مع عدوّيه الزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله اللذين ألّبا عليه أنصاره وضمّاهم إلى أخصامه واندفعا بهم جميعاً، وعلى رأسهم عائشة، إلى قتاله.

فمن ذلك ما رواه الثقات من المخبرين عن المشاهدين أنصاراً وأخصاماً، قالوا إن الزبير وطلحة لمّا ألحّا في حربه وإنكار بيعته والتجنّي عليه في موقعة الجمل المشهورة، خرج عليّ إليهما حاسراً لا يحتمي بدرعٍ ولا بسلاح، تدليلاً على نوايا السلم التي يُضمر، ونادى: يا زبير! اخرج إليّ. فخرج الزبير إليه مدججاً بالسلاح. وسمعت عائشة ذلك فصاحت: واحرباه! ذلك لأنها لم يخالجها أقلّ شك في أن الزبير لا محالة مقتول. فخصمُ عليّ مقضيّ عليه بالموت إذا نازله، مهما كان حظه من الشجاعة عظيماً ومهما كانت خبرته بالقتال فائقة.

ولشدّ ما دهشت عائشة ومن حولها وهم يرون إلى عليّ بن أبي طالب يعانق الزبير!

عانقه طويلاً لأن أسباب المودّة لا تنقطع في القلب الكبير!

وعاد عليّ يسأل الزبير بلهجة الصداقة القديمة: ويحك يا زبير، ما الذي أخرجَك؟.

قال: دم عثمان!.

قال: قَتَلَ الله أولانا بدم عثمان!

وجعلَ عليّ يذكّره العهود والصداقات وأيام الأُخوّة السالفات!

وربما بكى عليّ في مثل هذا الموقف! ولكن الزبير استمر في قتال

الإمام حتى صرع. وكان مصرعه على كرهٍ من راعي المودّات، عليّ بن أبي طالب!.

وكان من حسن وفائه للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، والذين أعانهم برأيه وعمله ومسلكه ومقاله، أنه سمّى ثلاثة من أبنائه بأسمائهم وهم: أبو بكر وعمر وعثمان.

ولعلّ موقف الإمام من مقتل خصمه طلحة لا يجاريه في التاريخ موقف خصمٍ من خصمٍ له جارَ عليه. فإن علياً ساعة وقف على جثة طلحة وهو قتيل، بلغ به الحزن أشد مبلغ، وبكى أحرّ بكاء، واندفعت الذكريات العزيزة على قلبه دموعاً غزاراً من عينيه ولوعةً محرقة في قلبه. وجعل ينظر إليه ويقول: عزيز علي أن أراك، يا أبا محمد، مجدّلاً تحت نجوم السماء! وتمنّى لو أخذه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة!.

ولكنّ صاحب المودّات لم يرعَ أصدقاؤه له مودة. لأنهم لم يكونوا ليطمعوا بأن يحولوا بينه وبين نفسه، فيطلق أيديهم في خيرات الأرض دون سائر الخلق.

يقول عليّ:

«واللّهِ لو أعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبُها لبّ شعيرةٍ ما فعلتُ. وإن دنياكم أهون عندي من ورقةٍ في فم جرادة!».

وليس عليّ في هذا المجال قائلاً ثم عاملاً. بل هو القول يجري من طبيعة العمل الذي يُعمل، والشعور الذي يحسّ، والحياة التي يحيا! فعليّ أكرم الناس مع الناس. وأبعد الخَلق عن أن ينال الخلق بالأذى. وأقربهم إلى بذل نفسه في سبيلهم على أن يقتنع ضميره بضرورة هذا البذل! أوَليست حياته كلها سلسلة معارك في سبيل المظلومين والمستضعفين، وانتصاراً

دائماً للشعب دون من يريدونه آلة إنتاجٍ لهم «من السادة ورَثَة الأمجاد العائلية» أوَلم يكن سيفاً صارماً فوق أعناق القرشيين الذين أرادوا استغلال الخلافة والإمارة للسلطان والجاه وتكديس الأموال؟ ألم يُضع الخلافة والحياة على الأرض لأنه أبى مسايرة أهل الدنيا في استعباد إخوانهم الضعفاء والفقراء والمظلومين؟ أليس عليّ أعظم الناس رفقاً بالناس يوم دفع عنه أخاه عقيلاً الذي جاءَه يطلب من مال الشعب. وآثر أن يلوي عنه أخوه هذا ويساير معاوية على أن يأذن له في التصرّف بالقليل القليل من مال الفقير والمظلوم والعامل ومَن رقّ حاله؟ أليس عليّ أباً كريماً لشعبه في توجيهه الولاة والعمال نحو الرفق بالناس والضرب على أيدي المستغلّين من ذوي الوجاهة والسلطان مشدّداً في هذا التوجيه مهدداً بالعقاب! أليس عليّ هو صاحب هذه الوصايا المكرّرة في آذان وُلاته: «أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنهم خزان الرعية! لا تحسموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته! ولا تبيعنّ للناس في الخراج كسوةَ شتاء ولا صيف، ولا دابّة يعتملون عليها! ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم!».

أوَليس عليّ صاحب العهد الرابع إلى الأشتر النخعي عامله على مصر وأعمالها وفيه يقول: «ولا تكونَنّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنّهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق! أعطِهم من عفوِك وصفحكَ مثل الذي تحبّ أن يعطيك اللّهُ من عفوه وصفحه. ولا تندمنّ على عفوٍ ولا تبجَحَنّ بعقوبة!» ثم يقول له: «وامنع من الاحتكار». وتشديد علي في منع الاحتكار كان من الأسباب البعيدة في ما كان من أمره وأمر معاوية وأنصاره. فهؤلاء يريدون الملك والمال والمغانم لأنفسهم، وعليّ يريدها جميعاً للشعب.

وبلغ عليّ من الرفق بالناس وطلب العذر لهم عما يفعلون، أنْ حاربه أهلُ البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف وسبّوه ولعنوه، فلما ظفر

بهم رفعَ السيفَ عنهم وأدخلهم في أمانه. ومن ذلك أيضاً أنه أوصى خيراً بقاتله الأثيم ابن ملجم، على ما سنرى.

وجاء في وصيته للحسن والحسين: «قولا الحق، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً».

أوصاهما بأن يكونا للظالم خصماً ولو كان من ذويهما. وأن يكونا للمظلوم عوناً ولو كان من أقاصي الأرض! ولطالما سعى عليّ في تحطيم الظالمين وفي رفع الحيف عن المستضعفين: سعى لذلك بقلبه ولسانه وحسامه ودمه! وكان لا يساير في هذا السبيل ولا يهادن ولو فقد حياته!.

❀ ❀ ❀

وليس غريباً أن يكون عليٌّ أعدل الناس، بل الغريب أن لا يكونه! وأخبار عليّ في عدله تراثٌ يشرّف المكانة الإنسانية والروح الإنساني. من ذلك ما مرّ بنا من أن أخاه عقيلاً أراد منه مالاً يُجريه من مال الشعب. فأبى الإمام عليه ذلك لأن المعوزين أجدر بهذا المال وهو مالهم. وهدّده أخوه بأن يتركه إلى خصمه معاوية فما أثّر ذلك في نفسه ولا بدّل من أمره. فأقبل أخوه على معاوية وهو يقول: «معاوية خير لي في دنياي!».

وكان معاوية عند رأي عقيل فيه! فقد كان بيت المال في نظر معاوية سلاحاً في يديه يمكّن به من سلطانه ويَفدي به مسلكه ويستعيد به أمجاد أميّة السالفات.

وكان الإمام يأبى الترفّع عن رعاياه في المخاصمة والمقاضاة. بل إنه كان يسعى إلى المقاضاة إذا وجبتْ لتشبّعه من روح العدالة. من ذلك أنه وجد درعه عند عربيّ مسيحي من عامة الناس. فأقبل به إلى أحد القضاة واسمه شريح، ليخاصمه ويقاضيه. ولمّا كان الرجلان أمام القاضي قال عليّ: إنها درعي ولم أبعْ ولم أهَبْ! فسأل القاضي الرجل المسيحي: ما

تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال العربي المسيحي: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنينِ عندي بكاذب! وهنا التفت القاضي شريح إلى عليّ يسأله: هل من بيّنة تشهد أنَّ هذه الدرع لك؟ فضحك عليّ وقال: أصاب شريح، ما لي بيّنة! فقضى شريح بالدرع للرجل المسيحي، فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه! إلاّ أنّ الرجل لم يخطُ خطوات قلائل حتى عاد يقول: أمّا أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء! أمير المؤمنين يدينني إلى قاضٍ يقضي عليه! ثم قال: الدرع واللّهِ درعك يا أمير المؤمنين وقد كنتُ كاذباً فيما ادّعيتُ! وبعد زمنٍ شهد الناس هذا الرجل وهو من أصدق الجنود وأشدّ الأبطال بأساً وبلاء في قتال الخوارج يوم النهروان، إلى جانب الإمام عليّ!.

وعن عليّ بن أبي رافع، قال:

كنت على بيت مال عليّ بن أبي طالب، وكاتبه. فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة. فأرسلت إليّ بنت علي بن أبي طالب، فقالت لي: إنه قد بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمّل به في يوم الأضحى، فأرسلتُ إليها: عاريَّة مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين. فقالت: نعم، عاريَّة مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام. فدفعته إليها، وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه، فقال لها: من أين جاء إليك هذا العقد؟ فقالت: استعرته من ابن أبي رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين لأتزيّن به في العيد ثم أردّه. فبعث إليّ أمير المؤمنين، فجئته، فقال لي: أتخون المسلمين يا بن أبي رافع؟ فقلت: معاذ الله أن أخون المسلمين! فقال كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاهم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إنها بنتك، وسألتني أعيره تتزيّن به، فأعرتها إياه عاريَّة مضمونة مردودة على أن ترده سالماً إلى موضعه! فقال: ردّه من يومك،

وإياك أن تعود إلى مثله فتنالك عقوبتي! فبلغت مقالته ابنته، فقالت له: يا أمير المؤمنين، أنا بنتك وبضعة منك، فمن أحق بلبسه مني؟ فقال لها: يا بنت أبي طالب، لا تذهبي بنفسك عن الحق، أكلّ نساء المهاجرين والأنصار يتزيّنّ في مثل هذا العيد بمثل هذا؟! فقبضته منها ورددتُه إلى موضعه.

وتجري في روحه العدالة حتى أمام أبسط الأمور. فهو إذا استوى وأخذَ الناس في حقٍّ باختيارِ متاعٍ من أمتعة الدنيا آثر أن يكون هذا الاختيار من نصيب غيره لئلاّ يشعر هذا الغير بأن النصيب الأوفر من الحقوق ملازمٌ للكبير دون الصغير. من ذلك أنه ذهب يوماً إلى أبي النوار ومعه غلامه. فاشترى من أبي النوار قميصين اثنين، ثم قال لغلامه: اختر أيّهما شئت! فاختار الغلام أحدهما، وأخذ عليّ الآخر!

ووصايا الإمام، ورسائله إلى الولاة تكاد تدور حول محور واحد هو: العدل. وما تواطأ الناسُ عليه، أباعد وأقارب، إلاّ لأنه ميزان العدالة الذي لا يميل إلى قريب ولا يساير نافذاً ولا يجوز فيه إلاّ الحق. فإن عثمان بن عفان لمّا وليَ أمر المسلمين أطلق أيدي الأقارب والأعوان والصحابة في كل مورد من موارد الجاه والثروة، منقاداً بذلك إلى آراء بطانة السوء وكان مروان أشدّهم تأثيراً عليه. فخالف بما فعلَ الوصية الحكيمة التي أوصى بها أبو بكر الصدّيق خليفته عمر بن الخطاب إذ قال له: «احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله، الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحبّ كلّ امرىء منهم نفسه!».

وكان في نفس عليّ شيء من هؤلاء الذين انتفخت أجوافهم. فلما صارت الخلافة إليه أبى إلا أن يعدل فيهم، فعزل منهم من عزل، وأبعد عن السلطان والاحتكار من أبعد. وحارب كل من تحدثه نفسه بأن يحوّل الرسالة عن مجاريها الطبيعية العادلة لتصبّ في بيته مالاً وسلطاناً وجاهاً! وطالما ردّد على أسماع هؤلاء قوله الرائع: «إني لأعرف ما يصلحكم ولكن

لا أصلحكم بفساد نفسي!».

وكان من شأنه وشأن هؤلاء ما كان، حتى انهزم الظالمون في حكوماتهم وإن انتصروا بالحيلة والظرف. وحتى انتصر العدل في قلب عليّ وقلوب أتباعه وإن ظُلموا وظُلم!.

وحين مات عليّ من طعنة ابن ملجم الأثيمة، رثته أمّ الهيثم النخعية بقصيدة باكية، منها هذا البيت الذي يصوّر نظرة الناس إلى عليّ ومعرفتهم بعدله المشرّف:

يقيم الحقّ لا يرتاب فيه، ويعدلُ في العِدا والأقربينا

وعليّ هو القائل:

عليكم بالعدل على الصديق والعدوّ.

❀ ❀ ❀

والصراحة خلقٌ عند عظماء الناس. وهي عند عليّ هذا الخلق لاتّصالها، في ينابيعها، بكل طباعه الباقية. فهي والصدق والإخلاص والمروءة وما إليها أخوات. فمن صراحته أنه لم يكن يخفي شيئاً مما يضمر أو يحسب، ولا يُظهر شيئاً مما لا يخفي ولا ينوي. وأنه لم يكن ليألف الحيلة في معاملة أخصامه المعتدين وهو أعلم الناس بأن في الحيلة الخلاص من هؤلاء ومما يضمرون له من شر. وفي حديثنا السابق عن صدق الإمام وإخلاصه ما يُعتبر حديثاً عن الصراحة المطلقة التي كانت من مزاياه، وما أكثرها!

❀ ❀ ❀

ومن أصول أخلاقه أنه كان يعتمد البساطة في كل ما يأتيه، ويمقت التكلف. بل ربما كان ذلك ملاك الأمر في طباعه. وكان يقول: «شر

الإخوان من تُكلّف له». ويقول أيضاً: «إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه». ويقصد بالاحتشام مراعاة الصديق حتى التكلّف! وكان لا يتصنّع في رأيٍ يراه أو نصيحة يسديها أو رزق يهبه أو مال يمنعه. وكانت هذه الطبيعيّة تلازمه حتى يسأم أصحابُ الأغراض من استرضائه بالحيلة، وحتى يسأم المداورون المراوغون من أنه مصطنِعٌ إياهم راضٍ عنهم. فإذا هم ينسبون إليه القسوة والجفوة والزهو على الناس. وما كان الإمام ذا قسوة أو جفوة أو زهو مقصود وغير مقصود! بل كان ما يبدر منه انقياداً للطبع والسجيّة دون تكلّف ودون رياء. ولمّا كان المحيطون به ـ في معظمهم ـ أهل منافع خاصة، فقد ساء بهم ظنه فما تكلّف أن يخفي هذا الاستياء. وليس صدق الشعور وإظهاره زهواً وليس جفوة. بل إن علياً كان يمقت الزهو ويمقت العجب ولا يرضاه. ولطالما نهى وُلْدَه وأعوانه وعماله من الكبر والعجب. ومن قوله في نصح هؤلاء: «إياك والإعجاب بنفسك» و «اعلم أن الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب». كان يمقت التكلّف حتى عند مادحيه. فربما أفرط أحدهم في مدحه فإذا هو يستوقفه ليقول له: «أنا دون ما تقول». وربما أفرط في اتّهامه في نفسه، فلا يتكلّف أن يخفي ما عرف من طويته فيقول: «وفوق ما في نفسك!» وكرهَ عليّ التكلّف في محبّيه المغالين كما كره التكلّف في مبغضيه المفرطين، فقال: «هلك فيّ اثنان: محبّ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ»[1] ذلك لأن في كل إفراط ظاهرة تكلّف! إنه لا يتكبّر ولا يتواضع، لأن في التكبّر تكلّفاً وفي التواضع تكلّفاً كذلك. بل يظهر نفسه كما هي، صريحة صراحة الحق وصراحة الطبيعة! وهل رأيت في الناس من هو أودع، وأجمل مسلكاً، من عليّ ساعة رآه بعضهم وهو يحمل في ملحفه تمراً قد اشتراه، فقالوا له: ألا نحمله عنك؟ فقال ببساطة العظيم: «أبو العيال أحق بحمله!».

---

(١) محب غالٍ: متجاوز الحد في حبه. مبغض قالٍ: متجاوز الحد في بغضه.

وإنه لمن الخطأ الشائع أن نعدّ التواضع المقصود فضيلة من فضائل النفس، بل إنه شيء من التكلّف المقيت. ولم يكن عليّ بالمتواضع ولكنه لم يكن متكبراً. بل كان يُظهر ما في طويته دون أن يحسب للتواضع حساباً أو للتكبر. فكلاهما ليس من عدّة العظيم. أما إذا رآه بعضهم متكبراً، ورآه بعضهم متواضعاً، فإن الخطأ في الحالتين خطأ الناس في نظرتهم إليه وتعليلهم أحواله. فهو منها براء. يقول صاحب «عبقرية الإمام»: «كان يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنّعون بالحديد، أفعجيب أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء؟».

أمّا الجفوة فلا جفوة في خلق الإمام، بل سماحة وتبسّط.

❀ ❀ ❀

ومن خلقه ما تميّز به من سلامة القلب. فهو لا يحمل ضغينة على مخلوق ولا يعرف حقداً حتى على ألدّ أعدائه ومناوئيه ومن يحقدون عليه حسداً وكرهاً. فقد مرّ معنا أنه نهى أولاده وذويه، قبيل موته، أن يقتلوا أحداً من أقرباء قاتله ابن ملجم. وبكى على خصمه طلحة وكان طلحة هذا يطلب رأسه. ورثاه بقول صادق المودة ظاهر اللوعة. وأوصى أصحابه ألاّ يقاتلوا الخوارج بالرغم من محاربتهم إياه، ومن أنّ قاتله أحدهم، ومن أنهم نكلوا بأصحابه وأذاقوه وإياهم من الأذى قدر ما أذاقه معاوية وعمرو ابن العاص وأعوانهما. ذلك لأنه شعر بإخلاصهم لقضيتهم وإن كانوا على خطأ وضلال. ثم إنه ليس في تاريخه وأخباره جميعاً ما يدلّ على طبيعة تحقد على الأعداء، حتى أنه لم يحقد على معاوية نفسه، محتكماً إلى الحق في قلبه وإلى الصراحة في لسانه وإلى السيف في يده. وليس من طبيعة الفروسية أن تحقد وإن كان من طبيعتها ألاّ تنام على ضيم يلحق بها وألا تهجع على ظلم يلحق بالآخرين. ولكن هذه الطبيعة النبيلة التي لا تحقد حتى على مَن عالنها العداء وأراد لها الموت، كانت تحاط بالحاقدين

الساخطين المفرطين في الحقد والسخط. وأقوال عليّ الرائعة تفيض بالأسى المرّ لِما فيه من طيبة وحب، ولما في الآخرين من غدر.

وكان من خُلقه أن يكون كريماً لا حدود لكرمه. ولكنّه الكرمُ السليم بأصوله وغاياته لا كرم الولاة وذوي السلطان الذين «يكرمون» بأموال الناس وجهودهم. وهم إذا كرُموا على هذا النحو فإنما يكرمون على ذويهم وأقاربهم والضاربين بسيوفهم في سبيل ما يملكون. وهم إذا كرُموا فوق ذلك فلكي يقال فيهم إنهم من أهل الكرم وهي صفةٌ تزيد المرءَ وجاهةً لدى الجماعات وتُكسبه عطفاً وتستر ما اختلس وتلقي سدْلاً على جوره إن كان من أهل الجور وعلى عجزه في سياسة الناس إن كان من ذوي العجز. هذا اللون من ألوان الكرم الذي لا يختلف عن الرشوة في معناه، والذي عرفه أكثر المشهورين بالكرم في تاريخنا وتاريخ سوانا من ذوي الوجاهة والسلطان، لم يعرفه عليّ بن أبي طالب مرة في حياته ولم يأبه له. وإنما كرَمُه هو الكرم الذي يعبّر عن جملة المروءَات متّحدةً في نفسه موجّهة. ففيما كان يزجر ابنته زجراً شديداً إذا هي استعارت من بيت الأمّة قلادة تزيّن بها جيدَها أُسوة ببعض البنات في عيدٍ من الأعياد، وفيما كان يزجر أخاه عقيلاً إذا هو طلب إليه أن يمدّه بقليل من الأموال العامّة، وفيما كان يُبعد عنه كل طالب رشوةٍ وكل راغبٍ في عطاء على غير جهد وبغير حقّ، كان في ما هو ثابتٌ من الروايات، يسقي بيده النخلَ لقومٍ من يهود المدينة حتى تمجَل[1] يدُه فيتناول أُجرته فيهبها لأهل الفاقة والعوز، ويشتري بها الأرقّاء ويحرّرهم في الحال. وممّا رواه الشعبيّ عن لسان عارفيه أنه كان أسخى الناس على الخلق مما يملك. وإذا كانت شهادة الخصم أصحّ الشهادات في بعض الأحوال، فكيف يكون كرم عليّ وقد شهد به معاوية ابن أبي سفيان الذي يجتهد في وصمه وعيبه قائلاً: «لو ملك عليّ بيتاً من

(١) تمجل يده: تنفط من العمل ويظهر فيها المجل. والعامة تقول: بقبقت.

تبرٍ وبيتاً من تبنٍ لأنفذ تبرَه قبل تبنه!».

وبعد، أفليس من متممات هذه الصفات النبيلة، ومن مزايا الفروسية العلوية، ومن متممات العبقرية الأدبية التي سيأتي الكلام عليها، أن تقترن جميعاً بهذه الثقة بالنفس التي عُرف بها الإمام! بل إن الثقة شيء ملازمٌ بالضرورة لهذه الخصائص. فالإمام يعمل وهو مطمئن إلى نبل العمل وصراحة الحق فيه. فليس تصدّيه لفارس الجزيرة عمرو بن ودّ، والنبي وأصحابه يحذّرونه من سوء المصير، إلاّ شاهداً على هذه الثقة بالشجاعة التي تمتلىء بها نفسه. وخروجه إلى الصلاة دون أن يصطحب من يقيه خطر الأعداء وهم كثرٌ حواليه، حتى أدركه ابن ملجم وضربه بالسيف المسموم، أليس شاهداً هذه على الثقة بالحق التي تفيض به جوارحه! وسيرته كلها، أليست سلسلة من أعمال وأقوال تدلّ على أن الرجل إنما هو مطمئنّ إلى صلاح ما يعمل، عنيد في هذا الاطمئنان، لأن عمله وقوله نابعان من عقل جبار، وخلق عظيم!.

وفي جوّ من هذه الثقة الأصيلة يحسّها في نفسه، وفي فيضٍ من إيمانه بعدله، وفي حالٍ من اختلاف الناس فيه فلا يبدّل من موقفه ولا يلين، قال:

«لو ضربتُ خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يُبغضني ما أبغضني. ولو صببْتُ الدنيا بجمّاتها[1] على المنافق على أن يحبني ما أحبّني!» وفي مثل ذلك يقول أيضاً: «إني والله، لو لقيتُهم[2] واحداً[3] وهم طلاعُ[4] الأرض كلّها، ما باليتُ ولا استوحشت!».

---

(١) أي: لو كفأت عليه الدنيا بجليلها وحقيرها.
(٢) يعني أخصامه.
(٣) أي: لو كنت واحداً.
(٤) أي: ملء الأرض.

وبهذه الثقة الرابعة يقول إلى سهل بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على المدينة، عندما علم أن قوماً من أهلها لحقوا بمعاوية: «أما بعد، فقد بلغني أن رجالاً ممّن قبلك يتسلّلون إلى معاوية، فلا تأسفْ على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم. إنهم، واللّهِ، لم ينفروا من جورٍ ولم يلحقوا بعدل!».

مَع كُلِّ عِلْم

- أقلّ الناس قيمةً أقلّهم علماً.

الإمام عليّ

- لا بارك الله في معضلةٍ لا تحكم فيها، يا أبا الحسن!

عمر بن الخطاب

ثقَافَة الإِمَام

عليّ بن أبي طالب فذّ من أفذاذ العقل. وهو بذلك قطب الإسلام وموسوعة المعارف العربية ليس من علم عربيّ إلا وقد وضع أصله أو ساهم في وضعه. أما بلاغته، وأما عبقريته في الاجتماع، فسيأتي عليهما قولٌ كثير. أمّا علومه ومواهبه في الفقه والقضاء والعربية وما إليها، فهي التي سنتحدث عنها في هذا الفصل موجزين، مضافاً إليها ما اقتُضيت إضافته من الكلام على حكمته. وإنّا إذا أوجزنا القول في هذه السعة من ثقافته ومواهبه فلأنّ القائلين فيها كثير. ولأنّ الباحثين قد أوسعوها درساً. وغايتنا في هذا الكتاب أن نختصر حيث أسهبوا، ونُسهب حيث أوجزوا أو أهملوا. ولنبدأ بالكلام على القرآن والحديث، ثم على غيرهما، لندرك إلى أيّ مدًى بعيد أصاب النبيّ في وصفه علياً ساعة قال: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها».

رُبيَ عليّ بن أبي طالب برعاية النبي ابن عمه وتتلمذ له. وورث أخلاقه وأسلوبه في النظر إلى الحياة والخلق. وجرى الميراث في قلبه وعقله سواء بسواء. وعكف على دراسة القرآن دراسة المتبصّر الحكيم الذي ينفذ إلى لباب الأشياء فيعي حقائقها ويستوحيها. وقد أُتيح له أن ينصرف إلى هذه الدراسة العميقة النافذة خلال الزمن الطويل الذي استخلف فيه أبو بكر، فعمر وعثمان. فإذا هو يتقن القرآن نصًا ويحياه جوهراً فيستقيم به لسانه كما يستقيم جنانه.

أما علمه بالحديث فلا يُشقّ له فيه غبار. وليس في ذلك ما يُستغرب وقد رافق الإمامُ النبي أطوَلَ زمنٍ رافقه فيه مجاهدٌ أو صحابي. فسمع منه ما سمعه الآخرون وما لم يسمعوه. ويقال إن علياً لم يكن يروي من الحديث إلاّ ما سمعه بنفسه من الرسول لأنه كان مطلق الإيمان بأنّ كلمةً واحدةً من حديث النبي لم تفت قلبه وأُذنيه. وقيل لعليّ: «ما لك أكثر أصحاب رسول الله حديثاً؟» فقال: «إني كنتُ إذا سألته أنبأني وإذا سكتّ ابتدأني!».

❁ ❁ ❁

ومن الطبيعي أن يُحسن عليّ بن أبي طالب الإسلام فقهاً كما أحسنه عملاً. فإن معاصريه لم يعرفوا من هو أفقه منه وأصلح فتوى. ولعلمه الكثير وفقهه كان موضع ثقة أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب في ما تعسّر حلّه من المشكلات والمعضلات، كما كان مرجعهما الأخير في الاستشارة. وطالما أفاد الخليفتان من مشورته وعلمه. وكما كان مرجعاً لأبي بكر وعمر في شؤون الفتوى، كان كذلك مرجعاً لسائر الصحابة. وندر أن نهضتْ لغيره حجّة أفضل من حجته في مسائل الشريعة.

ولم يقف علم عليّ بالفقه عند علمه بنصوصه وأحكامه، بل تجاوزه إلى العلم بأدوات الفقه ومنها علم الحساب الذي كانت معرفته فيه تفوق معرفة معاصريه.

وإذا كان أبو حنيفة إمام الفقه الأكبر في العصور الإسلامية التي تلت عصر عليّ، فإنما هو تلميذ لعليّ. فقد قرأ أبو حنيفة على جعفر بن محمد، وجعفر تتلمذ لأبيه، إلى أن ينتهي الأمر إلى عليّ بن أبي طالب. وكذلك الإمام مالك بن أنس فإنه تلميذ عليّ بالتسلسل. فقد أخذ عن ربيعة وربيعة أخذ عن عكرمة وعكرمة أخذ عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عباس

قرأ على عليّ. وقيل لابن عباس أستاذ أولئك جميعاً: «أين علمك من علم ابن عمك؟» - يُراد عليّ - فقال: «كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط!».

❀ ❀ ❀

يُجمع الصحابة على أن النبي قال مرة: «أقضاكم عليّ». فقد كان عليّ أقضى أهل زمانه لأنه كان أعلمهم بالفقه والشريعة وهما في الإسلام مصدر القضاء. ثم إنه أوتي من قوة العقل ما يكشف له عن الوجه الأكثر صواباً والأشدّ انطباقاً على المنطق إذا اختلفت الوجوه. كما أوتي من صفاء الوجدان ما يوجّهه في استخدام علمه في القضاء أصدق توجيه، فيعدل في الحكم على أساسٍ من العقل والضمير جميعاً. ومن المأثور عن عمر بن الخطاب قوله لعليّ: «لا بارك الله في معضلة لم تحكم فيها يا أبا الحسن» وقوله: «لولا عليّ لهلك عمر». وقوله أيضاً: «لا يُفتينّ أحدٌ في المسجد وعليّ حاضر!».

وسوف نتحدث مطولاً عن عبقرية عليّ في القضاء وعمّا اكتشف من معقولاته ساعة نسوق الكلام على الموازنة بين عليّ ومبادئه، ورجال الثورة الفرنسية الكبرى ومبادئهم.

❀ ❀ ❀

ولما كان علي بن أبي طالب من الذين لا يكتفون بالنظر في الأمور نظراً عابراً، بل يتوخّون أن ينفذوا من كل مشكلة إلى لبابها، فقد أمعن النظر في القرآن وموضوعه الدين إمعاناً ينساق إليه المفكرون انسياقاً. فإذا به يجعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل والتبصّر. وما كان لعبقري كعليّ أن يكتفي من الدين بظاهره من إجراء الأحكام وإقامة الحدود وطقوس العبادة. فإذا الناس - معظم الناس - ينصرفون إلى ظاهر الدين

وإلى نتائجه في المعاملة والقضاء انصرافاً حسابياً أو يكاد يكونه. وإذا عليّ يفقه الدين ـ إلى جانب فقهه الظاهرِ من أحكامه ـ على أنه موضوعٌ للفكر المحض والدراسة الخالصة والتأمل البعيد. فلا ينتهي من التفكير والدرس والتأمل إلاّ ليثق بأن هذا الدين إنما يقوم على ركائز وأركان تتفاعل وتتقارب وتتحد في أصولها وحقيقتها.

من هنا نشأ علم الكلام أو فلسفة الدين الإسلامي. ومن هنا كان عليّ أول المتكلمين بل أبا علم الكلام. فإن الأوائل من أصحاب هذا العلم لم يستقوا إلا من معين علي بن أبي طالب، ولم تتوفر لديهم أسبابه إلا عن طريقه. وإن الأواخر ظلوا يهتدون به ويعتبرونه إمامهم وإمام الأوّلين. فهذا واصل بن عطاء مؤسس المعتزلة وهي أول فرقة إسلامية تجاهد لأن تعطيَ العقل مداه في موضوعات الدين، هو تلميذ أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية، وأبوه تلميذ علي بن أبي طالب. وما يقال في المعتزلة يقال في الأشعرية. فإن الأشاعرة تلاميذ المعتزلة الذين تلقّوا علمهم عن واصل بن عطاء تلميذ عليّ بالتسلسل.

ثم إن التصوّف الإسلامي واجدٌ أصوله وبذوره في نماذج شتّى من نهج البلاغة. وقد استند أهل التصوّف في الإسلام إلى هذه النماذج قبل أن يعرف المسلمون أهل الفكر اليوناني. وقبل أن ينقلوا إلى العربية فلسفة الإغريق والهنود وغيرهم. ومَن شاء فليرجعْ إلى حديث أبي العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل، في نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ففيه كثيرٌ من الإيضاح لما ذكرنا.

❀ ❀ ❀

وكأن الله أراد أن يكون علي بن أبي طالب ركن العربية في علومها كما كان ركن الإسلام في علومه. فإن أهل زمانه لم يكن فيهم من يقف

إلى جانب الإمام في علوم العربية. وقد ساعده تبحّره فيها، ومنطقه السليم، وقواه الذهنية الخارقة، أن يبادر إلى ضبط العربية بأصولٍ وقواعد تستند إلى الدليل والبرهان، مما يشير إلى مقدرته العقلية على الوزن والقياس. فهو بحقٍّ واضع الأساس في العلوم العربية وممهّد طريقها لكل من أتى بعده. ومما يثبته التاريخ أن عليًّا هو واضع علم النحو. فقد دخل عليه تلميذه وصاحبه أبو الأسود الدؤلي يوماً فرآه مطرقاً مفكراً. فقال له: فيمَ تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعتُ ببلدكم هذا ـ يعني الكوفة ـ لحناً، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية. ثم ألقى إليه صحيفة فيها: الكلام اسم وفعل وحرف الخ.

ويروون ذلك على صورة أخرى فيقولون إن أبا الأسود الدؤلي شكا إلى الإمام شيوع اللحن على ألسنة العرب لاختلاطهم بالأعاجم بعد الفتوحات العربية والأعاجم أهل رطانة ولحن. فأطرق الإمام هنيهةً ثم قال لأبي الأسود: اكتب ما أملي عليك. فتناول أبو الأسود قلماً وصحيفة. فقال عليّ: إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف. فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. وإن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، يعني اسم الإشارة على قول بعض النحاة. ثم قال لأبي الأسود: «**انحُ هذا النحو يا أبا الأسود**». فعُرف هذا العلم بعلم النحو من ذلك اليوم.

ومن مزايا عليّ حدة الذكاء وسرعة الفطنة. ومواقفه الارتجالية الكثيرة تشهد له بقوة البديهة التي لم يكن يجاريه فيها أحد. وطالما كان يرسل المثل السائر والحكمة الرائعة وهو يرتجل في أنصاره أو في أعدائه. وربما كان عليّ فريد زمانه في سرعة الفطنة إلى معضلات الحساب. وكان معاصروه يعدون هذه المعضلات ألغازاً قلما تفقه سرها العقول وقلّما تدرك

إلى حلها سبيلاً. ومما يروى في هذا المجال أن امرأة جاءت إليه وشكت من أمرها أن أخاها مات عن ستمائة دينار ولم يقسم لها من ميراثه هذا إلا ديناراً واحداً. فقال لها: لعلّه ترك زوجة وابنتين وأمّا واثني عشر أخاً وأنت؟ فكان كما قال!.

وفيما كان يخطب ذات يومٍ على منبر الكوفة، سأله أحدهم عن رجل مات وترك زوجة وأبوين وابنتين. فأجاب من فوره: صار ثُمنها تُسعاً! وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية لأنه أفتى بها وهو على المنبر.

والحكمة بما هي نظرٌ نافذ وعقلٌ محيط وحسّ أصيل وقوةٌ على الحصر والاستنباط والإيجاز ثم جهد دائب على ذلك جميعاً، إنما هي من آثار الإمام عليّ. فإن له في ذلك ما يجعل له مركزاً جليلاً بين حكماء الأمم وأفذاذ التاريخ. ولعمري إن أشباه عليّ في القدرة على استخراج النظريات من الحوادث وإرسالها أمثالاً خالدة، لَقليلٌ قليل! وقد كان لهذه الحكمة العلوية أبلغ الأثر في توجيه الثقافة الإسلامية وفي طبعها بطابع إنساني مصدره، في الدرجة الأولى، اثنان: محمد بن عبد الله وعليّ بن أبي طالب!.

وقد أكثر الإمام من النظر الفلسفي في شؤون الحياة والكون والمجتمع البشري، وفي أمور التوحيد والألوهة والتطلع إلى ما وراء الطبيعة. فكان، كما مرّ معنا، مؤسس علم الكلام وفلسفة الإلهيات في الإسلام. وكان أستاذاً اعترف برشده وأصالته كل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات وهم له أتباعٌ وشارحون. وفي كتابه العظيم «نهج البلاغة» فيضٌ من فرائد الحكمة التي يجلس بها في الصف الأول بين حكماء الأمم.

وحين قال النبي: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**»، ألم يكن يقصد علياً بالذات!؟.

الإمام عليّ وحقوق الإنسان

١

في طريقِ الحرِّيَّة

ـ لا تكن عبد غيرك وقد جعَلَك اللّهُ حرّاً.

ـ إياك والاستئثار بما الناسُ فيه أُسوة.

ـ وأمّا الذنب الذي لا يُغفَر، فظلمُ العباد بعضهم لبعض.

ـ لأنصفنّ المظلومَ من ظالمه.

ـ بئسَ العُدوانُ على العباد.

ـ كل إنسان نظيرٌ لك في الخلق.

ـ احببْ لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها.

ـ أشقى الرعاة من شقيتْ به رعيّتهُ.

ـ لا زعامة لسيّيء الخُلق.

ـ مَن أمنتَ أنيَّته فارغبْ في أخوّته.

الإمام علي

التَّجربَة القاسِيَة

- واللّه إني لاعترف بالحق قبل أن أُشهَد عليه.
- إنّ أمرَنا صعبٌ مستصعَب، ولا يعي حديثنا إلاّ صدور أمينة وأحلام رزينة.

الإمام عليّ

- وصَمّ آذانهم بصَيحةٍ تلوَ صَيحةٍ نسفتْ بُنيانَهم نسفاً ودكّتْ سقوفهم دكّاً وقوّضتْ جدرانهم تقويضاً وكانت على قلوب المستضعَفين والمظلومين بَرْداً وسلاماً ونعمةً موفورة.

للإمام عليّ بن أبي طالب في حقوق الإنسان وغاية المجتمع أصولٌ وآراء تمتدّ لها في الأرض جذورٌ وتعلو لها فروع. أمّا العلوم الاجتماعية الحديثة فما كانت إلاّ لتؤيّد معظم هذه الآراء وهذه الأصول. ومهما اتّخذت العلوم الاجتماعية من صورٍ وأشكالٍ، ومهما اختلف عليها من مسمّيات، فإن علّتها واحدة وغايتها واحدة كذلك. وهما رفع الغبن والاستبداد عن كاهل الجماعات. ثم بناء المجتمع على أسس أصلح تحفظ للإنسان حقوقه في العيش وكرامته كإنسان. ومحورها حرية القول والعمل ضمن نطاقٍ يُفيدُ ولا يُسيء. وتخضع هذه العلوم لظروفٍ معيّنة من الزمان والمكان لها الأثر الأول في تكوينها على هذا النحو أو ذاك.

وإذا رجعنا إلى الماضي ونظرنا في شؤونه على أساس هذا الواقع،

تَبَيّن لنا أنّ في كلّ زمنٍ مضى كفاحاً متّقداً بين الاستبداد والحكم المطلَق وهدْر حقوق الجماعة وكبْت الحريات من جهة، وبين النزوع إلى العدالة والحكم المستند إلى الشّورى والعمل على حفظ الحقوق العامة وإطلاق الحريات من جهة ثانية. وما كانت الثورات القديمة الخيّرة الآتية من الجانب المظلوم إلاّ انتفاضات يقوم بها المضطَهدون والمفكرون للقضاء على ظلمٍ اجتماعي وإنشاء قواعد جديدة تقوم على أنقاض هذا الظلم، وتتفق بمنطقها وقيمتها مع الوضع التطوّري الذي بلغ إليه المجتمع.

وقد كان لعليّ بن أبي طالب في تاريخ حقوق الإنسان شأنٌ أي شأن. وآراؤه فيها تتصل اتصالاً كثيراً بالإسلام يومذاك وهي تدور على محور من رفع الاستبداد والقضاء على التفاوت الطبقي بين الناس. ومَن عرف عليّ ابن أبي طالب وموقفه من قضايا المجتمع، أدرك أنه السيف المسلّط على رقاب المستبدين الطغاة. وأنه الساعي في تركيز العدالة الاجتماعية بآرائه وأدبه وحكومته وسياسته، وبكل موقف له ممّن يتجاوزون الحقوق العامة إلى امتهان الجماعة والاستهتار بمصالحها وتأسيس الأمجاد على الكواهل المتعبة.

نضجتْ في ذهن الإمام القوي، فكرةُ العدالة الاجتماعية على أساس من حقوق الجماعة التي لا بدّ لها أن تنتهي بإزالة الفروق الهائلة بين الطبقات التي يُتخم ثريّها وأميرها ويضوى فقيرها وصغيرها. فكان صوته في معركة العدالة الاجتماعية هذه مدوّياً أبداً، وسوطه عاملاً أبداً، ودفاعه عن قيَم الإنسان عظيماً أبداً، شديداً لا هوادةَ فيه ولا لين. كان في حكومته المثلَ الأعلى للحاكم الواعي لحقوق الإنسان في تلك الحقبة من تاريخ البشر. العاملَ على تنفيذ منطوقها بكافّة ما لديه من وسائل. ولم يكن في ذهن الإمام ما هو أوضح ـ على وضوح الأشياء جميعاً فيه ـ من واقع المجتمع في زمانه كيف يكون وعلى أي أساس من الغبن الاجتماعي يقوم.

ثم كيف يجب أن يكون وإلى أي مدّى يأذن الزمان بتطويره! ولم يكن في إرادة الإمام ـ على ما فيها من الدوافع إلى الخير ـ ما يشغلها أكثر ممّا يشغلها السعي في هذا التطوير. ولم يكن في المغريات جميعاً ما يجنَح بهذه الإرادة عن هذا السعي. ولا في المؤامرات ما يكبت فيها قوةَ الانطلاق إلى العمل والإجادة فيه. فليس هنالك ما هو أحبّ على قلب الإمام من أن يُقيم حقاً ويُزهق باطلاً على أساسٍ لا يتزعزع من رأيه في الحق والباطل وموضوعاتهما. وكان صدقه في التفكير والشعور، ثم إخلاصه في تطبيق ما يفكر به ويشعر، سببين في ألاّ يعطي فكرةً غامضة في شأنٍ من الشؤون العامة. وفي ألاّ يقف متراجعاً أمام امتهان الوُلاة والعمال الأقوياء للجماهير والمستضعَفين خصوصاً. وأمام الافتئات على سلطان الحق واقعاً ما وقع تدبيرُه من هوى الأخصام والأنصار. وذلك تقريراً لحقوق الإنسان الطبيعية في العيش الكريم وفي الحياة الخيّرة لا تشطر الناس شطرين فتُرخي عليهم ستارَين مختلفين: أسودَ موجعاً وأبيضَ ضاحكاً!.

وقد أدرك في ضوء عقله الجبار، أن الطبقيّة الماديّة في الناس إنْ هي إلاّ سبيل لن يؤدي السيرُ فيها إلاّ إلى غاياتٍ مُنْكَرة من الجمود في العقل والخبث في النفس. وإلى التعسّف والنكاية والفجور في الحكم والمعاملة، ثم إلى الفساد العريض وسائر الأوضاع الملفّقة في هذا الجانب الغاصب المنكبّ على طلب الجاه والثروة بغير بَلاء. كما يؤدي إلى السقم في الحال والشعور بهَوان الحياة وسوء الظن بالإنسان، وإلى التباغض والتحاسد في الجانب الآخر الذي يذهب جهده لسواه. وفي الجانبين تستقرّ العوامل المؤدية، في النتيجة، إلى انهيار المجتمع انهياراً لا شكّ فيه. حتى لكأنّ طبقتَي المجتمع هاتين ما هما إلاّ فَكّانِ طاحنان تنسحق بينهما الكفاءات والحقوق وتتمزّق الضحايا!.

كانت قاعدة الأرستقراطيين النبلاء في أواخر خلافة عثمان، ولاسيما الأمويين منهم، أن يخرج معظمهم على سُنَن الإسلام في طلب العدالة والمساواة في الحقوق. وأن يُذلُّوا الجماهير ويستعبدوها ويلقوا في صفوفها الخوف من الحاكم والذعْر حتّى من المثول بين يديه. وأن يهدروا دماءها كما يهدرون حقوقها إذا وقع ذلك في نفوسهم موقعاً حسناً. وألاّ يعفّوا عن الرشوة وما إليها، ثم يبعثوا عن أنفسهم إرهاصاتٍ تُنبىء بما هم ساعون فيه أو مقبلون عليه من تخضيب راياتهم بدماء الذمم والحقوق العامّة وتحويل الخلافة إلى ملك، وديموقراطية الإسلام إلى عنجهية حُكم فردي. وبات هؤلاء بين صلابة الإمام عليّ في العدالة الاجتماعية وبين مطامعهم في الرئاسة والولاية والمال، يسلكون مسلك المقامرين يترقبون مفاجآت الربح والمغنم بين حين وحين.

ولما كانت قاعدة أولئك القوم هذا الفيض من المطمع المنحرف وهذا الأسلوب في التربّص بالعدالة الاجتماعية للتركّز من جديد على قواعد من الوثنية السياسية والوثنية الاجتماعية، كان ابن أبي طالب أمام تجربة قاسية، غاية في القساوة، تتشابك عناصرها وتتداخل، وتفرض عليه موقفاً هو من الصعوبة بحيث يتعسر على صاحبه مداراة الأزمة والخروج منها والعصرُ اضطرابٌ وقلقٌ وأحداث رهيبة. وهو من الخطورة بحيث يترتب عليه، إلى حدٍّ بعيد، مصير الخلافة والإسلام وما يستوجبانه في الناس من فضائل خلقية وعدالة اجتماعية. وهو من الدقة بحيث يكون المحكّ لشخصية صاحبه وحقيقة مواهبه في الوفاء للحقوق العامة، ومضاء عزيمته في إشاعة الفضائل الفردية والاجتماعية، وطاقته على الصبر والصمود.

كان ابن أبي طالب أمام تجربة أشبه بالتجربة التي مرّ بها النبي في المعركة القائمة، يومذاك، بين السماح والديموقراطية وإشاعة روح العدل من جانب، وبين الغدر والاستئثار وعقلية التجار والنبلاء من جانبٍ آخر.

كان ابن أبي طالب أمام تجربة قاسية! ولكن هذه القساوة إنما تأخذ معناها وصيغتها من نظر المراقبين البعيدين. أما في قلب الإمام وفي ذهنه فما هي من القساوة بحيث تجعله يحيد عن الطريق التي ارتضاها مسلكاً ولو قيد شعرة. فمن أُوتي الطاقة التي آتاها اللّهُ علياً هانت لديه القساوات إلاّ قساوة القعود عن إشاعة العدالة وروح الحرية والعمل على زرع الفضائل الخلقية التي تصون هذه الحرية وهذه العدالة.

أمّا محمد بن عبد الله فقد صمّ آذان أبي سفيان وأبي لهب وحمّالة الحطب وآكلة الأكباد وتجّار قريش بهذه الصيحة التي نسفتْ بنيانهم نسفاً ودكّت سقوفهم دكّاً وقوّضتْ جدرانهم تقويضاً وكانت على قلوب المستضعفين والأرقاء برداً وسلاماً ونعمةً موفورة: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركتُه!».

أمّا محمد بن عبد الله، فيومَ قالوا له: «إن كنتَ جئتَ بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت إنما تطلب الشرفَ فينا فنحن نسوّدك علينا. وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا» أجاب يقول: «ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملك عليكم. ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربي. فإن تقبلوه فهو حظّكم في الدنيا والآخرة. وإن تردّوه عليّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم».

أمّا عليّ بن أبي طالب، فماذا كان من شأنه مع ابن أبي سفيان وآكلة الأكباد وابن الحَكَم وتجّار الولايات والجيوش المجرورة بالغباوة والمنفعة، ومع المساومين حتى في حدود العقيدة والاتّجاه؟ لقد صمّ آذانهم، هو أيضاً، بهذه الصيحة التي نسفت بنيانهم نسفاً ودكّت سقوفهم دكًّا وقوّضت

جدرانهم تقويضاً وكانت على قلوب المستضعفين والمظلومين والمعذّبين برداً وسلاماً ونعمةً موفورة: «أسفلُكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم! واللّهِ ما أمرتُ بالجور ما أمّ نجمٌ نجماً! وايم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه ولأقودنّ الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً! والله إني لأعترف بالحق قبل أن أشهد عليه! والله ما أُبالي أدخلتُ على الموت أو خرج الموتُ إليّ!»[1].

أمّا عليّ بن أبي طالب فيوم قالوا له: نحن أعزّة قوم! أجاب يقول: «الذليل عندي عزيزٌ حتى آخذ الحق له. والقويّ عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه!».

ولكنّ، كيف أطلق ابن أبي طالب قولَيه من نطاق البيان إلى نطاق العمل؟ من الفكرة المعقولة إلى التجسيم الماديّ؟ وماذا كان من أمره وأمر الناس؟.

(١) تجدها في أماكن مختلفة من نهج البلاغة.

مِن هُنَا

- والقى المسيحُ نظرتَه العارمة بثورة الحياة على رؤساء أورشليم، وعلى لِحاهم الطويلةِ التي تَحرّك في أطرافها ذَنَبُ الشيطان، ورماهم بقسْوة الصاعقة تُرعبُ الغاصبين في قسَماتِ وجهه وتصرَعُهم إلى الأرضِ صرعاً عنيفاً ثم تأكلهم نارُها على شفتيه، عاصفاً هادراً يشتدُّ يقول: «يا مراؤون! يا أولادَ الأفاعي! أُريد رحمةً لا ذبيحة! إنكم تُصَفُّون من البعوضة وتبلعون الجمل! تظلِمون الفعَلة والحصّادين! تأكلونَ بيوتَ الأرامل ولعلّةٍ تطيلون صلاتكم!».

«يا مراؤون! يا أولادَ الأفاعي! إنما جُعِلَ السبتُ من أجلِ الإنسان ولم يُجعلِ الإنسان من أجل السبت!».

- كاد الفقر أن يكون كفراً.

محمد

- لو تمثَّلَ لي الفقرُ رجلاً لقتلتُه.

علي

- عَجِبتُ لمن لا يجدُ القوتَ في بيته كيف لا يخرجُ على الناس شاهراً سيفه.

أبو ذر

نظرَ عليّ إلى الوجود نظرةً لا يتعطّل فيها حدٌّ من حدود العقل والقلب والجسد. ولا يطغى فيها تأمّلُ الإنسان في الكون والاندماجُ في كمالاته، على النظر في حقوق الإنسان المرتبط بالأرض ارتباط عيشٍ وبقاء. أو على النظر في حقوق الجماعة المتعاونة المتكافلة في سبيلِ البقاء وما يقتضيه من مقوّمات.

فهو إمّا دعا إلى الإعجاب بروعة الوجود وعجائب الخلق، دعا في الحين ذاته إلى توجيه الأفراد والجماعات توجيهاً صحيحاً يسير بهم في طريق التعاون الاقتصادي والتكافُل المادّي الذي يضمن لهم الوصول إلى الخير الأكبر: إلى المحافظة على كرامة الإنسان المركّب من فكرٍ يعمل، وعاطفةٍ تتحرّك، وجسدٍ له عليك حقّ ولك به المعنى المادّي من معاني وجودك.

وهو إمّا سعى في تطهير الضمير وتقديس الشوق وسماحة الوجدان، راح في الوقت نفسه يسعى في تنظيم مجتمعٍ عادل له قوانين وضعيّة هي بمثابة الأساس من البناء.

وإن رغبة عليّ الصادقة في الارتفاع بالمسلك الإنساني، وفي تربية العقل والقلب والضمير، وفي تصفية الدخائل وإشاعة الفضائل الروحية فيها؛ أقول إن رغبته في هذه الأمور التي نوجز فنسميها الفضائل الخلقية، أو الفضائل الروحية، هي التي حملته على أن يبدأ، قبل الخلافة وبعدها، من نقطة انطلاق معينة في بنائه الخُلقي والاجتماعي السليم، وأعني بها: تيسير الخبز والماء والكساء والمسكن لهذا الإنسان الذي يريده في ذروة الخُلق الكريم. أو قُل تيسير آلة العيش للإنسان الذي يدعوه لصفاء الروح!.

فلا يستطيع إعجاباً بروعة الوجود ولا شعوراً بجمال الخلق وقيمة الحياة، ولا يَفرغ لإنماء المعاني الإنسانية الشريفة في القلب والوجدان، ذاك العاملُ الذي يعمل ـ أيًا كان نوع العمل ـ ولا يقبض أجراً يتكافأ مع

جهده، بل يأكل أجرَه محتكرٌ ثريّ وقح المطمح والهوى!

ولا يستطيع إعجاباً بروعة الوجود ولا شعوراً بجمال الخلق وقيمة الحياة، ولا يفرغ لإنماء المعاني الإنسانية الشريفة في القلب والوجدان، ذاك المواطنُ المضطَهد الذي يتلقّى السياطَ الموجعة من «نبيلٍ» أقام نفسه عليه أميراً فأتخم حيث جاع، وأثرى حيث فقدَ القوتَ الضروري. أو من حاكمٍ جاء ليكون له خادماً فإذا هو الناهب السالب المحيي المميت بغير حساب!.

ولا يستطيع إعجاباً بروعة الوجود ولا شعوراً بجمال الخلق وقيمة الحياة، ولا يفرغ لإنماء المعاني الإنسانية الشريفة في القلب والوجدان، ذلك العربي، أو الأعجمي، الذي يدخل عليه صاحبُ الشرطة فيُذلّه لمكانِ درهمٍ لا يقدر على وفائه لـ «أميره» المبذّر المسرف على غير حقٍّ له حتى بالرغيف ما دامَ المواطنون العاملون لا يملكون أرغفة؛ أو يقتله لقولٍ تلفّظَ به فما أرضاه، وينهب رزقه ورزق عياله ليضمّها إلى خزانة والٍ أو سلطان، أو ملكٍ من ملوك الزمان!

لا يستطيع أن يتحلّى بالصدق ويمتاز بالطيبة ويعيش في بهجة الفضيلة وينفي من قلبه الحسدَ والمقْت والحقد ومظاهر الانحراف عن قوانين الخير، ذاك الذي سلبَه الفقرُ كلّ فضيلة وأفسد عليه العوَزُ كل سكينة في النفس وكلّ اطمئنان في الخاطر.

لا يستطيع أن يكون رجلاً واثقاً بجمال الحياة، مؤمناً بعدالة الخلق، ناصحاً لأخيه محباً لقريبه، ذاك الذي يضجّ في معدته سعيرُ الجوع فيمتصّ من جسمه دمَ الحياة ويُطفىءُ في روحه لهبَ الإيمان ويحوّل الحب إلى أحقادٍ عميقة، وطمأنينةَ الخاطر وصفاء الروح إلى ظنونٍ سوداء ومخاوفَ مقيتة!

لا يستطيع أن يحب فيسمو به الحب، ذاك الذي تُقيّده أغلالٌ ثقيلة

من الشعور بالدونيّة والتبعيّة وزراية الذات، وهو شعور يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحاجة والعوز!.

لا يستطيع أن يكون فاضلاً، ذاك الذي يحتاج إلى الرغيف! فالرغيف لجميع الطبقات هو أداة السلام الأولى. وهو عدّة الاستقرار والنظام والآلة التي تعد الإنسان لأن يفكر ويحسّ ويقيم علاقاته بالناس على أساسٍ صحيح. ورفْع العوَز هو السلّم التي يصعد على درجاتها الشعبُ من المهبط الذي رماه فيه الحرمان والكبْت، وحَجَرَ فيه على أحاسيسه الشريفة، وجعلَ السّوادَ الأعظم فيه يشعرون بأنهم غرباء عن الأرض، وعن بلادهم، وعن أنفسهم، وعن العمل الفاضل المفيد. رفْع العوز وحده يقضي على التبعية، وعلى الشعور بالدونية، وعلى الانحدار إلى أتون الأحقاد.

❀ ❀ ❀

وينافق المنافقون ويُكثرون من النفاق حتى يكذّبهم واقعُ الناس في كلّ مكان وكلّ زمان!

ينافقون حتى تكذّبهم الشمس الطالعة والقمرُ المضيء وصفاء الينبوع ونبْتُ الأرض!

ينافقون حتى تكذّبهم إرادة الحياة!

ينافقون إذ يزعمون أنّ أداة السلام بين الناس إنما هي البقاء على حالةٍ راهنةٍ من تُخمةٍ هنا وجوعٍ هناك، فما على المُتخَم أن يُذعن لمشيئة الحياة التي تحبّ أبناءها حباً جماً، وهي من أجل هذا الحبّ تتطوّر أبداً وتطلب إلى أبنائها أن يتطوّروا. وما عليه من ثم أن يرضى لحاله وحال الناس تبديلاً أو تطويراً. وما على الجائع، في زعمهم، أن يطلب حقاً له مهضوماً؛ وأن يثور للقمة العيش تُنتزَع من حلق أبنائه لتُلقى فُتاتاً على موائد المتخَمين!

أما إذا طلب هذا الجائع حقه المهضوم وثار للرغيف يُنتزَع من حلق أبنائه، فقد كفرَ وشغبَ وأخلَّ بالأمن وهدّد راحة الآمنين المسترخين على جهده حريراً دِمَقْساً!

وأساليب المنافقين في المحافظة على أسباب تخمتهم و «أمنهم» من جهة، وعلى استعباد الجماهير الطاويةِ الخاوية من جهةٍ ثانية، عجيبة وغريبة!

وللمنافقين في كل زمنٍ سُبلٌ يسلكونها تُمهّدها لهم عقليّةُ هذا الزمن وصفاتُه. ولعلّ أبرز هذه السبل في التاريخ المتوسط والقديم، هي ما استغلّوه من أمور الدين تفسيراً وتأويلاً! يستوي في ذلك أهلُ النفاق من أصحاب المنافع لدى الإغريق والرومان. وفي البوذية واليهودية. وفي النصرانية والإسلام.

أمّا أقرب هذه السُّبل لأنّ يستغلّها المنافقون، فهي ما يدّعونه من أنّ أنبياءَهم دَعوا إلى الزهادة في الدنيا وإلى التقشّف في العيش وإلى القناعة بالفقر والقعود عن كل طموح.

يدّعون ذلك ويدْعون إليه الجماهير، توفيراً لكنوز الأرض يحتبسونها عن الناس، وينعمون بها وحدهم آمنين!

وإزاء هذا الادّعاء وهذه الدعوة، لا بدّ من توضيح ما نراه صدقاً وحقاً، تمهيداً لإدراك الأساس الذي بنى عليّ بن أبي طالب سياسته عليه، وأقام دستوره.

❀ ❀ ❀

صحيحٌ أن بوذا، محرّر الحياة العظيم، كان قانعاً زاهداً لا تهتفُ نفسُه برخاءٍ ولا تهفو إلى نعيم. وأنه كان يكتفي بأيسر نصيبٍ من المطعم والمشرب والملبس وسائر أسباب العيش!

وصحيحٌ أنّ كنفوشيوس، حكيم الصين ونبيّها، كان يُؤثر في حياته الخاصّة الزهدَ وما إليه فيكتفي من الدنيا بما لا يكتفي بأضعافه محبّوه ومقدّرو رسالته!

وصحيحٌ أنّ سقراط لم يكن يبدّل عباءتَه في الشتاء ولا في الصيف، ولا يمنع قسوةَ التراب والحجارة من أن تنال قدميه الحافيتين، ولا أهوال الطبيعة في الحرّ والقرّ من أن تُصيب رأسه العاري ومنكبيه. وأنه لم يلتفتْ في حياته مرّةً إلى ناعمٍ من العيش أو مُريحٍ من المجلس، وربما قاوم الجوعَ والعطش أياماً طوالاً!

وصحيحٌ أن المسيح «كان ـ كما يصفه الإمام عليّ صادقاً ـ يتوسّد الحجرَ ويلبس الخشنَ ويأكل الجَشِبَ. وكان إدامُه الجوع وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريَحانه ما تُنبت الأرض للبهائم. ولم تكن له زوجةٌ تفتنُه ولا ولدٌ يُحزنه ولا مالٌ يلفتُه، ولا طمعٌ يُذلّه، دابّتُه رجلاه وخادمُه يداه!».

وصحيحٌ أن محمداً كان «قد قُبضتْ عنه أطرافُ الدنيا ووطئتْ لغيره أكنافُها، وفُطم عن رضاعها، وزُوي عن زخارفها». وأنه كان زاهداً متقشفاً لا يأكل إلاّ خشنَ المأكل وإذا أكل لا يشبع. وأنه خرج من الدنيا ـ كما يقول أبو ذرّ الغفاري ـ ولم يملأ بطنه في يومٍ من طعامين. وأنه كان إذا شبع من التمر لا يشبع من الخبز، وقد يمرّ به هلالٌ ثم هلالٌ لا يوقد في بيته نارٌ لخبزٍ ولا لطبخ!

وصحيحٌ أن عليّ بن أبي طالب كان «مكتفياً من دنياه بطِمْريه، ومن طعمه بقرصَيْه» ومن المسكن بما هو من خصاص الفقراء دون القصور. وأن أخباره في القناعة والزهد أكثر من أن تُحصى وأشهر من أن يقام عليها دليل، ويكفي منها ما أثبتناه في بعض فصول هذا الكتاب.

وصحيحٌ أن صاحبه أبا ذرّ الغفاري كان قانعاً بأرغفةٍ يابسة من خبز الشعير يأكلها وزوجَه وبنيه، مكتفياً بها راضياً عن حاله هذا كلّ الرضا مطمئناً إليه كل الاطمئنان!

❀ ❀ ❀

صحيحٌ كل هذا!

غير أن هناك أمراً آخر هو أيضاً صحيحٌ كل الصحّة. وهو أن هؤلاء أصحاب رسالاتٍ لهم في هذه الرسالات نفسها مادّة الاكتفاء والشبع والحياة. فغيرهم لا يُطيق ما يُطيقون، ولا يحمل ما يحملون ولا يومض في قلبه ما يومض في قلوبهم من أنوارٍ مشرقةٍ تُكيّف أحوالهم على نمطٍ خاصٌ لا تقاس عليه أحوال الآخرين. ثم إن لهم من الاهتمام بأحوال الجماعات ما يمنعهم من أن يستكينوا إلى مطعمٍ وملبسٍ ومنام.

أضفْ إلى ذلك أنك قد تجد في أجسامهم من القوة ما ليس شرطاً أن يكون في أجسام سائر الناس. فبوذا، مثلاً، كان أقوى الهنود في زمانه كما يروي الرواة. وسقراط كان أوثق المحاربين الإغريق بنْيةً وأرهبهم جانباً وأجلدهم في القتال. وعليّ بن أبي طالب كان من القوة الجسدية بحيث نعلم! وسواءٌ تميّز هؤلاء الزاهدون بطاقاتٍ جسدية خاصة أم لم يتميّزوا، فإنّ هنالك أمراً أكثر خطراً في هذا المجال:

من يطّلع على فصول حياة هؤلاء الرجال، يدرك أوّلَ ما يدرك أنهم ثائرون. وأهداف ثوراتهم مستمدّة من مجتمعاتهم. وأساليبهم في الكفاح مقيّدةٌ بزمانهم ومكانهم وظروفِ الناس حولهم وفي العالم. وفي هؤلاءِ من قُتل بثورته كسقراط والمسيح وعليّ بن أبي طالب، وفيهم مَن لم يتمكّن المعتدون من قتلهم كبوذا ومحمد.

والثائرون قومٌ لا يمكنهم أن ينعموا في عيشهم، لأن طبيعة الثورة لا

تفسح لهم في المجال لأن ينعموا ومن شروط النعيم الاستقرار. ولأنّ هجوم المحافظين المعادين للثورة إنما يتركّز أوّل ما يتركّز على صاحب الثورة. فهو ملاحَقٌ إلى أن ينتصر، مضطهَدٌ إلى أن تُكتب له الغلبة. والثائر الملاحَق المضطهَد لا يمكنه أن ينعم في العيش ويطلب خيرات الدنيا، إلاّ إذا بلغ غايته من الثورة، أو تخلّى عنها.

من هنا كان زهد هؤلاء الأنبياء الثائرين، وكان عزوفهم عن الدنيا.

وهم، على كل حال، أحرارٌ في ما اختاروا لأنفسهم من ألوان العيش وفي ما ارتضوا لها من طرق الاكتفاء. وليس لأحد حقّ قليلٌ أو كثير في أن يناقشهم في ما اختاروا، وفي ما ارتضوا. فقد حَملوا أنفسهم على ذلك ولم يُحْمَلوا.

بقي أن ننظر في ما نراه من أقوال يسيرة لدى هؤلاء يدعون بها إلى الزهد:

قلنا إن هؤلاء الأنبياء وأمثالهم من المصلحين في التاريخ، إنما كانوا ثائرين على أسلوب زمانهم في الثورة وفي الكفاح.

ومن البديهي أن الثورة لا تقوم بصاحبها وحده وإنْ أخذتْ صيغتَها من أقواله، واصطبغتْ روحُها بتعاليمه المعبّرة عن حاجات محيطه وعن مرحلة التاريخ التي يمرّ بها زمانه. بل إنها بحاجةٍ إلى عددٍ من الخلق يتجنّد لها ويكافح في سبيلها. ولمّا كان الأمر كذلك، فإنّ هؤلاء المتجنّدين في نصرة صاحب الثورة إنّما تتّحد ظروفهم بظروفه وتُشبه حالُهم حاله. وفي هذا الواقع وحده ما يبرّر زهدهم بنعيم العيش وقناعتهم بالكفاف. وفي هذا الواقع وحده ما يبرّر دعوتهم على لسان صاحب الرسالة الثائر - إلى القناعة تحويلاً لجهودهم إلى نصرة الثورة وتمكيناً لأقدامهم في الجهاد.

فهذه الأقوال اليسيرة لأصحاب الرسالات في الزهد والقناعة، ليست

إذن إلاّ معالجة استثنائية لحالةٍ موقّتة مرتبطة بأشخاصٍ معيّنين في زمانٍ ومكانٍ معيّنين. فهي أسلوب في التدبير الموقّت وليست دعوة دائمة إلى طلب الفقر والعزوف عن الدنيا. وليست تزييناً للحاجة هنا وتوفيراً للتخمة هناك.

إن أصحاب الرسالات لم يجعلوا من تقشّفهم قاعدةً يسير عليها الناس. ولا من اقتناعهم بأيسرِ ما يمكن من أدوات العيش وآلاته نهجاً ينهجه الآخرون، وسنّة! ولو كان الأمر كذلك ـ وهو ليس كذلك ـ لَمَا كان لثوراتهم غاية ولَمَا عاداهم أصحابُ الوجاهات الموروثة وذوو المال المكنوز والحكم الجائر والفساد العريض.

فليس معقولاً ولا مقبولاً أن يثور بوذا أو المسيح أو محمد على مجتمعٍ فيه الآكل والمأكول، والظالم والمظلوم، والجائع والمُتخَم، فينسف بنيانه ويدكّ دعائمه، واضعاً حياته وحياة أنصاره في كفّة النصر أو الموت، ثم يعود ويدعو الناس إلى الأخذ بما كان من التفاوُت والتمايز بين طبقات الناس، ويزيّن للمتخَمين التخمةَ وللفقراء الفقرَ ولكل إنسانٍ ما كان فيه من أحوال البؤس والنعيم.

ولنا من تعاليم أصحاب الرسالات ومن حياتهم، ما يُخزي المنافقين الداعين إلى الزهد والتقشّف والفقر، المتستّرين بعبارات ربما اخترعوها ونسبوها زوراً إلى أولئك الثائرين.

ولنا من تعاليمهم ومن حياتهم كذلك، ما يؤيّد مذهبنا في أنهم زهدوا ولكنّهم لم يدعوا إلى الزهد، وتقشّفوا وأرادوا للناس جميعاً نعيمَ العيش فلا فقير ولا مستضعَف، ولا آكل ولا مأكول. كل ذلك تيسيراً لحياة اجتماعية عادلة، وحياة خلقية شريفة.



فهذا الروح النقيّ بوذا يهتف في إنجيله بضرورة العمل من أجل سعادة الناس ورخائهم، لا من أجل إفقارهم وإلقائهم في جحيم العوَز الذي يزيّنه بعض المتعبّدين لأبناء الأرض! ثم يجعل نفسه مسؤولاً عن البؤس المادّي في طبقات الناس بقدر ما هو مسؤولٌ عن البؤس الروحي. ومن أقواله: «عاونوا الآخرين، وابسطوا إليهم قلوبكم بالمودّة!».

وهذا كنفوشيوس يُطلق هذه الكلمة الرائعة، وكأنّه يلعن الفقر ويجعل التذمّر من الحياة منوطاً به فيقول: «إنّه لأشقّ على الإنسان أن يكون فقيراً دون تذمّر، من أن يكون غنياً دون غطرسة!» وقد خصّ هذا العظيمُ جانباً عظيماً من تعاليمه لحضّ الناس على الاهتمام بالناحية المادية من حياتهم، دون أن يتكلف تزيين البؤس المادّي لمن شاءَ لهم أن يحيوا في غنى الروح! ومن روائعه الخالدة على الدهر، هذه الكلمة التي تجعل الحياةَ على الأرض، بكافّة متطلّباتها التي تكفل لها البقاء السعيد في شروطٍ ماديّة وروحية على السواء، هي كل الصلاة: «حياتي هي صلاتي!».

وهذا سقراط لا يرى بين شروط الحكم ما هو أجلّ من الشرط الذي يقيّد الحاكم بمنافع العامّة فلا يستطيع إلى نهْبهم سبيلاً. ولو اكتفى للناس بما اكتفاه لنفسه من آلة العيش لَطابَ له أن يرتضي لهم التقشّفَ والزهادةَ كما ارتضاهما لنفسه، ولَما وضع مثل هذا الشرط. وهو يسعى في إصلاح القوانين، وتوجيه السياسة، ويهاجم الطغاة والطغيان، في غايةٍ أساسيةٍ هي: رفْع الحاجة عن الشعب. ثم إنه يجعل المساواة في الحقوق والواجبات روحَ الحكم، كما يجعل المحافظة عليها واجبَ الحاكم. ويشنّ حرباً على الأسباب التي تخلق التمايُز في الثروة بين أبناء البلد الواحد، ويقسو على الأفراد الذين يجمعون المال في غفلةٍ من العامّة. ومن اطلع على حوارياته الشهيرة، رأى في إحداها إصراره الحكيم على جعْل رفاهية الشعب الماديّة إطاراً يدور فيه عملُ الحاكمين ومن يطمحون إلى الحكم.

من ذلك ما سوف نراه في حينه، من الأسئلة التي كان يطرحها على مَن يهيىء نفسه لحكم أثينا وتدور في معظمها حولَ ما يجب على الحاكم أن يعرفه من مصادر الثروة الماديّة، ومن طرق استغلالها وتوزيعها على أبناء الشعب استناداً إلى قوانين عامّة لا تبيحُ الفقرَ هنا والثراء هناك.

وهذا المسيح، الثائر الأعظم، يقول: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!» وفي هذا القول دليلٌ ساطعٌ على تعظيمه شأن الخبز، وعلى أنّ رفع الحاجة وتيسير مادّة البقاء هي الأصل والأساس.

وإن ما يريده المسيح بقوله هذا ليختلف كلّ الاختلاف عمّا أوّله رجالُ الكهانة وتجّار العبادات الذين أرادوا أن يمنعوا الخبزَ عن الناس ليوفّروه لأنفسهم، ولذويهم، ولكلّ مَن لهم فيه هوًى أو أهواء، من أجل مجد الأب السماوي!!!

ففيما هم يفسّرون هذا القول تفسيراً منافقاً يُبعد الناس عن التفكير في العمل من أجل الخبز، أو يغريهم بأن يعملوا ولا يأكلوا لأن الدنيا «فانية» ولأن النعيم لا يكون نعيماً حقاً إلاّ في الآخرة، يريد المسيح ـ كما هو واضح ـ أن يجعل الخبز هو الأساس، ثم يلفت نظرك إلى أن الخبز ليس وحده قوام الحياة. فعليك إذن أن تفرَغ ـ بعد حصولك على الخبز ـ إلى صفاء الروح ودَعَة القلب.

وكيف لا تكون إرادة المسيح متجهة إلى توفير خيرات الأرض لجميع الناس، وهو لا يجد في الصلاة التي دعا إلى ترديدها ما هو أعظم من طلب الخبز، قائلاً: «أبانا الذي في السماوات... أعطِنا خبزنا كفافنا!».

وما كانت رسالة المسيح ـ في أعظم جانبٍ منها ـ إلاّ ثورةً كاسحة على المغتصبين الناهبين المرائين من الكهنة والحكّام والتجار، الذين يتبذّخون على جهد الفقير ويعيشون على دمه كما تعيش السّوسة على ماء

الحياة في الشجرة المثمرة! وماذا يعني الثائر الأكبر إلاّ توفير الخبز والماء والكساء أولاً، لعامّة الناس، بهذا القول الجريء الذي يصف به «أشراف» أورشليم، ومنافقيها، وكهنتها، والمُتخَمين من أتباع القياصرة، في حشْدٍ عامٍّ عظيمٍ من هؤلاء جميعاً، ومن غيرهم، في أشدّ عصور الاستعمار الروماني لبلادنا قسوةً وإرهاباً:

«إنهم يحزمون أحمالاً ثقيلةً شاقّة الحمْل، ويضعونها على أكتاف الناس. وهم لا يريدون أن يحرّكوها بإصبعهم!

«وكل أعمالهم يعملونها لكي ينظرهم الناس! فيعرضون عصائبَهم، ويُعظّمون أهداب ثيابهم، ويحبون المتّكأ الأول في الولائم، والمجالسَ الأولى في المجامع، والتحيّات في الأسواق، وأن يدعوهم الناس: سيّدي، سيّدي!».

والمسيح لا يقبل صلاة هؤلاء المنافقين لأنهم يأكلون جهد الناس ويمنعون عنهم حقّهم في الخبز. يقول:

«ويلٌ لكم أيّها الكتَبةُ والفرّيسيّون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ولعلّةٍ تُطيلون صلاتكم!».

وما تُمثّل «بيوتُ الأرامل» في ذهن المسيح إلا البيوت التي تضمّ قوماً جياعاً مُعْوزين. والفقر والعوَز لعنةٌ على لسان الثائر الأعظم الذي تحدّى إمبراطورية روما وجيوشها وقوانينها وبطْشَ استعمارها، كما تحدّى كهنةَ أورشليم وأشرافها وأمراءها وعاداتهم وتقاليدهم جميعاً، بجسده الناحل، ونظرته العارمة بثورة الحياة، وبقسْوة الصاعقة تشتدّ على الغاصبين في قسَمات وجهه الشاحب ثم تأكلُهم نارُها على شفتيه، لتخلّي المكانَ لقومٍ لا يأكلون خبز الجائع ولا يشربون ماء الظامىء ولا يترهّلون بجهدِ الناس ولا يأتون من روما ليستعمروا بلاداً ليست لهم!

إن الثائر الأعظم الذي دعا نفسه «ابن الإنسان» تمجيداً لحياة الإنسان، والذي زوّرَ تجّار العبادات إرادته لمنافعهم القائمة بإفقار الناس، هو الذي صبّ على المستغلّين والمتخمين وأعداء الشعب المتآمرين على لقمة الجائع وجهد الصانع «الذين يأكلون بيوت الأرامل.. والذين يظلمون الفَعَلَة، والحصّادين» هذه اللعنةَ الأبديةَ الآكلة، إذ حدّقَ في لِحاهم الطويلة التي تحرّكَ في أطرافها ذَنَبُ الشيطان، وتفرّسَ في وجوههم المسلوخة عن وجه الدينار والشاهدة على وقاحة ضمائرهم، وأرذَل في نفوسهم ـ بقسوة الحبّ في نفسه ـ ما اعتادوه من تمجيدٍ وتقديس، وأرجفَهم عاصفاً هادراً يشتدّ يقول:

«يا أولاد الأفاعي!».

وإن الثائر الأعظم الذي دعا نفسه «ابن الإنسان» تمجيداً لحياة الإنسان، هو الذي سفّه كلّ ما لا يخدم الإنسانَ ولَو نُزِّلَ في القوم منزلةَ الأمر المقدّس والطقْس المعبود. فحين جاءه حشدٌ من اليهود برئاسة كبيرِ كهّانهم يريدون أن يمتحنوه في شؤون عباداتهم ليأخذوا عليه ما يُنكرونه من موقفه فيدينوه، فيخلّصوا نفاقهم من صدْقِهِ وحقارتَهم من عظمته، ثم حاوروه في أمر يوم السبت وداوروه، لفّهم جميعاً بنظرته التي تقسو على التآمر قسوةً رهيبة، وصوّب إلى رئيسهم الجليل قولَه:

«يا مُرائي!».

فصُعق الرئيس الجليل... وانتفضَ في الثياب المزركشة جسدُه الكهنوتيّ المقدّس.. فنظر المسيح الثائرُ إلى قداسة رئيس الكهنة من جديد، ليعرّيه من ثوب النفاق من جديد:

«يا مُرائي! إنّما خُلق السبتُ من أجل الإنسان، ولم يُجعَل الإنسانُ من أجل السبت!».

وهكذا، فإن العبادات نفسها، والطقوس جميعاً، إنما خُلقت - في نظر المسيح - لخدمة الإنسان. وأوّل ما يُخدم به الإنسانُ هو تمهيد الطريق أمامه للحصول على الخبز.

وإن المسيح الذي اختار لنفسه هذا اللقب العظيم «ابن الإنسان»، هو الذي يبارك العملَ من أجل الخبز، ويجعل تيسير آلة العيش لجميع الناس أساسَ كل دين، ومظهر كل عبادة. أليس هو الذي قال - وقد شاء امتحان الإيمان الحق في النفوس، وهو لديه الإيمان بالإنسان أوّلاً -: «جُعتُ فأطعمتموني، عطشتُ فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني الخ».

قال ذلك ولم يقل: كنت أُصلّي فصلّيتم معي!.

وثورة المسيح في هذا الشأن أوسع من أن نحدّها هنا. فأقواله التي يزجر بها المتآمرين على لقمة الجائع ويسوطُ بها جلودهم، تملأ الأناجيل الأربعة. وكذلك أقواله التي يُثير بها الفقراء والمستضعفين على ناهبيهم وغاصبي حقوقهم ومستعمري بلادهم!

وأخيراً، أفلم تكن التهمة الكبرى التي حَملَ كهنةُ اليهود بها الرومانيين على محاكمة المسيح ثم على قتله، تلك الثورة الجارفة التي ألقى بذورها في قلوب المضطهَدين والمستضعفَين والأرقّاء وسائر الذين أشرفوا على الغرق في خضمٍّ تَعسٍ رهيبٍ من الجوع والظمأ والعُرْي والتشرّد والعبودية!

ألم تكن التهمة الكبرى «أنه يهيّج الشعبَ، ويمنع أن تُعطى جزيةٌ لقيصر!».

ولماذا منع المسيحُ الشعبَ أن يعطي جزيةً لقيصر؟ أليس توفيراً للرغيف الذي ينهبه قيصر وأُمراؤه والمستعلون على الناس، من حلْق الجائع وبيت المعْوز وكفّ اليتيم؟.

ثمّ، ألم يتذرّع كهنةُ أورشليم لدى ممثّل القيصر، بضرورة المحافظة على أسلوب القيصر الكبير - والقياصرة الصغار التابعين - في نهبْ الناس واحتكار ثرواتهم المادّية، ساعة أبلغوه قائلين: «إذا لم تصلبه فلن تكون محباً لقيصر!».

ألم يقف المسيح في حشدٍ من الخلق فيهم الحاكم والمحكوم، والآكل والمأكول، ليخاطبهم جميعاً بهذه الكلمات الخالدات:

«لا يُوقَد سراجٌ ويوضَع تحت المكيال، لكنْ على المنارة ليُنير كلّ من في البيت!».

والبيت هو العالم بأسره. وكلّ من في البيت هم البشر جميعاً. والسراج الذي يُنير هنا ولا يبعث نوره إلى هناك يجب أن يُحطّم ويوقّد مكانه سراجٌ يرسل الحرارةَ والنور إلى كل زاوية.

ومن ثَمّ، أفلا يكون أولئك الذين يزوّرون هذه الإرادة الثائرة الحكيمة التي ترغب لطبقات الناس جميعاً في الحقّ الوافر في العيش الكريم، والذين يزيّنون للخلق الزهادةَ والفقر والقناعةَ التي لا تنتهي - ليوفّروا خيرات الأرض لذواتهم المقدّسة ويُقيموا من نعيم الأرض في جنائنه الوارفة - أفلا يكونون مرائين ومنافقين وأولاد أفاعي كما أسماهم هو نفسه!!

وهذا محمد، أخو المسيح، الثائر على مجتمعٍ يضجّ بالآكل والمأكول، والناهب والمنهوب، والمستضعَف والمستعلي، وبالعاملين على إبقاء التفاوت بين الخلق قاعدةً وأصلاً، وعلى سحق الطبقات الفقيرة بالفقر، يخاطب القرآنُ على لسانه الناسَ قائلاً:

﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾[1] فيأمر بالاستمتاع بآلة البقاء

(١) سورة الملك، الآية ١٥.

وهو الأكل من أرزاق الأرض. وهو لا يخصّ فئةً من الناس دون فئة ولا قوماً دون قوم. ويقول في مكانٍ آخر: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهةً وأباً[1]﴾[2].

أمّا هو فيقول: «الناس شركاء في ثلاثٍ: الماء والكلأ والنار». ويُثيب مَن يعمل ويأمر له بما يحفظ له كرامة العيش. ويرغب في ألاّ يكون على وجه الأرض معوزٌ أو فقير. وكان، حين يجيئه الفيء، يوزّعه بين أصحابه ويُرجيء ابنته فاطمة ويقول: حتى يكتفي الناس أولاً»[3].

ولن أطيل الكلام هنا على موقف محمد من قضية الفقر والغنى. ففي الفصل التالي بيانٌ جليٌّ لدعوة الإنسان في الإسلام إلى العمل المنتج الذي يعود بالنفع على صاحبه فلا يُعْوز ولا يجوع ولا يبيت فقيراً، حتى ليَفضُل العملُ المفيدُ في إسلام محمدٍ كلّ صومٍ وكلّ صلاة، كما هي الحال في مسيحية المسيح! ومحمد الذي لا يرتضي الفقر ولا يزيّن العوَز هو القائل: «كاد الفقر أنْ يكون كفراً!» وسوف نبين في الفصل التالي عبقرية محمد في الوقوف على كثيرٍ من أسرار البناء الاجتماعي. وفي دعوته إلى أخْذ الحياة مأخذاً جميلاً قوامه العمل النافع والإثابة بالطيّبات.

وهذا أبو ذرّ الغفاري، الزاهد القانع المتقشّف ـ ولا حق لنا عليه في ما اصطفاه لنفسه من آلة العيش ـ يشنّ على الفقر حرباً شعواء. ويقضي شهيدَ الدفاع عن حقوق الجماعة في اليُسر. ومن روائعه في هذه الحرب التي شنّها على الفقر و «فلسفة» الإفقار قوله: «إذا ذهب الفقرُ إلى بلد قال

---

(١) غلبا: جمع غلباء، وهي الحديقة المتكاثفة الشجر.
(٢) الأبّ: العشب رطبه ويابسه.
(٣) سورة عبس، الآيات ٢٤ ـ ٣١.
(٤) «محمد والمسيح» لخالد محمد خالد ص٨٨.

له الكفر: خذني معك!» الكفر بكلّ قيمة وكل فضيلة وكل عبادة! ومنها أيضاً: «عجبتُ لمن لا يجد القُوتَ في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه!».

❀ ❀ ❀

وفي الزاهدين القانعين الذين أخذوا الناس بالنصيحة ووُلوا أمورَهم بالإرشاد، عددٌ عظيمٌ أبَوا على الناس أن يزهدوا وأن يقنعوا وأن يعيشوا في الحاجة ويتركوا للناهبين خيرات الأرض.

وإنّا لنجد هؤلاء حتى في أسفار العبرانيين وإلههم عاتٍ متسلّطٌ جبّارٌ في أكثر الأحيان، لا يُشبه إلاّ قليلاً إلهَ المسيحِ ومحمّدٍ و «اللّهُ محبّةٌ» عندهما و «رحمنٌ رحيم!».

فبالرغم من عتوّ إله العبرانيين على الغالب، ومن جبروته، ترى أنبياء العهد العتيق يسلطون سيف النقمة على آكلي خبز الفقير، وعلى الفقير نفسه ساعة يزهد ويقنع ويأبى إلاّ الخنوع لمن أقاموا أنفسهم عليه أسياداً.

هذا يشوع بن سيراخ يهتف قائلاً:

«أنقذ المظلوم من يد الظالم ولا تكن صغيرَ النفس في القضاء».

«لا تصرف طرفك عن المعوز ولا تصنع شيئاً يجلب عليك لعنة الإنسان».

«أتلف فضّتك على أخيك وصديقك ولا تدعها تصدأ تحت الحجر».

«وإنّما يُنقل الملك من أمّةٍ إلى أمّةٍ لأجل المظالم والشتائم والأموال».

«أعنِ المسكين في عوَزه. كن أباً لليتامى».

وإذا توجّه يشوع بن سيراخ إلى ضمائر الأفراد بهذه الدعوة، ولم

يتوجّه بها إلى قانون الدولة، فلأن حركة التاريخ القاهرة أوقفته عند هذا الحدّ. وإنّما نريد هنا أن نُظهر ما نحن بصدده من القول بأن الزاهدين القانعين لم يكونوا ليرضوا للناس بما ارتضوه لأنفسهم من آلة العيش اليسير. بل نبّهوا إلى أن الفقر ظلمٌ وأن الفقير يجب ألاّ يقنع إلاّ بأن ينال حقّه من العيش الكريم.

اسمعْ ثانية ما يقوله يشوع بن سيراخ، الزاهد القانع المتقشّف:

«رأس المعيشة الماء والخبز واللباس والبيت الساتر للسوأة!».

ثم اسمعْ ما يقوله في وصف حال الغنيّ وحال الفقير، وفي القول استنكاراً للفقر لأن صاحبه مظلوم، وفيه إثارةٌ مبطّنة:

«الغنيّ يظلمُ ويصخَب، والفقير يُظلَم ويتضرّع!».

وإن كنتَ قانعاً زاهداً راضياً بأن تظلّ فقيراً وأن يأكل جهدَك المستغلّون، وضَعَك ابنُ سيراخَ ممّن يستغلّك هذا الموضعَ الذي يُثيرك ولا ريب:

«إن كنتَ نافعاً استغلّك، وإن كنتَ عقيماً خذَلَك! إن كان لك مالٌ عاشرك واستنفد مالك وهو لا يتعب!».

وما نجده في سفر ابن سيراخ من دعوة المستضعَفين إلى الأخذ بحقّهم في الأرزاق، ومن السخط على مستغلّي طبقات الشعب، نجده كذلك في سفر أيّوب الراضي لنفسه بأن يزهد وأن يقنع. يتحدّث أيّوب عن المنافقين فيضع محتكري الثروات وهاضمي حقوق الجماعة في طليعتهم، فيقول في واحدٍ منهم هذا القول الشديد الوطأة على أهل البغي والاحتكار:

«قد ابتلع أموالاً إلاّ أنه يقيئُها. الله يستخرجها من جوفه لأنه هضَم المساكين واستلب البيوت ولم يَبْنِها؛ كلّ ظلام مدّخرٌ في كنوزه، وتأكله نارٌ لم يُنفَخ فيها وتُتلف ما بقيَ في أخبائهِ. تكشف السماوات عن إثمه والأرض تقوم عليه!».

ويصف أيوب المحتكرين الذين يعيشون بجهد البائسين ولا يتعبون، وأولئك الذين يحصدون ويعصرون ويبيتون جياعاً عطاشاً لا كسوة لهم ولا مأوى، فيقول هذا القولَ الرائع:

«فإنّ من الناس مَن ينقلون التخوم ويسلبون القطعان. يستاقون حمارَ اليتيم ويرتهنون ثورَ الأرملة. يطردون المساكينَ عن الطريق فيختبىء بائسو الأرض جميعاً. يحصدون حقلاً ليس لهم ويقطفون الكرم اغتصاباً. يُبيتون العُراةَ بلا لباسٍ لا كسوةَ لهم في البرد، فيبتلّون من مطر الجبال ولا مأوى لهم فيلطأون إلى الصخور. يخطَفون اليتامى عن الثّديّ ويرتهنون ما على البائسين فيذهبونَ عراةً لا لباسَ لهم ويحملون الحزَمَ وهم جائعون يُصهَرون بين خطوط المحراث ويدوسون في المعاصر وهم عِطاش».

وفي أنبياء العهد العتيق شاعرٌ عظيمٌ هو أشعيا الذي بلغ من زهده أنه مشى عارياً حافياً فكان آيةً وأعجوبةً ثلاثَ سنين.

يقف أشعيا في وجوه الطغاة والمنافقين والمحتكرين وقفةَ جبّارٍ لا يعثر به جائرٌ إلا سقط منكبّاً على وجهه. ويسوط جلودَ أهل البغي بشاعريةٍ فذّة وفكرٍ قويّ. ويدعو المدينة إلى أن يعدل أبناؤها بعضُهم مع بعض وإلاّ ثقُلتْ عليهم المعصية وقُلبتْ وجوهُهم وتدنّست من تحتهم الأرضُ فيسقطون ولا يعودون يقومون، وأصبحتْ مدينتهم رُجمةً وعمرانُهم خراباً.

وما المدينة الظالمة على لسانه إلاّ مدينة المنافقين الذين يحتكرون ويغتصبون، ويأكلون عملَ العامل وجهدَ الفقير، ثم يصلّون لربّهم ويُكثرون. يقول أشعيا مخاطباً المدينة الظالمة:

«رؤساؤك شركاء السُّرّاق. كلٌّ يحبّ الرشوة. لا ينصفون اليتيمَ ودعوى الأرملة لا تصل إليهم». ثم يخاطب هؤلاء ويهدّد الجائرين الذين يطحنون وجوه البائسين قائلاً لهم:

«ويلٌ للذين يشترعون شرائعَ الظلم والذين يكتبون كتابة الجور والزور ليحرّفوا حق الضعفاء ويصدّوهم عن الحكم ويسلبوا حق بائسي الشعب لتكون الأرامل مغنماً لهم وينهبوا اليتامى!».

ثم ينظر أشعيا إلى هؤلاء الذين يحتكرون ثروات الشعب ويستغلّونه ويدعونه إلى أن يزهد ويقنع، فيرى أنهم يكثرون من الاهتمام بالصوم وغيره من فرائض العبادة عندهم، فيبعث صوتَه في آذانهم يُجلجلُ قائلاً:

«إنكم في يوم صومكم تجدون مرامَكم وتسخّرون جميع عمّالكم. إنكم للخصومة والمشاجرة تصومون ولتَضربوا بكلمة النفاق. لا تصوموا لتسمعوا أصواتكم في العَلاء. أهكذا يكون الصومُ الذي فيه يُعنّي الإنسانُ نفسَه؟ أإذا حنى رأسه كالبَرْديّ وافترش المِسحَ والرّماد تسمّي ذلك صوماً؟ أليس هذا هو الصوم الذي آثرَه اللّهُ: حَلُّ قيود النفاق وفَكّ ربْط النير وإطلاق المضغوطين أحراراً وكسْر كل نير؟!».

وهكذا، فإنّ صوم الذين يسخّرون العمّال ليبقى الفقير فقيراً ويزداد الغنيّ غنًى، والذين يربطون قيود النفاق ولا يحلّونها، والذين يضغطون على المستضعفَين ويمنعون عنهم أن يحطّموا من أعناقهم نيرَ البؤس ونيرَ العبودية، إنّ صوم هؤلاء هو أقبح ضروب التفاهة والنفاق على لسان أشعيا الزاهد!.

ويلتفت أشعيا ثانيةً إلى هؤلاء المنافقين، فيرى أنهم يكثرون من الصلاة كما يكثرون من الصوم رياء وخداعاً، وتقرّباً إلى الله عن طريقٍ هي أقرب إلى الرشوة. فيخاطبهم بلسان الله قائلاً:

«فحين تبسطون أيديكم أحجبُ عينيّ عنكم. وإن أكثرتم من الصلاة لا أستمع إليكم لأنّ أيديكم مملوءة من الدماء. التمسوا الإنصاف وأغيثوا المظلوم وارفعوا الحاجة وأنصفوا اليتيم وحاموا عن الأرملة!».

وما أروع تصوير أشعيا لأولئك الجائرين ينهبون الضعفاء ويحتكرون جهودهم ثم يزيّنون لهم الزهادةَ والفقر، إذ يصفهم بأنهم ليسوا من المجتمع أكثر من زوائد تافهة لا بدّ أن تذهبَ بها الريح. يقول:

«والجائرون كالغَفَى الهافي»[1].

❀ ❀ ❀

وهكذا يتّفق الزاهدون القانعون من أصحاب الرسالات ومَن يليهم، على حقيقةٍ أساسيةٍ تقوم بضرورة إصلاح الناس برفْع الحاجة الماديّة عنهم أولاً، لكي يفسحوا في المجال لهم في الطريق إلى فضائل القلب. وهم إذا زهدوا وقنعوا فلأنهم يجدون في رسالاتهم نفسها مادّة الاكتفاء والشّبَع والحياة، على ما تقدّم.

فهذا المسيح، مثلاً، يسلك طريقَ الجرأة المعجزة حين يطأ بقدميه وقاحة المستغلّين، ويسحق كبرياءهم مع مكايد أيديهم، ويغشَى بسَوطِ الحياةِ الغاضبةِ لنفسها ظهورَ أولئك الذين بتّوا عهداً مع شيطان الاحتكار والاغتصاب، وعقدوا حِلْفاً مع الجور. ويشتدّ على المنافقين كزوبعةٍ مهلكةٍ وعاصفٍ ذاتِ بَرَد تصرَعُ إلى الأرض صرعاً عنيفاً، ويخلّع أكتاف المستعمرين الرومان وأكتافَ قيصرهم ساعة يدعو الضعفاء إلى الامتناع عن دفع الضرائب، فتقوده هذه الجرأة المشرّفة في طريق الموت على أيدي المنافقين والمستعمرين، حتى إذا جاءه رجلانِ من المستضعَفين وطلبا إليه أن يكونا عن يمينه وشماله وهو صاعدٌ إلى أورشليم، نظر إليهما بعطفٍ يقول:

«أتستطيعانِ أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا؟!».

---

(١) الغفى: ما يكون في الحنطة كالزؤان والتبن يخرج منه فيرمى به. الهافي: الذي تذهب به الريح.

وأقصاهما عن طريقه رحمةً وحبّاً.

❀ ❀ ❀

وكما نافقَ المنافقون ففسّروا بعضَ أقوال المسيح وبعضَ فصول حياته تفسيراً يزيّن الفقر للناس كي يتركوا لأنفسهم خيرات الأرض ينعمون بها غُنْماً حلالاً ويحكمون الخلقَ حكم الطغاة فيأوي إلى بيوتهم سلَبُ البائسين، «أراد وُلاةُ الحكم في تاريخنا ـ في العهد الأموي وما بعده ـ أن يدوم لهم النفوذ والسيطرة، والظلم والطغيان، فأوعزوا إلى أذنابهم الخونة أن يضعوا أحاديث يصوغون للناس منها قيوداً وأغلالاً تساعدهم على استعباد الأحرار، واستغلال الجماهير، فلفّقوا أحاديث على لسان الأنبياء مرغّبين في الخنوع والخضوع والخدمة والاستسلام»[1].

ولكنّ من اطلع على سيَر الأنبياء اطّلاعاً حقاً، أدرك أنهم أرذلوا الفقرَ وألقوا في الجحيم كلّ من دعا إليه من المنافقين، وإلاّ لَما ثار عليهم محافظو زمانهم ولَما التفّ حولهم المستضعَفون!

❀ ❀ ❀

ويقدّم لنا عباقرة العرب الأولون شواهدَ ملء أعمالهم تدلّ على فهمهم العميق لطبيعة العلاقة بين أعمال الفرد ونظام المجتمع، وطبيعة الصلات الوثيقة التي تربط ربطاً دائماً بين فعل الإنسان وأجهزته المادّية. يريدون بذلك أن يقضوا على الخرافة القائلة بفصل الأعمال الروحية، أو النشاط الذهني، فصلاً تامّاً عن الحالة المادّية. يريدون بذلك أن يقضوا على الخرافات المزعجة الشائعة في هذا الشرق منذ كان الشرق، والتي تدور حولَ فكرة واحدة لا تختلف بجوهرها وإن اختلَفت عليها صيَغُ الكلام

(١) «أهل البيت» لمحمد جواد مغنية ص١٤١.

وأساليب التعبير: فكرة القناعة على أنها كنزٌ لا يفنى! أو فكرة الاكتفاء بما يسمّيه أهل الكهانة بـ «الروحانية» دون «متاع الدنيا الزائلة!».

أقول إن عباقرة العرب الأولين قد أدركوا هذه الحقيقة فسعوا في تحطيم الخرافة المزعجة التي ما تزال ترهق شرقنا حتى اليوم: خرافة الدعوة إلى الفقر والاكتفاء بكنز القناعة الذي لا يفنى!! وقد بلغت ببعضهم محاربة الفقر حداً يثير الإعجاب بمقدار ما تثير السخط تلك «الفلسفة» الإفقارية التي يبشّر بها بعض القدّيسين والأولياء! ولَطالما سعوا في تبرئة مُقترف الجريمة إذا كان المجتمع هو المتسبّب في هذه الجريمة، وفي تحليل ما حُرّم إذا كان هذا التحريم علّة في نسبة الإثم إلى غير المتسبّب الحقيقيّ فيه. وإليك هذه الواقعة الرائعة التي أثبتها المفكّر الفذّ خالد محمد خالد في كتابه الجليل «من هنا نبدأ» نرويها بإيجاز:

سرق غلمانٌ لحاطب بن أبي بلعة، ناقةَ رجلٍ من مزينة. واعترفوا بجناياتهم. ورُفع الأمر إلى عمر بن الخطاب. فرأى نفسه أمام جريمة استوفت كل عناصر الإدانة: من سرقة، وسارق، واعتراف لا يشوبه ضغط أو إكراه! فبمَ يقضي؟.

ألقى عمر على وجوه المتّهمين نظرة، ثم تلا قول الله: **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله﴾**[1]. وهمّ عمر أن يأمر بقطع أيديهم. غير أنه عاد يفحص وجوههم من جديد، فماذا رأى؟.

رأى وجوهاً أملقت من الدم، وعيوناً انطفأ فيها كل ومض وبريق، وجسوماً أعياها البؤس والشقاء، فسأل مَن سيّد هؤلاء؟ ائتوني به!.

فلما جاء سيدهم، عبد الرحمن بن حاطب، قال عمر: لقد هممتُ أن أقطع أيدي هؤلاء لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرّم الله عليه، لحلّ له! وايم الله إذا لم أفعل لأغرمنّك

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣٨.

غرامةً توجعك وتزجرك!.

ثم سأل صاحب الناقة المسروقة قائلاً: كم تساوي ناقتك يا مزنيّ؟ فقال: أربعمائة. قال عمر لعبد الرحمن بن حاطب سيد الغلمان المتّهمين: اذهب وأعطهِ ثمانمائة. ومرّةً أخرى ألقى نظرةً نابعة من فطنته ورحمته معاً وقال: أمّا أنتم، فاذهبوا!.

❀ ❀ ❀

أمّا عليّ فسيرتُه حافلةٌ بالسعي في رفْع العوَز عن الناس. ودستوره في الولاية قائمٌ على هذا الأساس. وسوف يجيء تفصيل ذلك في مكانه. لقد زهد الرجل وتقشّف ولكنّه أبى على الناس أن يعيشوا عيش القانعين بالفقر، وإلاّ لَمَا وقف مواقفه المعروفة من أهل الوجاهات ومغتصبي الأموال العامّة، ولَمَا أخذ منهم ما ليس لهم ودفَعها إلى أصحابها أهل العوَز والفاقة.

ويروي الشعبيّ أنه دخل الرحبةَ في الكوفة وهو غلامٌ في غلمان. فإذا هو بعليّ بن أبي طالب قائماً على صبرتَين من ذهبٍ وفضّة. وإذا بعليّ يقسم المال بين الناس حتى لم يبقَ منه شيء، ثم ينصرف ولم يحمل إلى بيته قليلاً أو كثيراً.

ولكنّ عليّاً الذي لم يحمل إلى بيته من المال شيئاً، هو الذي يخاطب كلاًّ من الناس قائلاً له:

ـ «اعملْ لدنياك كأنك تعيش أبداً».

ومسلك الحق في نظر عليّ لا يؤدّي إلى ما هو أجلّ وأعظم من رفْع الحاجة عن الناس. وله في ذلك قولٌ صريحٌ لا يحتمل تأويلاً: «لو سلكتم الحقّ من نهجه لابتهجتْ بكم السبل وما عالَ فيكم عائل ـ أي ما افتقر فيكم فقير!».

وهو إذا هاجم عربَ الجاهلية هاجم فيهم قناعتَهم بزهيد العيش قائلاً:

ـ «وأنتم، معشر العرب، مُنيخون بين حجارةٍ خُشنٍ، تشربون الكدرَ وتأكلون الجَشِبَ ـ أي الطعام الغليظ الفقير».

ويصرّح عليّ أنه لا يأنف الطعامَ الشهيّ والملبسَ الناعم والمسكن الغنيّ. ولكنّه يأنفها وفي الأرض قومٌ فقراء لا يحظون بما يحظى به هو إن فعَل. وفي هذا التصريح دليلٌ على أنه يرغب أوّلَ ما يرغب في أن يوفّر للناس نصيباً كافياً من آلة العيش. وأنه ما دام في الناس من لا عهدَ له بالشبع ولا مطمعَ له بالقُرص، فعلى قائد هؤلاء الناس أن يحمل ما يحملون، ويعاني ما يعانون، حتى إذا زال شبحُ الفقر عنهم زال عنه، وإلاّ فما معنى القيادة وما معنى الولاية؟ يقول عليّ:

ـ «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين، ولا أشاركهم مكاره الدهر؟».

وهكذا، فإن مكاره الدهر تعني عند عليّ: مساوىء الفقر.

وهو لا يمنع عن ابنته أن تتزيّن يوم العيد بعقدٍ من اللؤلؤ إلا لأن عدداً من بنات الآخرين لا يستَطِعْنَ سبيلاً إلى مثل هذا التزيّن. وقد مرّ بنا كيف أنه أمرَ ابنته أن تُعيد العقدَ إلى بيت المال وقد شاءت أن تزيّن به جيدها في أحد الأعياد، قائلاً لها:

ـ «يا بنت ابن أبي طالب، لا تذهبي بنفسكِ عن الحقّ! أكلّ نساء المهاجرين والأنصار يتزيّنّ في مثل هذا العيد بمثل هذا؟».

قال «كل» النساء، ولم يقلْ نساء «الوجهاء» أو «النبلاء»!.

إذن، فمن هنا سيبدأ عليّ ساعة يؤول إليه أمرُ الجماعة من العمل على تيسير الخبز والماء والكساء للناس جميعاً، على أسلوب هو إلى

المناهج الاشتراكية أقرب.

وإنه لمن الطبيعي أن يبدأ عليّ من هنا وهو الذي يلحظ أنّ السياط الموجعة التي يضرب بها الله الناس، كثيرة. غير أن واحداً منها لا يؤلم ويؤذي كهذا السوط المخيف وأعني: الفقر. أوَليس هو صاحب هذا القول الذي يكشف لك عن الإيمان العميق بضرورة رفع الحاجة، وعن الفهم الصحيح لأحوال الناس وطبائع الأشياء ومقدّمات الأمور ونتائجها. أقول أليس هو صاحب هذه الكلمة: «ما ضرب الله عباده بسوطٍ أوجعَ من الفقر!» هذا الفقر الذي زيّنه بعض الزاهدين ودعوا إليه الناس. فأخطأوا وأساؤوا عن قصد أو غير قصد. والذي حاربه الإمام في الناس كما حاربه النبي، وكما حاربه الثائر العظيم أبو ذرّ الغفاري رأس شيعة عليّ وضحيّة بني أمية وأسلوبهم في الحكم والسياسة؟.

لقد أدرك عليّ أن الفقر يتحدّى كلّ فضيلة حتى ليغدو آلة للكفر والجحود. لذلك راح يحارب الفقر في كلّ مجال ويأخذ السبيل عليه ويُخزي كلّ من دعا إليه. فإذا كان المرء فَطِناً فإن «الفقر يُخرس الفطن» في مذهب عليّ. وإذا كان الوطن يريد أن يضمّ أبناء مخلصين محبّين، لا أشتاتاً من الناس متحاسدين مُبغضين يشعرون شعورَ الغريب المستوحش، فعلى هذا الوطن ألاّ يدَع بين أبنائه فقيراً لأن «الفقير غريبٌ في بلده» كما يقول عليّ! وإذا كان الموت أبشع ما يُلمّ بالإنسان من أحداث وجوده، فإنه ـ على لسان عليّ ـ دون الفقر بشاعةً لأن «الفقر هو الموت الأكبر!».

وما أقدس هذا السوط يرفعه عليّ على الفقر وعلى الذين يزيّنونه من المنافقين، فيأكلهم كما يأكل لهيبُ النارِ العُصافةَ الخبيثةَ، ويُحطّم مكايدَهم على عيونهم، إذ يقول:

«لو تمثّلَ لي الفقرُ رجلاً لقتلتُه!».

والمجتمع في نظر ابن أبي طالب جسدٌ واحد لا يجوز أن يجمع

المتناقضات وأن يقوم نظامه على التفاوت في الحقوق والواجبات. لا يجوز في مجتمع ابن أبي طالب أن يُتخم عضوٌ ويجوع آخر. وأن يعمل عضو وتجري المكافأة بالأرزاق لغير العامل. وعلى شدة اهتمام ابن أبي طالب بالسماء، فإن يوماً واحداً لم يمضِ عليه إلاّ ويشغله بالاهتمام بعباد الله على الأرض فلا يهمل من أمورهم يسيراً، وهم أجمل نماذج الخلق الكامل. وذلك تمشّياً مع نظرته العامة إلى الناس والوجود، ووصْلاً لسيرته بسيرة النبي الذي جاء على لسانه القول: **﴿وجعلنا الليل لباساً، وجعلنا النهار معاشاً﴾**[1].

من هنا، وعلى هذا الأساس، اتّجه الإمام عليّ إلى المجتمع يحيي قوانينه ويعمل لها ويريدها صالحة خيّرة. ثم يضع كلاًّ من النصح والسيف في موضعه تدعيماً لآرائه وتثبيتاً لموقفه من طبقات الناس في زمانه. وراح لا يُعنى بشيء عنايته بتوطيد أركانه العدالة الاجتماعية. أوَليس هو القائل لمهنئيه بالولاية فيما بعد، وقد دخلوا عليه فإذا هو يرفأ نعله بيديه: «إن هذا النعل هو خير عندي من ولايتكم هذه إن لم أُقم حقاً وأزهق باطلاً!».

أمّا العاملون للآخرة، فإن الإمام يريد منهم أن يتوسّلوا لنعيمها بخدمة الجماعة قبل غيرها من الوسائل. لذلك جعل الإمام خير الآخرة، لمن يريده، منوطاً بالعمل في الناس عملاً مستقيماً. وفي طليعة هذا العمل: المساهمة في توفير الخبز والماء والكساء للمجموعة البشرية، وفي رفع الحاجة عن العامة ومحاربة الظالمين وإغاثة المظلومين، ثم في إعلان حقوق الناس والدفاع عنها.

دخل الإمام عليّ مرة على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه. فلمّا رأى سعة داره قال له: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في هذه الدنيا؟

---

(١) سورة النبأ، الآيتان ١٠ ـ ١١.

أمَا أنت إليها في الآخرة أحوج؟ وبَلَى، إن شئتَ بلغتَ بها الآخرة: تُقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتُطْلِع منها الحقوق مطالعَها، فإذا أنت قد بلغتَ بها الآخرة!.

ويقول لكميل بن زياد في معنى الصلاة والصوم:

يا كميل، ليس الشأن أن تصلي وتصوم وتتصدق، وإنما الشأن أن تكون الصلاة بقلب نقيّ وعملٍ عند الله مرضيّ، وانظر فيما تصلّي، وعلامَ تصلّي، فإن لم يكن من وجهه وحلّه فلا قبول!».

وإذا كان الفقيه في خدمة العقل والناس، فإن فقيهاً واحداً يفوق في القيمة ألف عابد: «فقيهٌ واحد أشدّ على إبليس من ألف عابد!».

وقد بلغ به اهتمامه بحياة الناس على الأرض، قبل الآخرة، وبخبزهم اليومي، أنه كان يغتدي فجرَ كل نهار ويطوف في أسواق الكوفة وهو خليفة ويقف على أهل كل سوق وينادي قائلاً: «يا معشرَ التجّار، اتّقوا الله، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءَهم، ولا تعيثوا في الأرض مفسدين!».

وروي عن نوف البكالي أنه قال:

أتيتُ أمير المؤمنين وهو في مسجد الكوفة فقلت: عليك السلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام يا نوف ورحمة الله وبركاته.

فقلت له: يا أمير المؤمنين، عِظْني. فقال: أحسنْ إلى الناس يحسن الله إليك.

فقلت: زدني يا أمير المؤمنين. فقال: يا نوف، إن سرّك أن تكون معي يوم القيامة فلا تكنْ للظالمين معيناً!».

فخدمة الإنسان، ورفع الحاجة، وتحطيم الظلم، هي نقطة الانطلاق في سياسة ابن أبي طالب! وقد نظر إليه النبي مرةً وقال له:

«يا عليّ! إن الله قد زيّنك بأحب زينةٍ لديه: وهبَ لك حبّ المستضعفين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً!».

قبْلَ الإمَام

- ما آمن مَن باتَ شبعان وجاره جائع.
- ما أكل أحدُكم طعاماً قطّ خيراً من عمل يده.
- لا يشكر الله من لا يشكر الناس.
- الناس شركاء في ثلاثٍ: في الماء والكلأ والنار.
- مَن احتكر فهو خاطىء، ومَن ظَلَمَ من الأرض شيئاً طُوّقه من سبع أرضين.
- الناس كلّهم سواسيةٌ كأسنان المشط.
- صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام.
- تفكيرُ ساعةٍ واحدة خيرٌ من عبادة سنة.
- الخلق كلّهم عِيالُ الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله.
- الدين المعاملة.
- كونوا عبادَ الله إخواناً.
- الإنسان أخو الإنسان أَحَبَّ أم كره.

النبي

قبل أن نفصّل القول في موقف عليّ بن أبي طالب من المجتمع ونظامه، والإنسان وحقوقه، لا بدّ من إلقاء نظرةٍ عجلى على موقف النبيّ

من هذه الأمور جميعاً، وعلى أسلوبه في أخذ الحياة.

عُنيَ النبيّ بشؤون الناس وقضايا المجتمع، عناية تامة. وتولّى الإسلامُ المعاملات العامّة كما تولّى السلوك الفردي بتوجيهٍ وتشريع. فالإسلام ليس في عزلة عن المجتمع وما يجب له من قوانين. وقد بلغ من اهتمام الإسلام بالمجتمع أنه عدّ كلّ خدمة اجتماعية لوناً من العبادة. بل إن خدمة الجماعة هي فوق إقامة الشعائر الدينية في معنى العبادة الصحيحة والإيمان الخيّر. يقول النبيّ: «صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام». والحادثة التالية كافية في الدلالة على هذا الاتّجاه الصريح في الإسلام. رُوي عن ابن عبد الله أنه قال:

«كنّا مع النبي في سَفَر، فمِنّا الصائم ومنّا المفطر. فنزلنا منزلاً في يومٍ حارّ، أكثرُنا ظلاً صاحبُ الكساء. فمِنّا من يتّقي الشمس بيده. فسقط الصوّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب. فقال الرسول: ذهَبَ المفطرون اليومَ بالأجْر كلّه».

أليس في ذلك دليلٌ قاطع على أن النبي لم يكن ليجيز إقامة الفرائض الدينية على حساب المعاش؟ فما قضية الإفطار والصوم بذات شأن إذا كانت عائقاً دون البناء، ودون خدمة الجماعة، ودون النظر في أسباب البقاء وتنظيم السعي تنظيماً يقتضي التعاون الجماعي. هكذا آثر النبي الإفطار في شهر الصوم مع خدمة الناس، على الصوم في حينه مع العزلة والابتعاد عن العمل المفيد.

ثم، أليس في قول النبيّ: «من رأى منكم مُنكَراً فليغيّره بيده، فمَن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان» إشارة صريحة إلى ضرورة الأخذ بما يفيد الجماعة وينفع الناس، وإلى المسؤولية التي تطال المجتمع والفرد في رفْع ما يسيء.

وهنالك أحاديث نبوية كثيرة تقطع بأن فضل من يخدم الجماعة بسبيلٍ من السبل هو أكثر من فضل العابد الزاهد المصلّي. فإذا كان العالم يأتي المجتمعَ بالخير فلا شك أنه يفضل مليون عابد، في نظر النبي، كما يفضل البدرُ ملايين الكواكب: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب». ويعظّم النبي العقل لأنه القوة المبدعة في اكتشاف ما يفيد الناس على الأرض، تعظيماً لا مزيد عليه إذ يقول: «تفكير ساعة واحدة خيرٌ من عبادة سنة».

ويسير الإسلام في هذه الخطة في الاهتمام بالمجتمع وما ينظمه ويحييه، وفي توجيه الناس إلى الأرض وإلى العمل فيها والاستفادة من خيراتها: **﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾**[١] **﴿والأرض وضعها للأنام﴾**[٢] و**﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾**[٣] هذا، ويجعل الإسلامُ شكر الناس الباب الوحيد الذي يدخله مَن يريد شكر الله. فإن من لا يعرف الناس لا يعرف الله. يقول النبي: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

أما العمل المنتج المفيد، فقد بلغ النبي بتقديسه حداً عظيماً، فإذا هو لا يكتفي بالثناء على العامل، ولا بشكره، ولا بإثابته، بل يقبّل يداً ورمتْ من كثرة العمل ويقول: «تلك يدٌ يحبّها الله ورسوله!».

ومن أجمل ما دلّ به النبيّ على تقديسه العمل المثمر هذه الرواية:

رأى أصحاب النبي رجلاً جلداً قوياً شديد البنية صُلب العضلات يمشي فتمنّوا لو أنه وجّهَ هذه القوة وصرف هذه الشدّة في الجهاد في سبيل

(١) سورة البقرة، الآية ٢٩.
(٢) سورة الرحمن، الآية ١٠.
(٣) سورة الملك، الآية ١٥.

الله فقالوا: «حبّذا لو كان جَلده في سبيل الله!» فقال لهم النبي هذا القول الحكيم: «إن كان خرجَ يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله! وإن كان خرج يسعى على صِبْيَةٍ له صغارٍ فهو في سبيل الله! وإن كان خرج على زوجةٍ يعفُّها عن الحرام فهو في سبيل الله! وإن كان خرج يسعى على نفسه يمنعُها السؤالَ فهو في سبيل الله!».

وتروي كتب الحديث الكثير من أحاديث النبي التي يقدس بها العمل ويكرّم العامل ومنها: «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف». و «ما أكل أحدكم طعاماً قطّ خيراً من عمل يده».

وإذا كان للعمل مثل هذه القيمة، بل هذه القداسة، فعلى العامل أن يتقن ما يعمل. وهو إذا فَعَلَ نفعَ وانتفع وبرّر وجودَه في المجتمع وأحبّه الله وقرّبه إليه. يقول محمد: «إن الله يحبّ إذا عمل أحدُكم عملاً أن يُتقنه».

❀ ❀ ❀

قلنا إن الإسلام يجعل الأرض ذلولاً يمشي في مناكبها الناس ويأكلون من رزقها ويفيدون من خيراتها. ولكنْ ما هو موقفه من توزيع هذه الخيرات التي تفيض بها الأرض؟.

هل هي من حق فئة من الناس دون فئة؟ أم أنها توزع على أساس من الجهد والصنيع والحاجة؟ هل هذه الخيرات احتكارٌ للملوك والأمراء والأثرياء والغاصبين، أم هي حقوق عامة يتعاون المجتمع على توزيعها توزيعاً عادلاً يُمسك عليه بناءَه القويم؟.

ينظر الإسلام إلى الجماعة نظرة منطق وعدل لا يهون بها من الجماعة أحدٌ، ولا يعلو أحدٌ إلاّ بناء على جهد. ولكل جهدٍ مكافأةٌ من واجب المجتمع أن يقرّها. فليس من صفة المجتمع المستقيم أن يجوع فيه العامل ويتخم فيه البطِر الكسول الخدّاع. وليس من صفة المجتمع المستقيم أن

يهون عليه جهد العامل، وأن يأتي الذي لا يعمل بخيرات الأرض، كما هي الحال في المجتمعات القديمة التي سبقت الإسلام. أو كما هي الحال - على باب التعيين - في المجتمع القرشي الجاهل الذي يستغلّ أمويّوه سائر الناس. ونرى أن الإسلام حرّم الترف، بإصرار كثير، في مجتمع يكون معظم أفراده فقراء. حرّم الترف الذي يقابله في الجماعة العوَزُ والحاجة، مدركاً أن هذا الترف، في مثل هذا المجتمع، لا يكون بهذا الجانب إلاّ ليكون الحرمان بالجانب الآخر. وبما أنه ليس من حقّ إنسانٍ ولا من شرَفه أنْ يستثمر جهدَ إنسان، وبما أنّ الترف والإسراف المفرطين لا يتمّان في المجتمع المعْوز إلاّ بهذا الاستثمار، فإنّ النبيّ يسمّي بيوت المترفين بيوت الشياطين: «فلا أراها إلاّ هذه الأقفاص التي تستر الناسَ بالديباج» وفي القرآن: ﴿**وكم أهلكنا من قريةٍ بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً**﴾[1] ويحاربهم القرآن في مكان آخر بهذا القول الرائع العجيب في روعته: ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً**﴾[2]. وكي لا يقوم الغبن إلى جانب الغُنم في المجتمع الواحد، والحاجةُ إلى جانب التخمة، يسعى الإسلام في تهديم الطرق المؤدية إلى هذا الانحراف، وهي ما تنضوي تحت أسماء الاحتكار والاستثمار والاقتطاع والنصب وما إليها. فإنّ النبيّ يحارب هذه الأمور ويُنزلها منزلة المحرمات. أمّا في الاحتكار فيقول: «من احتكر فهو خاطىء» وفي الغصب والاقتطاع يقول، مهدداً بهذا العقاب الرهيب: «من ظلم من الأرض شيئاً طوّقه من سبع أرضين». ويقول أيضاً: «من اقتطع مال امرىء مسلم بغير حق لقي اللّهَ عزّ وجلّ وهو عليه غضبان».

أمّا الاستغلال فكان شكله الظاهر آنذاك: الربا! الربا على أنواعه،

---

(١) سورة القصص، الآية ٥٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٦.

وفيه يقول القرآن: ﴿**لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً**﴾[1]. وفي مكان آخر: ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾[2]. ويمضي في تهديد المرابين والتشديد عليهم منعاً لما قد يجرّه من استغلال الناس للناس. والعدل الاجتماعي يقضي ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾[3]. فكيف تتكوّن طبقة كبار الأثرياء إن لم يكن من النصب واحتكار المنافع وجعْل المال في مقاييس المجتمع مساوياً للإنسان في القيمة والعطاء، أو هو فوق الإنسان! أما الجريمة الاجتماعية الكبرى، فهي أن يتواطأ المحتكرون والحكّام على اغتصاب الشعب وأكل جهوده بالإثم: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون**﴾[4]. ويقول النبيّ: «ما أكلَ أحدكم طعاماً قطّ خيراً من عمل يده». وفي سورة الزلزلة: ﴿**ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره**﴾[5]. و﴿**كل نفسٍ بما كسبت رهينةٌ**﴾[6]. أمّا المال، فبالرغم من أنه مقرّر في ملكية الأفراد، لا يجوز أن يُحبَس في أيدي فئة معيّنة من الناس فتتداوله هذه الفئة وتحتكر به المنافع والجهود وتُذلّ العامة وتحكم به في رقاب العباد. يقول القرآن في المال: ﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾[7].

فالمال، في القرآن والحديث، مال الجماعة أوّلاً. ولا ينال منه الأفراد إلاّ بقدَرٍ آخذٍ من حاجتهم إليه ومن سعيهم في سبيله. لذلك حُرّمَ في الإسلام أن يستغلّ الفردُ جهدَ الآخرين أقلّ استغلال. كما حُرّم أن

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٧٥.
(٣) سورة النجم، الآية ٣٩.
(٤) سورة البقرة، ١٨٨.
(٥) سورة الزلزلة، الآية ٨.
(٦) سورةالمدثر، الآية ٣٨.
(٧) سورة الحشر، الآية ٧.

يجمعَ منه جامعٌ فوق ما يحتاج إليه. وقد جعلَ النبيّ هذين المبدأين أساساً في سياسته المالية، وضربَ لأصحابه الأمثالَ بسيرته وأقواله على ما يجبُ عليهم اتّباعُه من هذا القبيل:

كان في الصحابة رجلٌ عزيزٌ على النبيّ يدعى رفاعة بن زيد، أُصيب في إحدى الغزوات بسهمٍ قاتل. فوفد على النبيّ الوافدون يعزّونه بمقتل رفاعة قائلين: «هنيئاً له، يا رسول الله لقد ذهب شهيداً»، يريدون بذلك أن يُطَمئنوا النبيّ ويخففوا من أساه. غير أنهم أدركوا أن النبيّ لم يخفّ أساه ولم يطمئنّ إلى مصير رفاعة بعد الموت، ساعة أجابهم في أسى:

«كلاّ! إن الشّملة التي أخذها من المغانم يوم خيْبر لتَشتعل عليه ناراً».

لقد مات رفاعة شهيداً. ومع ذلك فهو آثمٌ على لسان النبيّ لأنه أخذ شيئاً قليلاً من أموال الجماعة. وكان عليه ألاّ يأخذ هذه الشّملة اختلاساً، وأن ينتظر توزيع ملك الجماعة عليهم واحداً واحداً فلا ينال أحدُهم إلاّ نصيبه.

وذا شئت أن تنظر في قمة هذا الموقف الذي يقفه الإسلامُ من المستَغلّين والمحتكرين سواءٌ أكان ما استغلّوه واحتكروه كثيراً أو قليلاً، وأن تُرجعه إلى أصوله العميقة، فما عليك إلاّ أن تدرك أن الإسلام يشيد بعظمة الحياة ويعترف بأن الإنسان الحيّ هو مدار هذا الوجود الذي خلقه وضبطه إلهٌ واحد. فكيف يجوز أن يحرم هذا الإنسان حقه في الحياة، ومن أسباب الحياة المعاش. تحرمه إياه عصابةٌ من السفهاء والأغبياء والمتاجرين بالأرزاق والأرواح على بلاهةٍ وخمول كثيرا!.

فالمال، كما يبدو من خلال نظرة النبيّ إليه، ليس إلاّ واسطة لإقامة حدود العيش بالنسبة للكائن الاجتماعي. فالإنسان، إذ قرّر له الكونُ حقّه

في الهواء والنور، قرّر له مثل هذا الحق في خيرات الأرض وهي من مركبات هذا الهواء والنور وما إليهما! وليس لجاره أو لمواطنه أن يحرمه هذا الحق الذي قرّرته له عملية الكون بالذات، استناداً إلى نهجٍ تافهٍ ينهجه في مجتمع سقيم! يقول النبيّ: «الناس شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار». وإذا نظرنا إلى هذا القول، في حدود المطلق، رأينا أن النبيّ يقرر حقيقةً أبديّة أزليّة هي أعمق من كلّ دستور وكلّ قانون، لأنها تصوير لحق الأحياء بالحياة. وإذا نظرنا إلى هذا القول، في حدود الزمان والمكان وما هما مُحتملان من شروط العلاقات العامة، أدركنا أنه إنما يريد اشتراكيةً صريحة في الأموال يكون الحصول منها، على كثيرٍ أو قليل، بمقياس الجهد ثم بمقدار الحاجة! وهو لم يأمر بإشاعة ملكية الماء والكلأ والنار هذا الأمر الصريح، إلاّ لأنها ضرورات الحياة في تلك البيئة العربية الصحراوية القديمة. وإذا كان لهذا المجتمع حاجة في المال، بالإضافة إلى الماء والكلأ والنار، فإنه عند ذاك يكره للمال أن يكون دُولَةً بين الأغنياء.

ولا يقف أمام حصول الفرد على حقه حسبٌ ولا نشأة ولا جنس ولا معتقد ودين. فلكل إنسان ما سعى، أيّاً كان هذا الإنسان. والفرد والجماعة متكافلان في كافة الحقوق. فالفرد إمّا كفل له المجتمع فرصة للعمل، وكفل له حقه في الأجر ضمن نطاقٍ من جهده وطاقته، ثم ضمْن نطاقٍ من حاجته، وهذا أروَع في المعنى الإنساني، وجب على هذا الفرد أن يكون، في دوره، عوناً للجماعة، وأن يكيّف حريّته الفردية بما لا يسيء إلى مواطنيه. فليس للجماعة أن تظلم الفرد. وليس للفرد كذلك أن ينعم بما للجماعة. بل عليه واجبٌ في حماية المصالح العامة لا يقل عن واجبه في حماية مصلحته الخاصة، وهو عن ذلك مسؤول. يقول النبيّ: «كلّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته». ثم إن حرية الفرد لا تعني، في حال من الأحوال، إلحاق الضرر بالجماعة. وقد ضرب النبيّ مثلاً رائعاً لضرر

الحرية الشخصية إذا لم تقيّدها المنفعة العامة قال: «إن قوماً ركبوا في سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع. فنَقَرَ رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنع فيه ما أشاء. فإن أخذوا على يده نجا ونجوا. وإن تركوه هلك وهلكوا». ثم إن هذا الفرد مكلّف، بوصفه عضواً في الجماعة، بأن يزيل المنكَر حيث يكون، مساهمةً منه في رفع المستوى العام: «من رأى منكم منكراً الخ».

ولطالما سعى النبيّ إلى أن يعطي كلّ يومٍ دليلاً على أن الأخلاق العظيمة إنما تقوم بإرشاد الناس بالمسلك لا بالوعظ، وأنّ رحمة الناس تقوم بالعمل لا بالقول. فالنبيّ لم يكن يعيش في معزلٍ عن الناس، بل كان يخالطهم كباراً وصغاراً، ويستمع إليهم، ويؤانسهم، ويخدمهم على نهج العظماء الحقيقيين.

ومن القصص التي يرويها أبو هريرة أنه خرج مرةً في صحبة النبيّ إلى السوق، فأتيا بائعاً اشترى منه النبيّ حاجته وأخذ يوصيه بأن يطلب الحلال من المكسب فلا يحتكر ولا يستَغلّ ولا يدّعي أنّ له من الحقّ في العيش ما ليس لسواه.

وكان البائع يجهل أنّ محدّثه إنما هو النبيّ نفسه. فلما أخبره أبو هريرة بأمره، اضطرب وانحنى على يده يريد تقبيلها. فانتزع محمدٌ يده بشدّة وقال للرجل:

ـ لا تفعلوا ما كان يفعله الأعاجم مع ملوكهم، فإن تقبيل اليد معناه المذلّة لغير الله.

ولمّا حاول أبو هريرة أن يحمل ما اشتراه النبيّ من متاع، نهاه النبيّ، ثم نظر إليه مبتسماً وقال:

ـ خلِّ عنك، فصاحب الشيء أحقّ من الغير بحمله!.

أمّا الأباطرة والملوك فإن الإسلام يسيء بهم الظنّ، بل ينفيهم من المجتمع نفياً مطلقاً، فهم القاسدون المفسدون: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً﴾[1].

وكان أشدّ ما يهول النبيّ من أمر الملوك والسلاطين تلك الغطرسة الفارغة وذاك الاستعلاء التافه، ثم ما يحيطون به أنفسهم وشؤونهم الخاصّة من أشكال المبالغة ومظاهر التهويل. ذلك لأنّ النبيّ كان يقدّس صفة الحياة في الناس جميعاً كما يقدّس كلّ ما يراه حقيقة. وهو يعتبر البساطةَ والطبعيّةَ في القول والعمل ركناً أساسيّاً من أركان الحياة الشريفة الفاضلة. ولطالما كان ينهى أصحابه عن الوقوف له ساعةَ يُقبل عليهم وهم جالسون، مردّداً على أسماعهم ما مفادُه: لا تعاملوني كما تعامل الأعاجم ملوكها!.

ومن أخباره التي تدلّ على كرهه المبالغةَ والتهويل وهما إطارٌ تدور فيه أحلامُ الملوك والسلاطين، أنه لما توفّي ابنه إبراهيم كُسفت الشمسُ صدفةً، فقال الناس: إن السماء قد حزنتْ على ابن النبي. فلمّا بلغ ذلك محمداً، جمع الناس وخطَبَهم قائلاً:

ـ «إن الشمس والقمر آيتانِ من آيات الله لا تُكسفانِ لموت أحد!».

لقد أدرك النبيّ أنّ في المبالغة والتهويل عداوةً لبساطة الحياة الصادقة، وأنّ حب المبالغة والتهويل من صفات الملوك الذين انقطعتْ الصلاةُ الطبيعية الحيّة بينهم وبين الحياة والأحياء، فخطبَ الناس بهذا القول الرائع الذي ينزع به عن إرادة الحياة نفسها وإرادة الكون القائم بما فيه جميعاً لا تُكسفُ شمسه لموت أحد ولا يزول قمرُه!.

ويحضرنا بهذا المجال ما دعا إليه النبيّ من ضرورة أخْذِ الحياة أخذاً

---

(١) سورة النمل، الآية ٣٤.

بسيطاً جميلاً لا تعقيد فيه ولا تكلّف. وإنما يحضرنا ذلك لعلاقته الوثيقة بموضوعنا لأن هذا الأسلوب في أخذ الحياة إنما هو أساس الإسلام كما شاءه النبيّ وكما بَناه. فمَن أمعن النظر في كلّ محتَوَيات الإسلام على تبايُن موضوعاتها، أدرك أنها نابعةٌ جميعاً من أصْل عميقٍ شاملٍ واحد، هو: البساطة التي لا تزييف فيها ولا تمويه، أو قُلْ: هو الصدق مع الحياة!.

ويلخص خالد محمد خالد هذا الأسلوب تلخيصاً جميلاً يقول:

«وإنه ـ أي النبيّ ـ ليخدش أعرابياً ذات مرّة دون عمْد، فيُصرّ على أن يخدشه الأعرابيّ مثلها.

ويقف فوق المنبر في جلالٍ عظيم ليقول لأصحابه الذين يستمعون إليه:

ـ «مَن جلدتُ له ظهراً، فهذا ظهري فلْيَقْتَدْ منه! ومَن كنتُ أخذتُ من ماله شيئاً، فهذا مالي فليأخذ منه!».

إنه لم يجلد في حياته ظهراً، ولكنّه الصدق المطلق مع الحياة يمارسُه محمّد في أنقى صوَره وأوفاها بالذمّة والطهر.

وإذا كانت حياته لم تتلفّع قطّ برياء أو ضعف، فهي كذلك لم تتلفّع قطّ بغرورٍ ولا بكبرياء.

لقد كان يسابق زوجتَه ويخصف نعلَه بيده ويرقع ثوبه بنفسه.

ولقد حلب شاته، وخدم أهله، وحمل الطوب مع أصحابه وربط على بطنه الحجرَ من الجوع!.

وكان إذا سار في الطريق ومعه أصحابه، دعاهم ليتقدّموا عليه. وإذا قدم عليهم وهم جلوسٌ جلس حيث انتهى به المجلس. وكان يقول لهم دائماً حين يدعونه لتكريم خاصّ: «إني أكره أن أتميّز عليكم».

هذا هو الصدق مع الحياة[1].

وفي كل ما رويناه من أخبار النبيّ في هذا الفصل، تصديقٌ لهذه الحقيقة.

أمّا الحكّام فعليهم من الواجبات والمسؤوليات ما يجعل منهم خدَماً للجماعة لا أسياداً طُغاةً عُتاة، ولا لصوصاً محترفين!.

وفي سيرة النبيّ أنّ قوماً أخبروه بأن والياً من الولاة قبل هدية. فاستطلع حقيقة هذا الخبر فثبت لديه ما أُخبر به. فغضب واستدعى الوالي إليه، فلمّا أتاه قال له النبي:

ـ كيف تأخذ ما ليس لك بحقّ؟

فأجاب الوالي معتذراً:

ـ لقد كانت هدية، يا رسول الله.

فأجابه الرسول جواباً فيه كثير من عبقرية الإدراك لمَا يمهّد طريق الرشوة بين المحكوم والحاكم، معطياً جوابه صيغة هذا السؤال:

ـ أرأيتَ لو قعدَ أحدكم في داره ولم نُوَلّه عملاً، أكان الناس يهدونه شيئاً؟.

ثم أمره أن يردّ الهدية إلى بيت مال العامّة. وعزله عن عمله في الحال.

هكذا علّم النبيّ الناس ألاّ يسلكوا إلى حقّهم طريقَ الرشوة. وعلّم الحاكم ألاّ يسلك هذه الطريق مع الناس. كما علّمه أن لا حقّ له بشيء من معاش الناس، وأنه إنّما يحكم الناس ليكون لهم أباً لا ليصبح فيهم لصّاً.

---

(١) «كتاب محمد والمسيح» ص١٦٢ ـ ١٦٣.

وهكذا أظهر نقمته العادلة على الطبقة الحاكمة ساعةً تستغلّ سلطتها حتى في قبول الهدية، فكيف في انتهاب الأموال واحتكار الثروات وهدْر الحقوق وظلم العامّة.

والحاكم في الإسلام لا يكون إلاّ بالاختيار والإجماع. ولا يستمدّ سلطته إلاّ من إرادة العامّة ومن السهر على ما فيه خير الناس ورعايتهم بالتي هي أحسن. ويفرض الإسلام على الحاكم أن يشاور محكوميه في كلّ ما لا يعرف له حلاً مرضياً: **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**[1]. وليس لهذا الحاكم حقٌّ زائدٌ في الملك والمال والقانون. بل إن حقّه المحدّد له لا يُحفَظ إلاّ بمقدار ما يسعى هو في المحافظة على كرامات الناس وحقوقهم من كل ضرب.

ولا يقف الإسلام عند هذا الحدّ من الرغبة في إنصاف الشعب من الحاكم بل يَعْدوه إلى إثارة المستضعَفين والمضطهَدين على من استضعَفَهم واضطهدهم. وينذر القرآنُ بالعذاب أولئك الذين شقوا وأُهينوا وهُدرتْ حقوقُهم وأُكل نصيبُهم واستُثمرت جهودُهم وظلموا، إذا هم تنازلوا عن حقوقهم الطبيعية في العيش ورضوا بهذا الظلم ولم يثوروا، وأذعنوا للضغط أو غيره من أسباب الإساءة، ويسمّيهم **﴿ظالمي أنفسهم﴾**[2].

أمّا النبيّ فيقول:

ـ «مَن قتل دون مظلمته فهو شهيد!».

ويقول في مكانٍ آخر:

ـ «إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب!».

---

(١) سورة الشورى، الآية ٣٨.
(٢) سورة النساء، الآية ٩٧.

أمّا في النطاق الإنساني العامّ، فإن الإسلام يحارب العصبيّة الدينيّة في كثير من أحوالها: **﴿لا إكراه في الدين﴾**[1] ويحارب العصبيّة القبليّة والعنصريّة أشدّ حرب: فـ «الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره» والناس جميعاً إخوةٌ مكرّمون: **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً﴾**[2].

والنبيّ إذا تحدّث إلى الناس تحدّث إليهم جميعاً: إلى العرب والأعاجم، والحمر والبيض، والصفر والسود! تحدّث إليهم بوصفهم إخوةً متعاونين متكافلين تجمع بينهم صفةُ الإنسان وجوهر الإنسانية، ولا تفرّقهم قوميّاتٌ وأجناس، بل يختلف بعضهم عن بعض، ويفضلُ واحدُهم الآخر، بمقدار ما في نفسه من رغبةٍ في الخير. يقول النبيّ:

«أيها الناس، إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد. ليس لعربيّ على عجمي ولا لعجمي على عربيّ ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضلٌ إلاّ بالتقوى! ألاَ فلْيبلّغ الشاهدُ منكم الغائب!».

وما أعظمَ النبيّ ساعةَ يجعل التقوى والإيمان والتديّن جميعاً تدور في نطاقٍ من خدمة الجماعة، وتفقد كلّ معناها ساعة يخلّى صاحبُها العملَ النافعَ، فيقول: «أحسِنْ مجاورة مَن جاورك تكنْ مؤمناً» و «الخلق كلّهم عيال الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله!» و «الدين المعاملة!».

سأل رجلٌ محمداً قال: أيّ الإسلام خير؟ فقال:

«تُطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفتَ ومن لم تعرف!».

فالإسلام، كما يريده النبيّ، يقوم بخدمة الناس وباحترامهم لا فرق

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

فيهم بينَ مسلم وغير مسلم، ولا بين عربي وعجمي، ولا بين أحمر وأبيض، أو بين مَن عرفت ومَن لم تعرف. فصفة الإنسان وحدها كافيةٌ لأن تحملك على حبّ الإنسان وإطعامه ومبادرته بالتحيّة.

ففي الآية ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ يكرّم الله الخلقَ جميعاً ولا يخصّ المسلمين. وفي الأحاديث التي أثبتناها في هذا الفصل أن خير الإسلام هو أن تبسط يدك وقلبك ووجهك لجميع الناس، وأن تحسن جوارهم ومعاملتهم، وتنفعهم وتحبّهم!.

وعن النبيّ خبرٌ عظيم الدلالة على ما أراده للإسلام من معاني الخير القائمة بالخدمة والإغاثة والعمل من أجل الحياة نفْسِها حتّى في البهائم. فقد ساق لأصحابه مرّة هذه القصّة القصيرة قال:

ـ «بينما بغيّ تسير ذات يوم، إذ رأت كلباً يلهث من العطش. فخلعتْ نعلها وأدلته بحبل في بئرٍ وملأته ماء وسقت الكلب. فشَكرَ الله لها وأدخلها الجنّة!».

وإنه لعَظيمٌ حقاً هذا الموقفُ يقفه النبيّ إزاء الحياة إذ يقدّسها مثل هذا التقديس، فيرى أنّ الله يشكر البغيّ ويُدخلها الجنّة إذا هي أروتْ ظمأ بهيمةٍ عطشى، وقد لا يرى مثل هذا الفضل لمجاهدٍ صُرع في ساحة القتال على ما مرّ معنا من خبر رفاعة بن زيد.

ويشدّد النبيّ على مثل هذا المعنى في حديثٍ له يقول:

ـ «دخلتِ امرأةٌ النارَ في هرّةٍ حبستْها. فلا هي أطعمتْها ولا هي تركتْها!».

فإذا كانت البغيّ تدخل الجنّة لأنها أغاثت كلباً. وإذا كانت المرأة التي دخلتِ النار إنما دخلتْها لأنها لم تُطعم هرّة ولم تسقِها ولم تتركها طليقةً ترتزق، فما يكون شأن المحتكرين والمستغلّين الذين ينهبون أموال

الشعب ويمتصّون جهود الطبقات الكادحة! وما يكون شأن الذين يسعون في تفرقة الناس طبقاتٍ اجتماعية واقتصاديّة متباينة يأكل كبيرُها صغيرها أكلاً حقيراً، وإلى طوائف متنافرةٍ متعادية، ثم إلى أجناسٍ يقاتل بعضها بعضاً ويدعو لنفسه بالرفعة والسؤدد دون سواه!.

ما يكون شأن مستعبدي الجماهير وهم بنو آدم الذين فضّلهم الله على كثيرٍ مما خلق تفضيلاً!.

وما يكون شأن قومٍ يعتدون على قومٍ وينهبون خيراتهم ويستعمرون أرضهم ويتبذّخون بجهودهم وهُم إنما خُلقوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا ـ كما جاء في القرآن ـ لا ليتعادوا!.

❀ ❀ ❀

هذه هي الخطوط العامّة لتعاوُن الجنس البشري الواحد في القرآن وفي الحديث.

وقد سار عليها حكّام المسلمين ووُلاتُهم بمنتهى الدقّة في عهدين اثنين. وخالفوها أشدّ مخالفة في عهدين اثنين كذلك. أمّا يوم ساروا عليها، ففي عهد النبيّ وخلافة أبو بكر الصّدِّيق وعمر بن الخطاب ثم في خلافة الإمام عليّ. أما يوم خالفوها ففي عهد عثمان الذي استغلّ أنسباؤه الأمويون لينَ جانبه وتستّروا به. ثم في العهود التي جاءت بعد الإمام عليّ، وهي العصور الأموية فالعباسيّة في الشام وبغداد باستثناء المدة الوجيزة التي استخلف فيها عمر بن عبد العزيز: الشخصيّة الأمويّة الفذّة، وباستثناء بعض الفترات القلائل التي كانت تمرّ في تلك الأعصُر مروراً عاجلاً فلا يستقيم لها أن تفعل كثيراً.

❀ ❀ ❀

أمّا عهد عثمان بن عفان، وهو الذي يعنينا طويلاً في أبحاثنا اللاحقة، فقد تحوّلت فيه مقاييس الحكم عمّا كانت عليه فيما سبق، إذ استولى بنو أميّة على الأرض والمال والناس واحتكروا الأرزاق العامّة. وكان الخليفة الثالث من مراعاة الرحم على ما أفسح لهم في المجال لأن يخرجوا بالخلافة عن وجهها الإنساني ويمهّدوا لتحويلها إلى ملكٍ أموي خالص. وسوف يأتي تفصيل ذلك في مكانه.

وبعد مضيّ زمنٍ آل الأمر إلى عليّ بن أبي طالب الذي استلم الحكم على أثر ثورةٍ شعبيّة لها كلّ معاني الثورة من أسبابٍ وأهداف، فكيف أدرك ابنُ أبي طالب الولاية، وماذا كان من أمره؟.

الولاية مِنَ الجَماعَة

- لا صواب مع ترك المشورة.
- إنَّما أنا رجلٌ منكم، لي ما لكم وعليَّ ما عليكم.
- والزموا السوادَ الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة.
- قلوب الرعيّة خزائن راعيها، فما أودَعها من عدلٍ أو جورٍ وجدَه فيها.

علي

- وقال قولاً موجَزاً بليغاً، بسيطاً عميقاً كالحقيقة نفسها، حتى لَكأنَّه ومضةُ العقل وهتفة الروح:
- «واعجباه! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة!».

كانت الخلافة قبل أن تؤول إلى ابن أبي طالب آخذةً بالتحوّل إلى ملك أموي، كما تقدم. أو أنها قد تحوّلت إلى ملك أمويّ بالفعل! وكان وُلاة الأمر والوزراء والمستوزرون قد تعوّدوا الولاية على أنّها حقّ لهم يعود بأسبابه إلى الحسب والنشأة وإلى ما يُبذَل في تثبيته من أموال ورشوات، ومداورات ومساومات. كما كانوا قد تعودوا أن ينظروا إلى حقوق الشعب على أنها منوطة بإرادة الوُلاة مهما كان شأن هذه الإرادة في مقاييس الخير والشر. فالجماهير المستضعَفة لم تكن في نظر أولئك القوم إلاّ ظهوراً تُعَرّى لتصبح مراعي للسّياط ومرافعَ للأثقال.

أضف إلى ذلك أن خلافة عثمان قد أتاحت الفرصة لهؤلاء الولاة ومعظمهم من بني أمية، أو من أنصارهم النازعين منزعَهم في النظر إلى الأمور، لأنْ يعملوا في أنحاء البلاد المرتبطة بالخلافة على إعداد العدّة كاملةً لتشييد ملك أمويّ تدعمه الأموال والرشوات والمساومات وإطلاق أيدي النافذين في مقدّرات العامة وفي رقابهم، وفي ابتياع الجيوش المحاربة بثمنٍ منقود أو موعود. ثم في تقريب من تُرجى منهم المناصرة وإبعاد من لا يناصرون. فإذا الدولة منقسمة على هذه القواعد الجديدة يستحدثها الأمويون الذين ما كانوا في الإسلام، بشهادة التاريخ، إلاّ ما كانوا في الجاهلية. وإذا معظم النافذين يخذلون إلاّ مَن وسّعَ لهم في الاحتكار والاستغلال والحكم، وجَعل في أيديهم مفتاحَ بيت المال وسيف السلطان، وقَدّمَ لهم الشعب في جملة ما قدّم فأصبح مما ملكتْ أيمانهم. وإذا الشعب بين مؤمنٍ بالخير العام قانع بنصرة الحاكم العادل وإن لم يُجرِ عليه الرزقَ أنهاراً. وبين مرتدّ مع المرتدّين قابعٍ يتربّص بالعدل والعادلين حتى إذا ثار طلاّب الملك ساوم، فساند إذا ربح، أو عاد يساوم من جديد ويساند.



آلت الخلافة إلى ابن أبي طالب والدنيا على هذه الحال، والقوم سائرون في ما هم سائرون فيه: فإمّا استماتةٌ في مناصرة الخلافة في شخص الإمام الذي يعرفون عدله وميله إلى العامّة، وإما إفراط في مساندة الملك في العنصر الأموي الذي يأبى إلاّ استعادة أمجاده الجاهلية مهما توعّرت الطريق وتهشّم فيها من الضحايا. وهو لم يكن ليأبه للخلافة تصير إليه وقد ساهم أجلّ مساهمة في إدارة شؤونها بعهدَي أبي بكر وعمر، ونَصَح إلى عثمان في عهده، وما شكا من البيعة تذهب إليهم عنه وما اهتمّ مرةً إلاّ بإقامة الحق. يدلّك على أن علياً لم يكن ليأبه للخلافة تصير إليه أو تذهب

عنه، وعلى أنه لم يكن ليريدها يومذاك وقد أرادوه لها، شهودٌ من التاريخ وشهودٌ من قوله. فمن كلامه يومَ أُريدَ على البيعة بعد مقتل عثمان: «دعوني والتمسوا غيري. وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمَعُكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم مني أميراً».

لم يكن ليرضى بالخلافة يومذاك لأنه يريد لها وجهاً والقوم يريدون لها وجهاً آخر. فما هو منهم بها، ولا هم منه! ولأنه كان، كما قال، «في دهر عنود وزمن كؤود يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم عتوّاً». ولأن «الآفاق قد أغامت والمحجّة قد تنكرت، والناس يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات. صُمٌّ ذوو أسماع، وبكمٌ ذوو كلام، وعميٌ ذوو أبصار. لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء». ولأنّ القوم لن يحتملوا منه أن يجيبهم فيركب منهم ما يعلم، وألاّ يصغي منهم إلى عتب العاتب وقول الراغب!.

هذه هي حقيقة الحال التي مرّ بها الإمام عليّ في الأيام القلائل التي تلت مقتل عثمان وسبقت استخلافه والقوم يبايعون له ويلحّون، ويتردد هو في قبول البيعة والوجهاء والنافذون على غير ما يريدهم عليه من الرغبة في الخير. غير أن هنالك ما يحمل ابن أبي طالب على أن يقبل بما أرادوا له من البيعة. فالعدالة الاجتماعية في خطر. والناس يأكل قويّهم ضعيفَهم وقد أُطلقت أيدي النافذين منهم والحاكمين في الأرزاق والأعناق. والأثرياء والنبلاء يتحلّبون شهوةً لاقتطاع الأرض واحتكار الخيرات وابتلاع الناس! فأنّى له أن يمكث بعيداً عن مركز القيادة والحالة هذه الحال، والأمور قد تصبح في جملتها، بعد قليل، في أيدي «أغيلمة من قريش» على حدّ تعبير النبي؟ وهذه الفئة القليلة قد أذلّت الجماعةَ والسواد الأعظم، والجماعة في نظر عليّ تَلزمها يدُ الله: «والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة». إذن، فقبول البيعة واجبٌ عليه وإن كلّفه هذا من التحمّل ما لا طاقة عليه

لمحسنٍ «في زمن كؤود يُعدّ المحسن فيه مسيئاً!».

يقول عليّ «ولكنّ أسفاً يعتريني وجزَعاً يريبني، من أن يليَ هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها، فيتّخذون مال الله دُوَلاً، وعباد الله خوَلاً، والصالحين حرباً، والقاسطين حزباً».

وكان علي بطبعه ينفر من العزلة إذا لم تكن العزلة نفسها في خدمة الجماعة. فالإنسان إمّا اعتزل وهو قادر على خدمة الناس، أنكر ذاته. كما جحد الغاية من وجوده في مجتمع يريد من أفراده أن يتعاونوا في الخير ويتساندوا في المعروف. وأصبح عليّ إمام الناس. ولكي نفهم حكومة عليّ وسياسته الاقتصادية والمالية والاجتماعية، لا بدّ أن نعود بها إلى أصْل واحد لديه، هو: أسلوبه في فهم الولاية مصدراً وغاية.

❀ ❀ ❀

لم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب حقاً يوليه الله بشراً فيستأثر به ويدوم عليه ما شاء هو وما شاء له ذلك المتنفذون والأقربون، كما أصبحت فيما بعد في ملك بني أمية وبني العباس، وكما كانت في تاريخ أوروبا الوسيط إذ عرّفوا الوالي ـ أو الملك ـ بأنه ظلّ الله على الأرض، وبأن إرادته هي إرادة خالق السماء لا يُنظَر فيها إلى ما يجوز وما لا يجوز! بل إن الولاية في نظره هي من الجماعة تُولي من تشاء وتخلع من تشاء إثابةً على إحسانٍ وعقاباً على إساءة. يقول عليّ: «فإن ولّوك في عافية وأجمعوا عليك فقمْ في أمرهم. وإن اختلفوا فدعْهم وما هم فيه. ويقول أيضاً: «انظروا، فإن أنكرتم فأنكروا. وإن عرفتم فآزروا. حقّ وباطل، ولكلٍّ أهل!».

أمّا سلطة الوالي فمستَمَدّة من القيام بتنفيذ الشرائع الاجتماعية الأكثر صلاحاً. يقول عليّ في خطبة البيعة: «أيها الناس، إنما أنا رجل منكم لي

ما لكم. وعليّ ما عليكم. والحق لا يُبطله شيء». ويقول في خطبة أخرى: «أيها الناس، إني والله لا أحثكم على طاعةٍ إلاّ أسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن مَعْصيةٍ إلاّ أتناهى قبلكم عنها».

إذن، فالحاكم لا يطاع لذاته بل لعدالته وتنفيذه للشرائع الاجتماعية الخيّرة!.

ولم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب باباً يلجُه الوالي إلى الخيرات ينال منها ما يُتم ثم يقسمها بين الأهل والأقارب والإخوان، والأنصار والأعوان. إنما الولاية باب يلجُه الوالي إلى إنصاف الناس ولإقامة أقصى ما يمكن أن يقام من أسباب المساواة بينهم، والإثابة على البَلاء بقدر البلاء، والمنع من الاحتكار والاستغلال جهدَ ما يحتمل الزمان، وملازمة الحق ولو كانت هذه الملازمة طريقاً إلى هلاك الوالي على أيدي المفسدين، ثم توجيه الضمائر والعقول إلى الخير توجيهاً له أصول وقواعد ثابتة في خلق الوالي وفي مسلكه!، بعث عليّ، فيما بعد، إلى بعض عماله يقول: «أمّا بعد، فلا يكن حظك في ولايتك مالاً تستفيده، ولا غيظاً تشفيه، ولكنْ إماتة باطل، وإحياء حقّ».

الولاية في نظر عليّ إنصافُ الجماعة من الفئة الباغية لأن «يد الله مع الجماعة». وهي لا بالصحابة تقوم ولا بالقرابة؛ وإنّ علياً ليعجب من هذا المنطق في فهم الخلافة فيقول قولاً موجزاً بليغاً، بسيطاً عميقاً كالحقيقة نفسها، حتى لكأنّه ومضة العقل وهتفة الروح: «واعجباه! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة!».

لم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب حسباً تُشيّد عليه الأمجاد ولا شرفاً قديماً تُبنى له العروش ويُتوسّلُ به إلى استعباد الناس. فإنه «لا حسب كالتواضع ولا شرف كالعلم» و«الكرم أعطف من الرحم!» ولم تكن قهراً مادياً تخضع به الجماعات للسيف والنار وقطع الأرزاق وهدر الدماء! ولا

قهراً معنوياً تخضع به الجماعات للوالي بالترهيب أو الترغيب، وهو الإمام الذي عبد ربه لا رغبةً في ثوابه ولا خوفاً من عقابه، بل لأنه يستحق العبادة. إنما كانت توجّهاً إلى الضمير الفردي برعاية الخير، وإلى الضمير الاجتماعي، والضمير الإنساني، ثم مخاطبةً لعقل الجماعة الذي يرى فيحكم، فيقضي للوالي بأعماله، أو عليه.

ولم تكن الولاية استبداداً في الرأي بعد استتباب الأمر. فالشورى أولى. وللجماعة الحقّ ملء الحقّ في أن يطالبوا الوالي «بألاّ يحتجز دونهم سرّاً ولا يطوي دونهم أمراً» إلاّ في ما كان احتجازه وطيّه إلى حين، من مصلحة الجماعة بالذات.

وللجماعة الحقّ ملء الحقّ أيضاً في أن يدركوا واليهم بالرأي في كلّ ما يعود عليهم بالخير. وعلى الوالي ملء الواجب في أن يستقبل وجوه الآراء جميعاً لعلّ في هذه الآراء ما لم يخطر بباله أو يهجس به ضميره أو يبلغه علمُه. ذلك لأن «من استقبل وجوه الآراء ـ كما يقول عليّ ـ عرف مواقع الخطأ». ومن عرف مواقع الخطأ أمكنه أن ينفذ إلى الصواب. فآراء الجماعة ضرورةٌ يُفيد منها الوالي في معنى ولايته وتفيد منها الجماعة في معنى التولّي عليها. وهي، على كل حال، تحسم الأمور على صورةٍ لا يقع بعدها ندَم. ويعترف عليّ بهذه الحقائق اعترافاً لا يقبل تأويلاً إذ يقول: «لا صواب مع ترك المشورة». وليس من صفة الوالي في شيء أن يحيط أعماله بالغموض وأن يتستّر توسّلاً إلى بلوغ حاجةٍ من الحاجات خفيةً عن الخلق. لذلك يتوجّه عليّ إلى الناس ليدلّهم على هذا الحقّ من حقوقهم قائلاً: «واستصبحوا من شعلةِ مصباحٍ واضحٍ!».

لم تكن الخلافة في مذهب ابن أبي طالب بعداً عن الناس وانصرافاً عن الشعب ودنوّاً من الكِبْر واحتجاباً عن النظر في الأحوال العامّة وحاجات الأفراد والجماعات. بل إنها سببٌ في تقريب الوالي من الناس

وعطفه عليهم وتواضعه لهم، ثم انصرافٌ تامّ إليهم لا عذرَ يُقبَل دونه ولا حجّة.

والناس إن سخطوا على الوالي بسببٍ من هذه الأسباب جميعاً لا بدّ أن يثقل عليه أمرُهم كما ثقل عليهم أمرُه، لأن موقفهم منه يجب أن يكون صورةً عن موقفه منهم. وفي ذلك يقول عليّ: «قلوب الرعيّة خزائن راعيها، فما أودعها من عدلٍ أو جور، وجدَه فيها!».

ولم تكن الولاية في مذهب ابن أبي طالب عصبيّةً لأن التعصّب مذموم إلاّ إذا كان «لمكارم الخصال والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي وإنصاف الخلق واجتناب الفساد في الأرض».

والولاية، على كلّ حال، ليست في مذهب ابن أبي طالب لأولئك الذين يقول فيهم: «لو وُلّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وقيصر!» والذين هم «من أهل المكر والغدر» و «أولي الجور والظلم» و «أكَلَة الرّشا!» والذين يقدّم الطعام - في ولايتهم - إلى شبعان!».

لذلك كلّه لم يقبل عليّ بالخلافة إلاّ معتزماً أن يقيم حقاً ويزهق باطلاً وإلاّ فمفارقة الحياة أولى!.

وهو لذلك وغير ذلك يهيب بالناس أن يحاسبوا وُلاتَهم ويراقبوا أعمالهم. وبألاّ يقبلوا بوالٍ إن لم يكن خادماً لهم. وبأن يُبدوا السخط إذا شاؤوا وأن يُبدوا الرضا. فيقول لهم: «ألاّ تسخطون وتنقمون أنّ يتولّى عليكم السفهاء... فتُعمّوا بالذلّ وتقرّوا بالخسف ويكون نصيبكم الخسران!» بل إنه يضع السخط من الجور موضعَ المقابلة مع الرضا بالعدل، في قولٍ حكيم: «إنما يجمع الناسَ الرضا والسخط: فمَن رضي أمراً فقد دخل فيه. ومن سخط فقد خرج منه».

وهو لذلك ولغير ذلك لن يوصي بالخلافة بعده لأحدٍ لأن الأمر يجب

أن يُناط بالجماعة وحدها. فإذا هم طلبوا إليه أن يستخلف ابنه الحسن بعده، أبى وقال هذا القول الذي تنتهي إليه المكارمُ في صفات الحاكم والوالي كما تنتهي إليه صراحةُ الاعتراف بالحريّات العامّة وبحقوق الناس في تسيير أمورهم على ما يعلمون ويختارون: «لا آمرُكم ولا أنهاكم، أنتم أعلم!».

فلماذا يأمرهم باستخلاف ابنه إذا هم أنكروه؟.

ولماذا ينهاهم عنه إذا هم وجدوا فيه مَن يرضون عنه!.

أوَليسوا، هم في الحالتين أعلم بأحوالهم وحاجاتهم وشؤون مجتمعهم؟.

أوَليس لهم وحدهم الحقّ في تقرير ما يودّون أن يصيروا إليه؟.

أقول إنها الغاية التي ينتهي إليها احترام حريّة الجماعة وتقرير حقّ الإنسان في ولاية نفسه. وقد بلغ بعليّ احترامُ حريّات الناس أنْ أباح لهم الحريّة حتى في ما يتعلّق بموالاتهم إيّاه أو باعتزالهم عنه. وذلك بعد أن والاه السواد الأعظم وأصبح اعتزال فريقٍ منهم إنكاراً لحقّ الجماعة في مَن يولّون عليهم.

فهو يأبى كل ما يأتي عن طريق الضغط أو الإكراه. من ذلك ما كان من أمره مع نفرٍ أبوا أن يبايعوا. فهو لم يحترْ ولم يرتبك. ولم يُكرِه ولم يغفل عمّا قد يسيء إلى إرادة الجماعة في وقتٍ معاً. فأباح لهؤلاء أن يلزموا رأيهم ثم أن يفرغوا من أمر الناس اعترافاً منه بحق الأفراد والجماعة في نطاق واحد. وتفصيل ذلك أنّ سعد بن أبي وقّاص، وهو أحد أصحاب الشورى، أبى أن يبايع، فتركه عليّ وشأنه بعد أن قال لعليّ: ما عليك مني من بأس.

ومن هؤلاء النَفَر أيضاً عبد الله بن عمر، فقد أبى عبد الله أن يبايع،

فطلب عليّ من يكفله لئلاّ يثير الفتنة. فأبى أن يقدّم كفيلاً. فقال له عليّ: ما علمتُك إلاّ سيّىء الخلق صغيراً وكبيراً. ثم قال: خلّوه وأنا كفيله! وأبى البيعة قومٌ آخرون، فخلّى عليّ بينهم وبين ما أرادوا شرط أن يعتزلوا الفتنة فلا يُسيئوا إلى إرادة السواد الأعظم. وشاءَ قوم من الثائرين أن يُكرهوا المتخلّفين عن البيعة فيحملوهم قسراً عليها، فأبى عليّ ذلك أشدّ إباء. لقد كانت قاعدته العامة في شأن البيعة مستندة إلى هذه الحقيقة التي يراها ويعبّر عنها بقوله: «فمَن بايع طائعاً قبلتُ منه، ومن أبى تركتُه». فحريّة الأفراد مكفولة في حكومة عليّ إلاّ إذا ألحقت الأذى بحريّة الجماعة. لذلك لم يترك هذه الحرّية للزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومعاوية بن أبي سفيان وقد تركها لسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما من الذين أبوا أن يبايعوا. فأولئك الثلاثة طامحون إلى ولاية الأمر لِمَا تضمَن لهم هذه الولاية من ثروة ومجد وسلطان. فهم لذلك ثائرون على الخليفة الجديد إن لم يكن اليوم فغداً. وهم لذلك عامدون إلى الفتنة وشقّ الصفوف والاستئثار بما الناس فيه أُسْوة. ثم إنْ لهؤلاء الثلاثة قوّى من الأموال والجنود تُيسّر لهم أسباب الفتنة. لذلك لم يتركهم عليّ وشأنهم. وسوف نتبيّن صدق نظرة الإمام إلى هؤلاء في باب «المؤامرة الكبرى على الإمام».

إذن، فالولاية من الجماعة؛ ولا إكراه على البيعة إلاّ إذا اقتضت مصلحة الجماعة، لا مصلحة الوالي، هذا الإكراه. وهو أجلّ المفاهيم لعلاقة الحاكم بالمحكوم، في ما يتعلّق بحرية القول والعمل. وكان من الطبيعي، والحالة هذه، أن يربط ابن أبي طالب وُلاتَه وعمّاله بالشعب بمثل ما ارتبط به هو. فكان شديد المراقبة لهم على ما سنراه في حينه، يشدّد عليهم في كل ما يلزمهم من رعاية الحقوق العامة. وقد خطا في ذلك خطوة رائعة تنسجم مع دستوره العام في الحقوق والواجبات، وتنسجم

كذلك مع أرقى دساتير الأمم الحاضرة، وهي أنه جعل من المحكوم نفسه رقيباً أعلى على الحاكم ومصدراً لأسلوبه في الحكم. فكان إذا ولّى أحدهم إقليماً من الأقاليم، أو مدينة من المدن، أعطاه عهداً يقرأه على الناس. فإذا أقرّه الناس بعد أن يقرأ عليهم العهد، كان هذا العهد عقداً بينهم وبينه لا يجوز لهم أن ينحرفوا عنه، ولا يجوز للحاكم أن يتأوّله أو يخالفه في كثيرٍ أو قليل. أما إذا انحرف عنه، فإن عليّاً يوجب عليه العقوبة وينفذها فيه من فوره.

الحُريَّة وَينابيعُهَا

- لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً.
- وقد أننتُ لك أن تكون من أمركَ على ما بدا لك.
- ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مُكرَهين.
- فبايعاني على هذا الأمر، ولو أبَيَا لم أُكرِهما كما لم أُكرِهْ غيرهما.

عليّ

هذا الإيمان الأصيل العميق بالحرية، تَلْقاه في الأسُس التي قامت عليها مناهج عليّ في الحكومة والسياسة والإدارة. وهو بوحيها فَصّلَ وأجملَ، وأمرَ ونهى، وسالمَ وحارب، وعزل وأثبت، وخالط الناس، وعامل وُلْدَه، وعبد ربه! أمّا نظرته إلى الحرية فمستقاة من نظرته العامة إلى الكون، وإلى المجتمع: قطب هذا الوجود المتحرك في طريق الخير الأعلى!

أما معاني هذه الحرية فتنبع من العلاقات التي يرتبط بها أبناء المجتمع، بقدر ما تنبع من الضمائر والوجدانات. ولها أركانٌ هنا وأركانٌ هناك، ولا تقوم مقاييسها إلا عليها جميعاً. هكذا يقرِّر العقل والتجربة، وهكذا يقرّر ابن أبي طالب!

أما العلاقات التي يرتبط بها أبناء المجتمع، وهم ذوو صفتين فردية واجتماعية، فقد وقف الإمام سياسته وحكومته وإدارته على تجويدها بما يمكّن للناس من العيش الكريم، ويهبهم الفرصة للانطلاق في ميدان الحرية بأمتع أشكالها ومعانيها، وللامتداد في الأفق الإنساني الوسيع!

أول مسلك في هذا النطاق لابن أبي طالب، كان أن عالن الناس بمسؤوليته في إقامة ما هو حق وتهديم ما هو باطل إعفاء لهم من محاولةٍ فاشلة قد يفكرون باللجوء إليها لمعصيةٍ أو إثم فردي، مستشفعين لذلك بمودّةٍ أو قرابةٍ أو مناصرةٍ يراد بها أجرٌ يُلحق الغبن بالجماعة! ثم إنه قدّم، لتقرير هذه المسؤولية، إرهاصاتٍ من قوله وعمله قبل الخلافة وبعدها. وأرى القوم مسلكاً ذا وجهٍ إيجابي يقوم بالتوجيه إلى الخير وبالعمل على تركيز أسبابه والدوافع إليه. ومسلكاً آخر ذا وجه سلبي يقوم بالشدّة في إقامة الحدود مع الأبعدين والأقربين وفيهم خصمُه وأخوه. ثم إنه مطمئنّ إلى ما يعرفه الناس، كل الناس، من زهده وتعفّفه، والتزامه ما لا يلزم من أسباب الزهد والتعفّف. وما ذاك إلاّ إمعاناً منه في تجريد الذات إلاّ ممّا يُمسك عليها الحياة المتيقظة لرعاية الحق؛ وإمعاناً في رعاية المستضعفين بالشعور والوجدان إلى جانب ما هو عازم عليه من السعي في رفْع الجور عنهم، ورفع الحاجة بما هو من باب الحق لا من باب الجود والإحسان! مطمئنّ إلى نفسه وهو يأبى أن يُدَلّ الطريقَ إلى مصفّى العسل وفي الشعب مَن لا عهدَ له بقرص الشعير، وأنْ يُدلّ الطريقَ إلى نسائج القزّ وفي الشعب مَن لا طمع له بالطمر المرقّع؛ وأن يقال أمير المؤمنين ولا يشاركهم مكاره الدهر!

لقد حرّر عليّ نفسه مما تقيّد به وُلاةُ زمانه من أغلال الإشادة بالحسب والنسب! وحرّر نفسه من المطمع في الملك والمال والجاه والكِبْر والاستعلاء! وحرّر نفسه من العرف إنْ لم يدُر في نطاق العقل السليم

والحاجة الاجتماعية والشوق الإنساني الخيّر! وحرّرها من تخصيص ذويه ومحبيه بما ينفعهم دون سواهم، ومن الحقد على أخصامه والانتقام من مبغضيه! وحرر ضميره من كلّ مناجاةٍ بعملٍ لا يثق بصلاحه أو قول لا يرضاه، فكان الضمير العملاق! ثم حرر جسده من شهوة المأكل والمشرب والملبس والمسكن إلاّ ما كان من الضرورات البديهية القاهرة. وهو لم يكن ليتناول ثمناً لهذه الضرورات من بيت المال العامّ على حقّه في الحصول على نصيبٍ منه كبعض نصيب عمّاله وولاته على الأقلّ. فتُحدّثنا الرواية الثابتة أنه ربما باع سيفه ودرعه وأمتعته ليأكل وبنيه بأثمانها، فيما كان يوسّع على العمال والولاة كي لا يضطرّوا إلى قبول الرشوة مما يؤدي إلى ظلم الحقّ ومسايرة الباطل!

حرّر الإمام عليّ نفسه من هذه الأمور جميعاً ليتمّ له أن يتفلّت من كلّ قيد يحول بينه وبين العدل على الصديق والعدوّ معاً. ويوجز، هو نفسه، حالته هذه بقوله: «من ترك الشهوات كان حرّاً».

أمّا تقواه فما كانت إلا تقوى الأحرار، يؤمنون فيعملون بوحي ما يؤمنون به لا تظاهُر هناك ولا مواربة! لا خشية من عقاب ولا طمع في ثواب!

أمّا ضمان الحرّية للناس، فيقوم في الدرجة الأولى على العمل. وقد أنزل الإمامُ الجسدَ العامل من الأرض منزلة القلب الكريم من الجنّة فقال في الطيبين: «قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل». ويقوم نفع العمل بإثابة العامل بما يعمل، على ما سيأتي بيانه بالتفصيل.

وإعلاءً منه لشأن الحرية، والعمل الحرّ، اشترط ألاّ يُجبرَ عاملٌ على عمل. فالعمل الذي لا يواكبه الرضا الوجداني العميق، فيه إساءة إلى الحرية ثم إلى العمل ذاته. يقول: «ولست أرى أنْ أجبر أحداً على عملٍ يكرهه». ويكتفي للحثّ على العمل الذي يفيد الجماعة، وللمحافظة على الحرية

الفردية في وقت واحد، بأن يجعل نتيجة العمل من حق العامل وحده، وبأن يحرم مَن كرهه لغير مبرّر مقبول: «والنهرُ لمن عمل دون من كرِهَه».

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أمرٍ ذي خطر في نطاقِ هذا البحث. فلو استعرض المرء لفظة الحرية في ذلك العصر لمَا وجدَ لها مدلولها الواسع العام إلاّ في نهج الإمام عليّ. فإن كلمة الحرية ومشتقاتها جميعاً، لم يكنْ لها من المدلول في عصر الإمام إلا ما يقوم منها في معارضة الرقّ. فالحرية ضد العبودية، والحرّ ضد العبد أو الرقيق. فلو نظرنا في المدلول الصحيح لكلمة عمر بن الخطاب المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتْهم أمهاتهم أحراراً» لرأينا أن صيغة هذه العبارة، والظرفَ الذي قيلت فيه، والدوافعَ التي أهابت بابن الخطاب إلى قولها، تتفق جميعاً على أن عمر لا يعني بالأحرار إلاّ أولئك الذين ليسوا عبيداً يباعون ويشترون.

أما لفظة «الأحرار» التي تعني أصحاب الحق في القول الحر والعمل الحر، فليست تلك التي يوردها ابن الخطاب في عبارته هذه. تضيف إلى ذلك دليلاً آخر، هو أن عمر توجّه بقوله هذا إلى الذين يستعبدون الناس فيأمرهم بألاّ يسترقّوا مَن ولدتْهم أمهاتهم أحراراً. وهو لم يتوجه بقوله هذا إلى الأرقّاء أنفسهم فيأمرهم بأن يثوروا على مستعبديهم شراءً وبيعاً. إذن، فالأمر منوط بإرادة الأسياد في كلمة عمر، والنصيحة موجّهة إليهم وحدهم، والأفضل ألاّ يسترقّوا المستضعفين من الناس.

أما عند عليّ بن أبي طالب فالأمر غير ذلك. ومفهوم الحرية أوسع وأعمّ. نستدلّ على ذلك بنصٍّ صريح له، أولاً، ثم بما نستنبطه من دستوره العامّ الذي نرى منه وجوهاً في معظم أقواله وعهوده ووصاياه. فإزاءَ كلمة عمر التي أشرنا إليها، يقول عليّ نصاً: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً». فانظر كيف توجّه عليّ بقوله إلى مَن يريده أن يثق بنفسه ويستشعر روح الحرية ومعناها، فألقى في نفسه ما يوقظه على أصلٍ من أصول

وجوده، وهو أن طبيعة الكون جعلته حرّاً لا يتمرّد ولا يُطيع ولا يعمل ولا يقول إلاّ على أساسٍ من هذا الحق الطبيعي. وهو بذلك إنما يلقي في نفسه بذور الثورة على كل ما من شأنه أنْ يضيّق عليه ويسلبه حقّه في أن يكون حرّاً.

ولا يظنّنّ القارىء أن الفرق بسيط بين كلمة عمر بن الخطاب إذ يتوجّه إلى الأسياد فيأمرهم بألاّ يستعبدوا أحداً، وبين كلمة عليّ بن أبي طالب إذ يتوجّه إلى الكافّة فيخبرهم بأنهم أحرار، ويجعل الأمر مرهوناً بإرادتهم هم، لا بإرادة الأسياد إذا شاؤوا استعبدوا وإذا شاؤوا أعتقوا. فالفرق في نظرنا شاسعٌ عظيم. وهو فرقٌ يتناول الأصول لا الفروع. ويشير إلى عمق نظرة الإمام عليّ إلى مفهوم الحرية. فالحرية، في نصّه هذا، نابعة من أصولها الطبيعية: من الناس الذين لهم وحدهم الحقّ في أن يقرّروا مصيرهم استناداً إلى أنهم أحرارٌ حقًّا لا رأيَ في ذلك لمن يريد أن يسلبهم هذه الحرية أو «يمنحهم» إياها.

ومن عمق هذه النظرة العلوية إلى الحرية، أنّ عليّاً يقرّر بقوله هذا، أن الحرية عمل وجدانيّ خالص، ملازمٌ للحياة الداخلية التي ترسم بذاتها الخطوطَ والحدودَ والمعاني فلا تُقسَر عليها، لأنها نابعةٌ من الذات لا تلقائية ولا خارجية. وهي إذا كانت كذلك فليس لأحدٍ أن يُكرِهَ الآخر أن يجبره في هذا النطاق، لأن عمله هذا يأتي فارغاً من أيّ معنى، خالصاً من أيّ أثر.

إذن، فالفرق بين كلمتَي عمر وعليّ فرقٌ جذري لا فرعي: هناك حرية وأحرار تُناط قضاياهم بإرادةِ مَن يبيعون ويشترون، فهي حريةٌ معلّقة وهم أحرارٌ مسيّرون. وهي حرية شكلية لا تنبع بحدودها ومعانيها من معينها الطبيعي بل تُرسَم خطوطُها خارج الذات وخارج الوجدان. وهم أحرارٌ أُقصوا عن وجداناتهم وارتبطوا باتّفاقات ومعاهدات. وهنا حريةٌ وأحرارٌ

تناط قضاياهم بالطبيعة الإنسانية نفسها، وهي طبيعة حرة بأصولها وينابيعها. فالحرية إذن مطلقةً وحدودها الرفض والقبول ضمن نطاق الحياة الداخلية والوجدان. والأحرار مخيّرون يقبلون ويرفضون عن اقتناع وعن إيجابية. والحرية بمفهومها العلويّ هذا، هي التي تخلق الثورات وتنشىء الحضارات وتقيم علاقات الناس على أُسس التعاوُن الخيّر، وتربط الأفراد والجماعات بما يشدّهم إلى الخير لأن الارتباط حين يكون طرفاه الاقتناع والقبول هو وحده الطبيعي بين الارتباطات.

ولمّا كان مفهوم الحرية عند عليّ هو هذا المفهوم الدقيق العميق، كان لا بدّ لمعناها من أن يكون هو المعنى الذي يُنظَر على أساسه إلى الأحوال الخاصّة والعامّة. إلى كلّ ما يرتبط بوجدانات الناس ونزعاتهم وحياتهم الداخلية، وإلى كلّ ما يتّصل بالعلاقات العامّة. وكان لا بدّ أن تُبنى عليه حقوق الإنسان.

ولمّا كانت شخصيّة عليّ بن أبي طالب من التماسُك الشديد بحيث تتساوق منبثقاتُها جميعاً وتتعاون، وبحيث تتّحد في أصلها الأصيل وغايتها الأخيرة. فإنّك لا شكّ واجدٌ هذا المفهوم للحريّة أنّى اتّجهتَ معه وأيّانَ سرتَ. أمّا إذا فاتك أن تلحظ الصّلةَ الوثيقة بين معنًى من معانيه، أو عملٍ من أعماله، وبين هذا المفهوم للحرّية، فما عليك إلاّ أن تعيد نظرك من جديدٍ في ما أنت بصدَدِه فإذا أنت أمام هذه الصلةِ الوثيقة وجهاً لوجه.

فعليّ بن أبي طالب من تماسُك الشخصية بحيث لا يتناقض أبداً. وهو من سلامة الطبع وأصالة الفكر بحيث لا يتعارض. وسوف نُبرز هذه الناحية الهامّة في ابن أبي طالب في فصلٍ آتٍ عقدناه ودفعتْنا إلى عقْده أسبابٌ ذكرناها.

وإذا شئت دليلاً حاضراً على هذه الحركة العفويّة الموجّهة التي تدفع ابن أبي طالب إلى أن يربطَ كل ما ينبثق عنه من قولٍ أو عمل بمفهوم

الحرية كما أوضحناه، فإليك الدليل:

من المعروف أنّ نظرية القضاء والقدَر لها مكانٌ في الأديان الشرقية جميعاً. وأنّ لها أصولاً بعيدة في فلسفات القُدامى وفي مفاهيمهم الإلهية وما يتّصل بها من سُنَنٍ أخلاقية كان لها في توجيه الأفراد عملٌ ملحوظ وإنْ كان محدوداً.

ومن المعروف كذلك أنّ مذاهبَ كثيرةً نشأت في المسيحية والإسلام وغيرهما من غاياتها تعليلُ الحوادث الخاصّة والعامّة، القريبة والبعيدة، على ضوء هذه النظرية. ولا غرابة في أن تترتّب على هذا الأسلوب في تعليل الحوادث، مناهج خاصّة في الأخلاق والمسلك ترفع المسؤولية في العمل عن المتسبّب فيه لتلقيها على القضاء والقدر.

ولمّا كان من أصول هذه المذاهب القدرية أن تجعل زمامَ الحوادث بيد القدر وحده، فقد بات من الطبيعيّ لديها تعطيلُ كلّ معنًى من معاني الحرية التي تفرض وجودَ القدرة على الاختيار، وتجعل المختار في النتيجة مسؤولاً لأنه حرّ.

هذه القضيَّة بالذات، واجَهها عليّ بن أبي طالب. ولكنْ على أيّ أسلوب؟

هل قال بأنّ القضاء والقدر ـ وهما يد الله في فلسفات القدامى ومذاهبهم ـ يسوقان الإنسانَ سوقاً فلا رأي له في ما هو مبسوطٌ أمام عينيه من شؤون الحياة، ولا اختيار له في ما هو صائرٌ إليه؟

إنه لو قال بذلك لناقضَ نفسه ولَمَا كان لقوله في الحرية شأنٌ. فإنّه لا يكون إذ ذاك أكثر من قولٍ عابرٍ لا يصدر عن أصل عميقٍ ولا يهدف إلى غاية معلومة ولا يعبّر عن حقيقةِ قائله إلاّ بمقدار ما تعبّرُ الخاطرةُ الطارئةُ الذاهبة!

أمّا إذا كان لقوله في الحرية هذا الشأن الذي نراه، فإنّه منكرٌ سَوق الإنسان بيد القدَر إنكاراً شديداً ولا شك. وإنه ناظرٌ إلى القدَر بعين مَن لا يضَع إمكاناته فوق إمكانات الإنسان الحرّ الذي يرى ويعلم ويختار ويتّجه!

وماذا قال؟

قال لشيخٍ من أهل الشام حضر صفّين:

«إنّ الله قد أعظم لكم الأجرَ على مسيركم وأنتم سائرون. وعلى مُقامكم وأنتم مقيمون. ولم تكونوا في شيءٍ من حالاتكم مُكرَهين ولا إليها مضطرّين!»

فقال الشامي:

«كيف يكون ذلك والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا وانصرافنا؟»

فقال له عليّ:

«ويحَك يا أخا أهل الشام! لعلّك ظننتَ قضاء لازماً وقدَراً محتوماً! لو كان كذلك لبَطل الثوابُ والعقاب ولم تأتِ لائمةٌ لمذنبٍ ولا محمدةٌ لمحسن، ولَمَا كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المسيء، ولا المسيء أولى بعقوبة المذنب من المحسن!».

وقال أيضاً:

«إن كنت صادقاً كافيناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك».

ولا يكون قدرياً من يكافىء صادقاً ويعاقب كاذباً.

قلنا إنه لمّا كان مفهوم الحرية عند عليّ هو هذا المفهوم الدقيق العميق، كان لا بدّ لمعناها من أن تُبنى عليه حقوق الإنسان. وهذا ما نراه واضحاً كل الوضوح في دستور عليٍّ في الناس. فهو يعترف للأفراد بحقّهم

في الانتخاب والاعتزال، وفي القول والعمل، وفي العيش الكريم، ثم يساوي بينهم جميعاً في الحقوق والواجبات. ولا يجعل لهذه الحرية حدوداً إلا إذا اقتضت مصلحة الجماعة مثل هذه الحدود.

ونحن إذا تابعنا سيرة الإمام في الناس، كما تبيّناها في الفصول السابقة وكما سنتبيّنها في الفصول اللاحقة، ألفيناه لا يعارض بتصرفاته ودستوره هذا المفهوم للحرية في كثيرٍ أو قليل. وقد عالج هذا المفهوم تلقيناً وتطبيقاً في إقامة الحقوق العامة. ورعاه في أصحابه وأعدائه على السواء. وقد مرّ بنا في مطلع هذا الفصل، كيف قرّر أنه لا يجوز إجبار أحد على أن يعمل ما يكره عمله. ولا أن يُسخّر أحدٌ في عمل. ومرّ معنا في الفصل السابق كيف أنه لم يستكره بعض الناس على مبايعته بل تركهم على خطتهم، وهو واثق بأنهم على خطأ. ولماذا يستكرههم، طالما أن بقاءهم على خطتهم لا يؤذي الجماعة ولا يسيء إلى الحقوق العامة، وطالما أنهم اختاروا لأنفسهم هذه الطريق راضين عما يصيبهم فيه من خير أو شر: «وأنتم أعلم بالحلال والحرام، فاستغنوا بما علمتم». ويقول مخاطباً المغيرة بن شعبة: «وقد أذنتُ لك أن تكون من أمرك على ما بدا لك!».

من ذلك أيضاً أن حبيباً بن مسلم الفهري جاءه مرّةً يقول: اعتزلْ أمرَ الناس فيكون أمرهم شورى بينهم. فقال عليّ: وما أنت وهذا الأمر؟ اسكتْ فإنّك لست هناك ولا بأهلٍ له. فقام حبيب وقال: واللّهِ لتريَنّي بحيث تكره!

وليس بخافٍ على القارىء ما في هذا القول من التهديد الصريح يتوجّه به أحدهم إلى ابن أبي طالب والزمانُ والناسُ حربٌ عليه. ولكنْ، ما كان من أمر عليّ؟ هل أمر به وفي يده أن يأمر وقد أطلق في وجهه مثل هذا التهديد؟ أم هل سجنه فمنع عليه أن يكون حرّاً في عدائه وتأليب قومه عليه؟ أم ماذا؟

إنه لم يفعل شيئاً من هذا. بل نظر إلى صاحب التهديد وقال بلهجة الواثق من عدالته المعترف بحق الآخرين في أن يقولوا ويفعلوا: «ما أنتَ ولو أجلبتَ بخيلك ورجلك! لا أبقى الله عليك إن أبقيتَ علَيّ! اذهبْ فصوّبْ وصعّدْ ما بدا لك!».

نضيف إلى ذلك شواهد أُخرى تدلّ على مقدار ما كان يترك من الحرية الواسعة السمحة لأصحابه وأعدائه على السواء. من هذه الشواهد أن نفراً كانوا يرحلون من الحجاز والعراق ويأتون الشام ليلحقوا بمعاوية، فما كان عليّ ليصدّهم أو يعرض لهم، وما كان يحاول استبقاءهم أو إغراءهم. فهم في مذهبه أحرار يعملون عن مدى تصوّرهم ويسلكون سبيلهم إلى ما يريدون. يقول عليّ:

«اللهمّ إني دللتُهم على طريق الرحمة وحرصتُ على توفيقهم بالتنبيه والتذكرة، ليثيب راجعٌ ويتّعظَ متذكرٌ، فلم يُطَعْ لي قول. اللهمّ إني أُعيد عليهم القول...».

لقد دلّهم هو على طريق الخير وخلاّهم أحراراً لا يجبر ولا يستكرِه. فليستخدموا هذا الحقّ في الحرية. فمن شاء منهم اهتدى، ومَن لم يشأ فأمامه طريق الشام رحبةٌ واسعة، ومعاوية في انتظاره يُعطي فيُكثر العطاء!

ولمّا كتب إليه عاملُه على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري يخبره بأنّ قوماً من أهلها لحقوا بمعاوية، كتب عليّ إليه يقول:

«أمّا بعد، فقد بلغني أنّ رجالاً ممّن قِبَلك يتسلّلون إلى معاوية. فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مَدَدهم. فإنّما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومسرعون إليها. وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا في الحقّ أُسْوة، فهربوا إلى الأثرة، فبُعداً لهم وسحقاً! إنهم، والله، لم ينفروا من جورٍ، ولم يلحقوا بعدل!».

وشاهدٌ آخر على معرفة عليّ حقّ الناس في الحرية الواسعة أسلوبه في معاملة الخوارج. فقد كان يحسن معاملة من أقام منهم معه. ويعرف أن أحدهم يهم بالخروج فلا يستكرهه ولا يستبقيه، ولا يرضى بأن يتعرّض له من أصحابه أحد. ثم إنه كان يعطيهم نصيبهم من الفيء أسوةً بسائر الناس، ويفسح لهم في المجال لأن يتوجهوا حيث يشاؤون. فالحريَّة أساس في المعاملة. والناس أحرار في ما يرون من عملٍ وقول، وموالاة ومعاداة، إلاّ أن يعتدوا على الناس ويُفسدوا في الأرض فإنهم حينذاك غير أحرار. وإنه حينذاك مقيمٌ ما لزِمَهم من الحدود في غير لين.

وقد أخبره أحدهم مرة، واسمه الخِرّيت بن راشد، بأنه لن يأتمّ به ولن يشهد معه الصلاة ولن يأتمر بما يأمر ولن يكون له عليه سلطان. فما كان من عليّ إلاّ أن أقرّه على ما ارتأى وأراد وخلاّه حرّاً في ما شاء. ثم كانت أيامٌ خرج الخِرّيت بن راشد بعدها ومعه أصحابٌ له كثير. فما استكرههم عليّ على البقاء معه ولا منعهم من الخروج، وبيده أن يستكره وأن يمنع. فلمّا أساؤوا استغلال هذه الحرية فاعتدوا على الناس الأبرياء ونهبوا وعاثوا في الأرض فساداً وتركوا على أنفسهم سبيلاً، أرسل عليّ إليهم مَن أنصف منهم للأرض والناس.

ويهزّك في ابن أبي طالب من اعترافه للناس بحرّيتهم أكثرُ من هذا. يهزّك فيه هذا الانسجامُ بين سيرته في الناس وبين إيمانه بأنّ الحرية أصلٌ إنساني لا يجوز فيه التأويل ولا يحنّ عنه الانحراف. فهو معترفٌ بهذا الحقّ في الحرّية لأصحابه حتى في أخطر المواقف عليه: في جهاد القاسطين والفاسقين وأهل الردّة عن الحق وقد ملأوا الأرض وطلبوا دمه في جملة ما يطلبون. فلما كان جهاد هؤلاء أمراً تقضي به كل المقاييس والموازين، ويقضي به الوجدان الذي يرعى العدالة والحقّ، كان لا بدّ لابن أبي طالب من أنصارٍ في الحرب وأعوان. ولكنه لم يكن ليستكره

أحداً من هؤلاء الأنصار على جهادٍ وقتال. ولم يكن يجبر قريباً أو بعيداً، بما لديه من حق الولاية وبما في يده من قوة السلطان، على أن يثبتوا إلى جانبه في محاربة القاسطين الفاسقين.

لم يكن ليلجأ في ذلك إلى قهرٍ ماديّ أو معنوي. فالقهر، بمختلف ألوانه، مُنافٍ لأصول النظرة العلوية إلى الحرية وشروطها. إنما كان يتوجه إلى عقول القوم بمنطق العقل وما لديه من حجة وبرهان. ويتوجه إلى قلوبهم وضمائرهم بمنطق القلب والضمير وما لديه من قوة ودليل. فيلحق به من يلحق ويتخلّف عنه من يتخلّف. فيثيب الأولين بالرضى والثناء ويعود على الآخرين بأبلغ الوعظ وأبلغ النّصح وأبلغ التحريض. فمن ظلّ منهم حيث هو، فإنه حرّ. فعليّ لا يقبل الإكراه ولا يجيزه. وهو يأبى أن يلحق به أحد الناس عن غير بصيرة وغير إيمان. لذلك لم يجبر من الناس أحداً على أن يلحق به في حرب الجمل وحرب صفّين وحرب الخوارج، ولو شاء لجنّد من الناس ملء السهل والجبل!

لقد أدرك علي بن أبي طالب الحرية بأصولها، فأطلق إدراكه هذا نصّاً صريحاً. وأقام على هذه الأصول بناءه الجبار في الأخلاق الخاصة والعامة، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض. وعمل بموجباتها مصلحاً ومشترعاً وقائداً وحاكماً وواعظاً. وأعطى على احترامه حقّ الناس في الحرية الواسعة كل يوم دليلاً، ولكن ضمنَ نطاقٍ يرسمه مفهوم الحرية نفسه، وهو ألاّ تسيء حرية البعض إلى حرية الجماعة.

الحرية بين الفرد والجماعة

- إن إيماننا بالإنسان، وولاءنا للإنسانية، هما اللذانِ يثيرانِ في طبيعتنا الخيّرة أعمقَ الدوافع لأن نجعل من البليد المسخر إنساناً بشريّاً نابهاً!

روسّو

- وكذلك موجةُ البحر وزهرةُ القفر وطيرُ السماء. فكلّ ما في الكون حُرٌّ بأصوله وشروطِ وجوده لا يقبل إلا بهذه الحرّية قانوناً وإلا تعطّلَ وانتهى أمرُه!

- ولجأ عليٌّ إلى توسيع معاني الحرّية لدى معاصريه، وفي الوقت نفسه لجأ إلى توسيع الشعور بالمسؤولية.

إذن، فالحرية مكفولة أصلاً في نهج الإمام ودستوره في الناس: يكفلها الوجدانُ الإنساني بوصفه قوةً لا تعمل بالإكراه. وتكفلها قوانينُ الطبيعة التي لا يمكن الاعتداء على حركتها الحرّة في قليلٍ أو كثير. ويكفلها العملُ الاجتماعي الصحيح الذي لا يستقيم إلا بمقدار ما هو خاضع لأصول الوجدان الإنساني وقوانين الطبيعة الثابتة على حرّيتها. فالإنسان إذن حرّ بأصوله: يحسّ حرًّا، ويفكر حرًّا، ويقول حرًّا، ويعمل حرًّا. ولا يجوز إجباره في غير هذه الحدود إلا إذا جاز إفناؤه.

فأنتَ لا يمكنك أن تقضي على نور الشمس إلاّ إذا منعتَه عن غايته في الإنارة وإشاعة الدفء بحاجزٍ تقيمه بين أشعّته وبين غايته. إذن فقد أخرجتَه إلى نطاق من الإماتة والإفناء.

وأنت لا يمكنك أن تبدّل من مجاري الرياح إلاّ إذا صدمتَها في طريقها إلى غايتها بما يثبت لها. إذن فقد قضيتَ عليها، حيث صدمتَها، بالإماتة والإفناء!

وكذلك موجة البحر وزهرة القفر وطير السماء. فكلّ ما في الكون حرٌّ بأصوله وشروط وجوده لا يقبل إلاّ بهذه الحرية قانوناً وإلاّ تعطّل وانتهى أمره.

هذه الحرية هي التي أدركها ابن أبي طالب في أعماقه إدراكاً بعيداً. فانطلق لسانه بما أدرك من أمرها في نفسه. وعمل بوحي ما أدرك وما قال عملاً يبرره هو، وتبرره القوانين الطبيعية، وتبرره غاية الإنسان ومصلحة المجتمع. وقد عرفنا من قوله وعمله هذين الشيء الكثير. وعرفنا كيف سعى في توجيه حركة الأفراد عملاً بشروط هذه الحرية. وإنّ أمراً أساسياً واحداً يتعلق بحرية الإنسان الاجتماعي لم يفتْه، فإذا هو يرعى حرية الأفراد إلى أقصى حدّ. ضمنَ نطاقٍ من حرية الجماعة ومصلحتها وغاية وجودها.

ففيما نرى نفراً من مفكري اليونان القدماء، ومفكري أوروبا في العصر الوسيط، ينظرون في حرية الأفراد دونما اهتمامٍ بمصلحة الجماعة وبالحرية العامة، فيقودهم تفكيرهم إلى أن يبيحوا خروج الفرد على الجماعة واستئثاره بما هو من حقهم؛ وفيما نرى نفراً آخرين من المفكرين ينظرون في مصلحة الجماعة دونما اهتمامٍ بحرية الفرد وما له من حقوق، فيبيحون الضغط على الوجدان والتسخير في العمل؛ نرى ابن أبي طالب ينظر في حرية الفرد ومصلحة الجماعة نظرة موحدة شاملة. فلا يغبن هذا ولا يؤذي تلك. بل يقيم بينهما انسجاماً يجعل الفرد جديراً باستخدام

حريته. ويجعل الجماعة خليقة بالاستفادة من الاجتماع. بل قل يجعل الفرد للجماعة والجماعة للفرد في نطاقٍ من الحرية الرحبة السمحة. وسوف نعود إلى مثل هذا الحديث في كلامنا على شؤون الأرض والمال وطرق الاستغلال.

ولكي يجعل عليّ حرية الفرد في نطاق من حرية الجماعة ومصلحة أهلها، قاده النظر العميق إلى اكتشاف حقيقة اجتماعية أساسية. وهي أن الناس المرتبطين بالمجتمع، لا بدّ لهم من توجيه شعورهم بالحرية توجيهاً معيّناً لا يحدّ من أصول هذه الحرية، بل يمنع استخدامها على أسلوب بدائي يضرّ بالآخرين. فحرية الأفراد لديه ليست الحرية الإباحية الرعناء. بل هي مقترنة أبداً بالشعور بالمسؤولية. ولكي يجعل هذا الشعر بالمسؤولية أمراً لا يتعارض مع الشعور بالحرية الواسعة، لم يلجأ، شأن بعض الفلاسفة والمفكرين الأقدمين، إلى التضييق على الناس في معنى الحرية. بل لجأ إلى وسيلة هي في نظرنا أجلّ الوسائل شأناً وأعظمها قيمةً وأدلّها على عمق الأغوار الإنسانية والمفاهيم الاجتماعية في شخصية ابن أبي طالب.

لجأ إلى توسيع معنى الحرية في مدارك الناس؛ وفي الوقت نفسه لجأ إلى توسيع معنى الشعور بالمسؤولية. ومن آياته في هذه الوسيلة الرائعة، ما سوف نذكره من أمره مع أهل القرية الذين شاؤوا أن يحفروا مجرى النهر الذي عفا ودرس. فطلبوا إلى عامله على قريتهم أن يسخّرهم في العمل. فأمره عليّ بألاّ يُسخّرهم، بل يطلب إليهم أن يعملوا في الحفر ويتقاضوا على ذلك أجراً. ثم أن يكون الأجر، والنهر فيما بعد، لمن عملوا بملء حريتهم، ولمن شعروا بأنهم مسؤولون عمّا عملوه وهم أحرارٌ في أن يثابوا خيراً وفي ألاّ يثابوا!

وكأني بعليّ يحيا منذ بضعة عشر قرناً هذه العاطفة الكريمة التي

صوّرها العبقري الفرنسي جان جاك روسو منذ قرنين إذ قال: «إن إيماننا بالإنسان، وولاءنا للإنسانية، هما اللذان يثيران في طبيعتنا الخيّرة أعمق الدوافع لأن نجعل من البليد المسخّر إنساناً بشرياً نابهاً!».

لقد تعيّن في دستور عليّ، أن الحرية الحرة يجب أن تصقل نفسها فتتقيد بالشعور بالمسؤولية وهو لا يؤذيها، بل ينفعها وينفع العمل الفردي والاجتماعي. لذلك لم يجعل المسؤولية بحدودها الشكلية الظاهرة، هي المحرّك والباعث على العمل الصالح. بل جعل الحرية نفسها مسؤولة. وجعل الأحرار مسؤولين. وناط مقدار هذه المسؤولية بمقدار الحرية. فإذا كانت المسؤولية لا تتبلور في الأفكار الجامدة والقلوب المأسورة والعواطف المكبوتة والشخصيات المحدودة، فلأنها لا تتبلور إلا في نطاق الحرية التي تطلق الأفكار والعواطف الشخصية، وتمدها بالغذاء النافع المقوّي.

وبهذه النظرة يكون عليّ قد رفع القيود الضيّقة والأغلال الثقيلة التي تفرضها السلطات على الناس كي يجنوا لمجتمعهم عملاً كثيراً. فإذا بهم عاجزون عن أن يعملوا لأنهم غير أحرار. وإذا بالمسؤولية في نظرهم لا تنبع من أفكارهم وأحاسيسهم الحرة الطليقة التي بها وحدها يُجوّد العمل، بل هي شيء مرتبط بإرادة السلطة وبغمزة عين من الحاكم. وإذا بعزائمهم تثبط ورجولتهم تضعف وقواهم تذهب في غير طريقها المستقيم.

بعد أن ترك الإمام الأفراد في مجتمعه السليم أحراراً مخيّرين، وترك لهذه الحرية نفسها أن تقودهم إلى الشعور بالمسؤولية، وإلى التفكير الدائم بأنهم مرتبطون بمجتمع له عليهم حقوق، راح يحكم ويضع النظريات، على أصول من هذه الحقيقة؛ فيثيب على ضوئها ويعاقب، ويأمر وينهى، على ما رأيناه ثم على ما سنراه بالتفصيل.



وإننا إذ نكتفي الآن بهذا القدر اليسير من الكلام على الحرية ومفاهيمها عند عليّ، ندعو القارىء إلى انتظار فصولٍ آتية نتحدث فيها مطوّلاً عن هذه الحرية، وذلك في أساس الكلام على المبادىء الإنسانية بين ثورة عليّ والثورة الفرنسية الكبرى. ولَسوف يرى القارىء إذ ذاك مقدار ما ترك عليّ في آثاره من أفكارٍ ثورية عميقة، جديرة بالحياة، داعية إلى التطوّر. ومقدار ما أدرك من روح الحرية التي لا يجوز معها إرهابٌ للضمير ولا تخويفٌ للنفس، والتي لا تعترف من الإنسانية إلاّ بوجهها الجميل وخيرها الأصيل!

مِنْ أيْنَ لكَ هَذا؟

- إن هذا المال ليس لي وليس لك.
- لا يَسَعُنا أن نُعطي امرءاً أكثر من حقّه.
- أتامروني أن أطلب النصر بالجَوْر في مَن وُلّيتُ عليه؟ والله ما أطورُ به ما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً!

عليٌّ

- طلحة والزبير: نبايعك على أنّا شركاء في هذا الأمر!
- عليّ: لا!
- وراح عليّ يَقْشِر المحتكرين من كلّ مال اغتصبوه كما تُقشَر عن العصا لحَاها!

قلنا إن الحرية بمفاهيمها الواسعة هي مصدر الأصالة في حكومة عليّ، وفي سياسته. وإنها لديه مرتبطة بعلاقات أبناء المجتمع بعضهم ببعض بقدر ما هي مرتبطة بالضمير والوجدان. ثم إن الإنسان الصاعد في طريق التعاون والتآخي، لا يمكنه هذا الصعود إنْ لم يكن حراً بجانبَيه الذاتيّ والاجتماعي. فليس حرًّا ذاك الذي لا يصفو ضميره من الشوائب التي تحطّ بالقدر الإنساني. وليس حرًّا ذاك الذي يهمله المجتمع عمليًّا وإن أقرّ بحقوقه، أو ببعضها، إقراراً نظريًّا.

في سبيل هذا البناء في الفرد وفي الجماعة، وقف عليّ من محبّيه ومُبغضيه على السواء موقفَ المصمّم الحازم لايقهره مطمعٌ في غير الحقّ ولا يزعزعه عمّا هو عليه وعدٌ أو وعيد. وكان يعلم حقّ العلم أنّ ذاك ثقيلٌ على بعض الناس فيقول: «إنّ أمرنا صعبٌ مستصعب». وكان يعلم حقّ العلم أيضاً أن ذاك ثقيلٌ على الوُلاة خاصّةً فيقول: «والحقّ ثقيلٌ على الوُلاة... وكلّ حق ثقيل!».

ولكنْ سواءٌ عند ابن أبي طالبٍ أثَقُلَ الحقّ على الوُلاة والوجهاء أم خفّ، فإنّ عقله وضميره جميعاً يأمران وما لغيرهما شأنٌ لديه. وهما يأمران بألاّ يُهمَل الظامئون إلى العدل الاجتماعيّ وألاّ يهونَ على المشترع والحاكم أمرُهم فيعانوا من الحاجة ما يُذلّهم فيُلصقهم بالأرض، ويقاسوا من الجوع ما تجفّ به حلوقُهم وتستعر أجوافهم، ويُحرقَوا بحَرّ الهجير وأجّة الليل، أو يقرقفوا تحت سوط الرياح في زمهرير الشتاء! وهما يأمران بألاّ تُترك خيراتُ الأرض بين أيدي المُتخَمين والمترهّلين الآكلين على شبعٍ والشاربين على غير ظمأ، المتبذّخين بأموال العامّة على غير جهدٍ وغير بَلاء! أولئك الذين أخذوا الدنيا كما يأخذها الفيلُ إذ يكتفي من دنياه بقَرْض عشبٍ لم يزرعه، وشرْبِ ماءٍ لم يفجّر ينابيعَه، والاستراحةِ في الظلّ بعدَ استراحةٍ لم يسبقها عناء!

وقد صدق ظنّ ابن أبي طالب في أنّ النافذين والوجهاء من القوم لن يتحملوا أسلوبه في الولاية ولن يطيقوا صلابته في الدفاع عن هذا الأسلوب، على نحو ما أعلن قبل البيعة. فقد أرادوه، بعد البيعة، أن يكون لهم دون العامة، فأبى أن يكون لغير الحق.

جاءه طلحة والزبير يساومانه قائلين: «نبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر» فقال غير متردّد: لا! فتفرّقا عنه، وزحفا عليه بالجيوش على ما سيأتي بيانه، وعليّ أعلمُ الناس بما لطلحة والزبير من نفوذ ومكانة.

ولكنه العدل! ولكنه ابن أبي طالب الذي يقول لهؤلاء وهؤلاء: «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور في من ولّيتُ عليه؟ والله ما أطور ـ آمر ـ به ما سَمَرَ سميرٌ وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً! ألاَ إنّ عطاء المال في غير حقه إسراف وتبذير!».

إنّ الطعام لا يُقدَّم إلى شبعان، كما يقول عليّ. والثروة قليلةً كانت أو كثيرة، لا تكون مشروعةً في مذهبه إلاّ إذا كانت عن غير طريق الاحتكار واستغلال العامّة والإفادة من السلطة.

وقد يغتفر عليّ للمجرمين بعضَ ما أجرموا. وللظالمين بعض ما ظلموا. غير أنه لا يغتفر جريمة الاحتكار ونهب أموال الشعب. ولا يغتفر لطبقة المحتكرين أن يظلموا العامل والكادح والمستضعَف بخبزهم ومائهم. وإنّ الظلم بألوانه جميعاً لعنةٌ على لسان ابن أبي طالب. غير أنّ أفحشه هو ظلم القويّ للضعيف، والمحتكر للعامّة، والحاكم للمحكوم. وعليّ لا يتسامح بمثل هذا الظلم الذي يخلق في المجتمع الطبقية المادّية، ورذائلها وجرائمها.

والأدلّة التي تقيم الحجّة الصريحة على المستغلّين والغاصبين في أدب عليّ، كثيرةٌ وافية. فأنّى اتّجهتَ في «نهج البلاغة» تحسّ تلك الحرقة التي تُلهب أقوال عليّ ساعةَ يتحدّث عن الاستغلال والغصْب. ويكاد يتحدّث عنهما في كلّ خطبةٍ له وفي كلّ مقال. وفي أقواله جميعاً ما يدلّ على أنه واثقٌ بأنّ الغصْب جريمةٌ اجتماعية والمستغلّ مجرمٌ أيّاً كان. وأن جمْع المال من غير طرقه الطبيعية إنّما له تَبِعَاتٌ جسامٌ تَلزَم صاحبَها على كل حال.

وإليك ما يقوله عليّ في إحدى خطبه وكان يتحدّث عن جامع المال:

«... ويتذكّر أموالاً جَمَعَها وأغمَض في مطالبها ـ أي لم يفرّق بين

حلالٍ وحرام - وأخذَها من مُصرّحاتها ومشتبَهاتها، وقد لزمتْه تبعاتُ جمْعها!» أمّا كسب الحلال الذي لا يد فيه لاستغلالٍ أو احتكار، فيقول عليّ في صاحبه: «مَن مَات من كسب الحلال مات والله راضٍ عنه!»

لذلك عزم عليّ على أن يدكّ ما ارتفع في العهد السابق من حصون الاحتكار واستغلال النفوذ ونهب الأرزاق وسائر ما شيّده أُولئك الأثرياء الذين يقول في أمثالهم: «وأمّا الأغنياء من مُترفَةِ الأمم فتعصّبوا لآثار مواقعِ النّعم». فخطب الناس يقول:

«ألا إنّ كل قطيعةٍ أقطعَها عثمان، وكل ما أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال. فإن الحق لا يبطله شيء. ولو وجدتُه قد تزوّج به النساء وفرّق في البلدان لرددته. فإن العدل في سعة. ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق!».

قد يعدل بعض الولاة وأصحاب السلطان فلا يُثيبون على غير جهد، ولا يبذرون مال الشعب بإرادة متقرّب أو قريب، أو بإشارة صديقٍ أو حبيب. أمّا أن يعود والٍ إلى من أيسروا في عسر الشعب، في أيامٍ لم تكن أيامه، فيحاسبهم، فيستعيد منهم ما ليس لهم، فتلك دلالة صريحة على عمق نظرته إلى الأمور، وعلى أن إيمانه بالعدالة الاجتماعية ليس ما يتيسّر لجميع الناس من الإيمان. بل إنه موطد على دعائم من العقل الرجيح الذي لا تفوته خفايا الأمور ولا يطغى عليه عُرْف العصر والناس. فإذا كان للمرء ألاّ يُثاب إلاّ في نطاقٍ من خدمة الجماعة، فأي جهدٍ في سبيل الجماعة بَذَلَهُ الحارث بن الحكم حتى يستحقّ مائتي ألف درهم تُبذل له من مال الشعب، يوم عرسه، إن لم يكن زواجُه ببنت عثمان هو هذا الجهد وهذه الخدمة!؟

وأيّ جهد في سبيل الجماعة قدّمه طلحة والزبير حتى يحصلا على أموال الدولة بغير حساب، ويقطعا ما لا طَمَعَ ببعضه للملايين من الناس؟

من أين لأحدهما، الزبير، أن يقتني من الأرقّاء ألف عبدٍ وألفَ أمَة؟ أمّا إذا كان لهما فضل السابقة في الإسلام، فإن الفضل في ذلك عند الله، كما يقول عليّ، والدنيا معاشٌ والناس في المعاش أُسْوة!

وما هي وجوه الخير التي أطلّت على الشعب مع الولاة من قرابة عثمان وأنصاره كي يوسّع عليهم في الملك والأموال والثروات والأجناد والتحكم في الرقاب؟ وفي هؤلاء معاوية الراشي والحكم بن العاص وعبد الله بن سعد وغيرهم من الأهل والأنصار؟!

من أين لمعاوية فلسطين وحمص تُضمّان إلى ولايته، والأجناد الأربعة تُجمع له قيادتها.

ومن أين لغيره الثروات والدور والقصور في كلّ بلد وكلّ مصر؟

أجل، يا هذا! من أين لك هذا؟! كيف حصلتَ على هذه القصور وهذه الأموال وليس في أعمالك ما يثبت على صعيد الخدمة العامّة فيما لو أطلّت عليك الشمس!!

أمّا إذا مرّ الزمان على احتوائك المال والأرض، فما ذاك بحجّة لأن يظل المعوجّ على اعوجاجه، والحقّ لا يبطله شيء. إذن، فكل قطيعة، وكل مال أُعطي بغير حق، هو مردود في بيت المال ولو وُجد قد تُزوّج به النساء وفُرّق في أنحاء الأرض. فإن العدل، وهو في سعة، لن يضيق ولن يُحدّ في إطار من هذه الإطارات التي قد يتعلّل بها المستنفعون!

وهنالك أمرٌ جدير بأن يُنظرَ فيه. وهو أنّ عليّاً كان يحسب اقتطاع الأرض بالقرابة والنفوذ في جملة المال المنهوب. ذلك لأنه يعرف، بحكم الواقع، أنّ هذه الأرض مصدر ثروة ثم علّة تملّك. ثم يرى بسديد عقله أن مقتطعيها من الحكام والأثرياء والنبلاء لا شك أنهم سيسعون في استرقاق العامّة لخدمة هذه الأرض واستخراج خيراتها مما يجعل الأرض سبباً في

تضخّم الثروة لديهم، فيما يتضاءل الآخرون شيئاً فشيئاً. ثم يعود أصحاب الاقطاعات الكبيرة فيشترون من صغار الملاّكين ما يملكون، حتى تتألف في الشعب طبقة الإقطاعيين وطبقة المغبونين. يقول عليّ: «ولا يطمعنّ منك في اعتقاد عقدة ـ اقتطاع ضيعة ـ بمن يليها من الناس في شربٍ أو عملٍ مشتركٍ يحملون مؤونته على غيرهم».

وقد صدقت نظرة الإمام إلى ما يصير إليه أصحابُ الضياع الواسعة من النفوذ والسلطان واسترقاق الناس في سبيلها، ثم بها! يقول الدكتور طه حسين في كتابه «عثمان»: «وُجدتِ الإقطاعات الكبيرة الضخمة والضياع الواسعة العريضة من جهة، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي من جهة أخرى، فظهرت في الإسلام طبقة جديدة من الناس هي طبقة البلوتوقراطية التي تمتاز، إلى أرستقراطيتها التي تأتيها من المولد، بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضاً!».

إن المال والأرض، والخيرات الناجمة عنهما، ليس لأحدٍ فيها نصيبٌ أكثر من سواه، في مذهب عليّ، إلاّ بجهد وحاجة. ومَن أبى هذه الحقيقةَ فقد خان الشعب «وأعظمُ الخيانة خيانة الأمّة» في نظر الإمام. ومَن خان الأمة فلا رأيَ له، ولا شأن لموقفه من الخليفة الجديد. لذلك هو عازمٌ على أن يعمل بما يحفظ لهذه الأمة حقوقها. وابن أبي طالب إذا عزم لا يخشى موقف النافذين منه ولا قولهم فيه. ولا هو يأبه للحاقهم بأخصامه ومحاربيه. فهو الحق الذي يعزم والعدالة التي تنطق. وليس حتى لأصحاب النبيّ والمجاهدين معه فضلٌ بهذه الصحبة وهذا الجهاد على غيرهم من الخلق:

«أيها الناس، ألاَ لا يقولَنّ رجالٌ منكم غداً قد غَمَرَتْهُمُ الدنيا فامتلكوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرقّقة، إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه وأصَرْتُهُم إلى حقوقهم التي

تعلمون: حَرَمَنَا ابنُ أبي طالب حقوقنا! ألاَ وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته، فإن الفضل غداً عند الله. فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسّم بينكم بالسويّة، ولا فضل فيه لأحد على أحد..».

وإنّ هذا الأسلوب يلجأ إليه عليٌّ في التسوية بين الناس جميعاً في الحقوق العامّة، لهو الدافع الأول الذي حمل أولئك الوجهاء على تَرْك ابن أبي طالب والالتحاق بابن أبي سفيان على ما سيأتي بيانه بالتفصيل. فإن عليّاً لم يكن ليفضّل شريفاً على مشروف لأن مقاييس الشرف في علمه لم تكن مقاييس زمانه، ولا عربياً على أعجمي لأن الإنسان أخو الإنسان في الخلق بضمير عليّ. ولم يكن يصانع أولئك الرؤساء وزعماء القبائل كما كان يفعل ابنُ هند، ولا يستميل أحداً إلى نفسه بمال الأمّة! قال الأشتر النخعيّ لعليّ:

«إنّا قاتلْنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهلِ الكوفة ورأيُ الناس واحدٌ. وقد اختلفوا بعد ذلك وتعادوا وضعفت النيّة وقَلّ العددُ وأنت تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق وتُنصفُ فيهم الوضيعَ من الشريف فليس للشريف عندك فضلُ منزلةٍ على الوضيع، فضجّتْ طائفةٌ ممّن معك من الحق إذ عموا به، واغتمّوا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغناء والشرف فباعوا أنفُسهم إليه وأكثرهم يجتوي الحقّ ويشتري الباطلَ، فإنْ تبذل المالَ يملْ إليه أعناق الرجال وتصْفُ نصيحتهم لك ويُستَخْلَص ودّهم!» فأجابه عليٌّ من فوره:

«أمّا ما ذكرتَ من عملنا وسيرتنا بالعدل فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: **﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلامٍ للعبيد﴾**[1].

---

(١) سورة فصلت، الآية ٤٦.

وأنا مِنْ أن أكون مقصّراً فيما ذكرتَ أخوَفُ! وأمّا ما ذكرتَ من أن الحق ثَقُلَ عليهم ففارَقونا لذلك، فقد علمَ الله أنهم لم يفارقونا من جورٍ ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عدلٍ! وأمّا ما ذكرتَ من بذل الأموال واصطناع الرجال فإنّه لا يَسَعُنا أن نُؤتيَ امرأً من المال أكثر من حقّه!».

أما موجز دستور عليّ في هذا الوضع، فقوله في عهده إلى الأشتر: «إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة!» والحقوق العامّة هي ما يتساوى فيه الناس، وإياها يعني ابنُ أبي طالب!

رفع الحَاجَة

- وأن تكونوا عندي في الحقّ سواء.
- ما جاع فقيرٌ إلا بما مُتّع به غنيّ.
- ما رأيتُ نعمةً موفورة إلا وإلى جانبها حقٌّ مضيع.
- لكلّ ذي رمقٍ قوتٌ، ولكل حبّةٍ آكل.
- ولا تصحّ نصيحتهم إلا بقلة استثقال دوَلهم.
- أشقى الرعاة من شقيتْ به رعيّته.

عليّ

هذه الحقوق العامة يوصي بها عليّ، ويرعاها، ويحصر في رعايتها معنى الولاية. ثم إنه على ضوئها يُثبت عاملاً ويعزل آخر. وتتّسع مفاهيم هذه الحقوق عنده وتتشعب. غير أنها تلتقي جميعاً في نطاقٍ حصينٍ من رفْع الحاجة عن العامّة ومِن ألاّ يكون فيهم مَن يجوع فتُهان فيها كرامةُ الجنس الإنساني. ولا بأس أن تُجاز القوانين لرفْع هذه الحاجة، إذا لم يكن في تطبيق القانون ما يكفي لرفعها. فكما أن العبادة في مذهب عليّ ليس من شأنها أن تجعل الإنسان متنكّراً للحياة العامّة، وكما أنّ الدين هو المعاملة، وسلامة العقيدة هي سلامة المسلك، فكذلك لا بدّ من أن تُسخَّر الأنظمة والقوانين لتيسير الحاجات الماديّة للكافّة ورفع الحاجة عنها حتى لا يهون المرءُ على نفسه ولا تهون عليه دنياه. ورفْع الحاجة عن الشعب واجبٌ

على المشترع والحاكم لا منّة. وهو بالنسبة للشعب حقّ لا سؤال. وقد شدّد عليّ في ذلك حتى قلّ أن تجد له كلاماً أو وصية أو عهداً إلاّ ويملأه ما قرّره من هذا الحقّ على العمال والوُلاة.

وكيف لا يكون رفع الحاجة عن الشعب واجباً على المشترع والحاكم في دستور عليّ، وحقاً أساسيًا من حقوق العامة، وهو الذي لا يرى في سيئات الأكاسرة والقياصرة، على كثرة ما لهم من سيئات، أبرزَ من استهانتهم بالشعب. فإذا بهم يهملون ما له من حقوق في خضرة الأرض ورخيّ العيش فيأثمون إذ يعملون على إفقاره فيقول: «تأمّلوا في حال تشتّتهم وتفرّقهم، لياليَ كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم يجتازونهم[1] عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا» إلى منابت الشِّيح ومهافي الريح ونكَدِ المعاش فتركوهم عالةً مساكين!

وقد يضطرّ عليّ إلى تهديد هؤلاء الوُلاة بأشدّ العقوبات إذا هم خانوا من مال الشعب شيئاً صغيراً أو كبيراً. وقد يبلغ التوجّع في نفسه مبلغاً عظيماً إذا أدركه أحدهم بأن والياً أو عاملاً بات على غصْبٍ أو احتكار. فإذا به يوجّه إليه قولاً تملأه عصبيّةُ الحقّ وثورة العدل. بعثَ إلى بعض عمّاله يقول: «بلَغني أنّك جرّدتَ الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلتَ ما تحت يديك. فارفع إليّ حسابك!».

وأوصيك خيراً بقوله: «فارفع إليّ حسابك». فوراءه، في جملة ما وراءه، إيمانُه المطلَق بضرورة الإنصاف حتى أنه لا يرى مكاناً للإطالة والتعليل والإمهال. هذا الإيمان الذي يجمع، في ومضةِ خاطفة الفهمَ العميق لواقع المجتمع المتأرجح بين حقٍّ مهضوم وآخر مطلوب؛ إلى إدراكِ ما قد ينجم عن ذلك من انهيارٍ خلقي واجتماعي في الغاصب والمغصوب

---

(١) يجتازونهم: يقبضونهم.

على السواء؛ إلى الثقة الكاملة بضرورة إقامة العدل ولْيقعْ هذا من نفوس الأعوان حيث وقع! كل ذلك على عصبيةٍ تأبى فتغضب فتوجز قائلةً: «فارفع إليّ حسابك!».

وهو إمّا بلغه أنّ عاملاً آخر يأكل ما تحت يديه من أموال العامة، بعث إليه على عجل يقول: «فاتّق الله واردذ إلى هؤلاء القوم أموالهم. فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعْذَرَنّ إلى الله فيك[1]! واللّهِ لو أنّ الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلتَ ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا مني بإرادة، حتى آخذ الحقّ منهما، وأزيل الباطل عن مظلمتهما».

وأرسل عليّ رجلاً يدعى «سعد» إلى زياد ابن أبيه يأمره بأن يحمل إلى بيت المال ما عنده منه. وكان قد بلغه أنّ زياداً يتقلّب في النعيم يستأثر به على الضعيف والفقير والأرملة واليتيم. وأنه يتظاهر بالفضيلة وهو عنها بعيد. فلمّا كان الرسول عند زياد ألحّ عليه، فتجبّر زياد وتكبّر ونهَرَه. فكتب إليه عليّ يقول:

«إن سعداً ذكر لي أنك شتمته ظالماً وجبهتَه تجبّراً وتكبّراً، وقد قال رسول الله: «الكبرياء والعظمة لله». فمن تكبّر سخط الله عليه. وأخبرني أنك مستكثرٌ من الألوان في الطعام. وأنك تدهّن كل يوم. فماذا عليك لو صُمتَ لله أياماً وتصدّقت ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك في مرةٍ مراراً أو أطعمته فقيراً. أتطمع، وأنت متقلّب في النعيم تستأثر فيه على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم، أن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين. وأخبرَني أنك تتكلم كلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين. وإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت وعملك أحبطت إلخ».

ويواصل عليّ أوامره للولاة بكفّ الأيدي عن الغصب بكافة ألوانه.

---

(١) لأعاقبنك عقاباً يكون لي عذراً عند الله من فعلتك هذه.

ويحارب الرشوة وهو يرى فيها أتفهَ ما يربط الحاكم بالمحكوم من علاقة، وأوهنَ صلةٍ بين الحقّ وصاحبه. ويسمّي الحكّام الذين يقبلونها «أكلَة الرّشا». ثم يُدرك إلى أي مدى من الفساد يُقاد المجتمع بالفساد. حتى إذا بلَغه أنّ أحد أمراء الأجناد يرتشي، خلع له كتفيه بهذه الهزَّة العنيفة: «أمّا بعد، فإنما أهلك من كان قبلك أنهم منعوا الناس الحقّ فاشتروه[1] وأخذوهم بالباطل فاقتدوه»[2].

وقد يدعى أحد الولاة إلى وليمة فيمضي إليها، فإذا بعليّ يؤنّبه أشد تأنيب، ويوبخه أعنف توبيخ! أفلإقامةِ حقٍّ يريدون أن يرشوه بالدعوة والحقّ يقام بدون رشوة؟ أم لإنزال الباطل منزلةَ الحق وليس للوالي أن يفعل ذلك ولو أُعطي سلطان الأرض؟! ثم، كيف يمضي إلى وليمة يُدعى إليها الثريّ ويُبعَد عنها الفقير والمعْوز، وفي ذلك مظهرٌ من مظاهر التفرقة بين الناس، ثم إشعارٌ لهم بهذه التفرقة، ممّا يجرّح بعض الخواطر، ويجرّح قلب عليّ! أمّا حين يستقيم المجتمع، فليُدعَ قوم وليُبعَد آخرون، فما في ذلك غبن!

وقد يخال البعض أنّ الإمام يغالي في مثل هذه المحاسبة الدقيقة للولاة. غير أنه حين يدرك أن الإمام قد ركّز هؤلاء الولاة على صعيد ماديّ يكفيهم الحاجةَ ولا يجوز من بعده الارتشاء أيّاً كان لونه، ولا التطلّع إلى المغانم مهما قلّ شأنها، يعرف عند ذاك أنه على حقّ ولا مغالاة في هذه الدقة، وإنما هي من إعمال العقل الذي ينهج نهجاً صحيحاً له موازين ومقاييس. فيأبى هذه السابقة وإن قلّ خطرها، فإنّ خطر اللاحقة أشدّ. ونحدّد زمن السابقة هنا بأيام علي ولا نعود بها إلى أيام عثمان! لقد بذل عليّ من مال الدولة للولاة ما يقيهم الحاجةَ وما تجرّه من الانزلاق في دَرَك

(١) حجبوا عن الناس حقهم فاضطر الناس لشراء الحق بالرشوة.
(٢) كلفوهم بإتيان الباطل فأتوه، فصار الباطل قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء «نهج البلاغة».

الرشوة، فلماذا يرتشون؟ ثم إن هنالك حقيقة ضمنيّة في هذا الباب يلفت عليّ أنظارَ الولاة إليها، وهي أنه لا يبيح للوالي أن يغنم من الناس بالولاية ولو غداءً أو عشاءً، فإنّ هذا الغنم إذا جاء عن طريق الولاية كان أشبه بالسرقة أو الرشوة، والذي لا يُسمَح له بأن يُرشَى بعشاء فلن يُباح له، طبعاً، أن يسرق مدينةً أو يرتشي بجهد شعب!

وهذه الشدّة التي كان يعامل بها الولاة المسيئين، يقابلها تشجيعٌ للمحسن منهم وإثابة. وإليك ما بعث به إلى عمر بن أبي سَلمة عامله على البحرين حين ولّى مكانه النعمان بن عجلان ودعاه إليه ليصحبه في حملته على معاوية:

«إني قد ولّيتُ النعمان بن عجلان البحرين من غير ذمٍّ لك ولا تهمة في ما تحت يدك. ولعمري لقد أحسنتَ الولاية وأدّيت الأمانة. فأقبلْ إليّ غير ظنين ولا ملوم. فإني أريد المسير إلى ظَلَمَة أهل الشام، وأحببتُ أن تشهد معي أمرهم. فإنك ممن أستظهرُ به على جهاد العدو. جعلنا الله وإياك من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون».

إذن، فالذين لا يخونون الأمّة من الولاة ولا يرتشون، لهم ما يقيهم الحاجة من المال، وما يشجّعهم من إحسان أمير المؤمنين إليهم. أمّا الخائنون، فعقابهم العتاب، ثم التوبيخ الشديد. ثم العزل، ثم الحبس مع العزل إذا هم أكثروا من الإساءة.

وهنالك غاصبون ومحتكرون ومستغلون غير الولاة ما يزالون يسعون في الحصول على الثراء العريض! هنالك مجمّعو الأموال وحاصروها ومقتطعو الأراضي والضياع. هؤلاء يحاربهم الإمام حرباً لا هوادة فيها. ويحارب فيهم البطرَ والجشع الباطل وحب الاستغلال. ويسعى في أن يحول بينهم وبين الأموال التي يريدون تضخيمها.

أمّا الغصب فقد حرّمه عليّ في كل ما قال وفعل وأقام من حدود. وأمّا الاحتكار فقد شدّد في منعه: «واعلمْ أنّ في كثيرٍ منهم احتكاراً للمنافع وتحكّماً في البياعات وذلك باب مضرّة للعامة وعيبٌ على الولاة، فامنعْ من الاحتكار!» ثم يقول: «ومَن قارفَ حُكرَةً بعد نهْيك، فنكّلْ به وعاقبْه في غير إسراف».

أمّا اقتطاع الأرض والضياع فله فيه رأي هو عقل العاقل وشرف الوالي، وقد مرّ الكلام عليه. أمّا الاستغلال بألوانه جميعاً فهو شيء من الغصب والاحتكار، فالإمام لا يهادن فيه. وله في ذلك أقوالٌ لا تحدّ من «نهج البلاغة» بمكان. لقد قصد الإمام من وراء ذلك إلى تحطيم الوسائل التي تؤدّي إلى تكديس الأموال وتضخيم الثروات كما تقدم في غير هذا الفصل من الكتاب. هذه الأموال والثروات، التي لا تلبث أن تنحصر في فئة خاصة وتصبح «دُولةً بين الأغنياء» دون غيرهم من فئات المجتمع.

ولقد كره للمجتمع الصالح تضخيم الأموال هذا، الذي لا يقوم على جهد ولا ينشأ عن كفاءة. ويؤدّي في غايته البعيدة إلى خلق طبقة المترَفين الكسالى المترهّلين الذين يعيشون على حساب الجماعة الفقيرة. وطبقة أخرى معْوزة مُعسرة تعمل وتشقى ولا أمل لها في طعام وكساء. ثم يؤدي إلى انهيارٍ لا بدّ منه في خلق الفرد وفي خلق الجماعة. فإذا الفقراء ضحايا الأثرياء. وإذا الكادحون ضحايا الخانعين التافهين. وإذا الأخلاق ضحايا الطبقتين. وإذا المجتمع بناء ينهار! يقول الإمام واصفاً بعض أحوال الناس في زمانه:

«فربّ دائبٍ مُضيّع، وربّ كادحٍ خاسر. وقد أصبحتم في زمنٍ لا يزداد الخير فيه إلاّ إدباراً، والشرّ فيه إلاّ إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً. اضربْ بطرفك حيث شئت من الناس: هل تُبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتّخذ البخل بحق الله وفْراً.

أين خيارُكم وصلحاؤكم وأحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورّعون في مكاسبهم؟ والمتنزّهون في مذاهبهم؟».

أجل، لقد أدرك عليّ بصائبِ فكره وسلامة فطرته وعظيم خُلقه، أن كلّ نظامٍ لا يستهدف رفْع الحاجة عن عامّة الناس، لا قيمة له.

إنّ كلّ قانونٍ تافهٌ ومَقيتٌ إذا لم يقضِ على التفاوت الباطل بين طبقات المجتمع.

وإنّ السنن الاجتماعية التي تخلق مجتمعاتٍ تكون فيها طبقاتٌ من الناس فريسة لطبقةٍ ضئيلة العدد ممّن أسموا أنفسهم «أشرافاً وسادة» وراحوا ينهبون حقوق الشعب وأمواله وأرزاقه بوقاحةٍ وفجور، هي سننٌ وقحةٌ وفاجرة. «والفجور ـ كما يقول عليّ ـ دارُ حصنٍ ذليلٍ لا يمنع أهلَه ولا يُحرِزُ مَن لجأ إليه!».

ولأن الفجور لا يمنع أهله ولا يعصم مَن لجأ إليه، فإن المجتمع متفسّخٌ لا محالة عند ذاك: متفسّخٌ في الطبقات التي اغتُصبتْ حقوقُها، ومتفسّخٌ في الطبقة الغاصبة، سواءٌ بسواء!

❀ ❀ ❀

بعد ذلك يأتي العمل الإيجابي لرفع الحاجة عن الشعب، وهو يقوم على مرتكزين اثنين:

أولهما: إن الأموال والأراضي والضياع وجميع مصادر الثروة هي ملك الجماعة تُوزّع على الأفراد بقدر الاستحقاق والحاجة بعد أن تتاح الفرصة للعمل لجميع هؤلاء. وليس لأحدٍ أن يتصرف بما تمليه عليه الإرادة الفردية الخالصة دونما نظرٍ إلى المصلحة العامّة. ثم إنه ليس من مصلحة هذا الفرد بالذات ألاّ يتعاون مع الجماعة. فهو يعطيها وهي تعطيه. وعطاؤها أكثر! يقول عليّ: «من يقبض يده عن عشيرته فإنما تُقبضُ منه

عنهم يدٌ واحدة، وتقبضُ منهم عنه أيدٍ كثيرة!».

وعلى الدولة أن تكون القيّمة العادلة على تطبيق هذه السياسة أدقّ ما يمكن من التطبيق. فالشعب جسدٌ واحد وعلى الدولة أن ترعى أعضاءه جميعاً بما تستحقّ، لا إهمال ولا تقصير ولا تفرقة! وهي، لذلك، تأخذ نسباً من الأرباح والرساميل ذاتها ـ نسباً غير مطلقة التحديد، بل هي ترتفع وتنخفض بالنسبة للمصلحة العامّة. فإذا اقتضت المحافظةُ على سلامة الجماعة وعلى كرامتها وأسباب معاشها، أن يؤخذ من الأرباح والرساميل والأراضي والأملاك نِسَبٌ عظيمة جداً كان ذلك دون تردّد.

وثانيهما: النظر في عمارة الأرض، فإنها قوام المعاش والازدهار الاقتصادي. لذلك فإنّ على الولاة والعمّال أن ينظروا في عمارة الأرض فوق ما ينظرون في الحصول على حق الدولة المشروع في الخراج. فالخراج نفسه ـ وهو ملك الجماعة في نتيجة كل حساب ـ لا يمكن إدراكه إلاّ بالعمارة. ولا يسعى في تحصيل الضرائب من الجماعة والأرض لا عمارة فيها إلاّ والٍ سَفُهَ وطاش وأراد أن يخرب البلاد ويهلك العباد ويجعل أمره في الولاية ضئيلاً قليلاً.. والأرض لا تعمر بذاتها. ولا بسفَهِ حاكمٍ أو طيش أمير. ولا بوجود قصور فيها مُترَفون مترهّلون أو ذوو ثراء وسخف وكِبْر. وإنما تعمر بجهد العاملين فيها وبثراء أهلها من كافّة الناس.

ويشدّد عليّ في تحريم أخذ الخراج من الشعب إذا لم يكن الشعب راضياً عن حالته الاقتصادية وعن وُلاته وحكامه. فأصول الاجتماع، والقواعد الإنسانية، والمقاييس الأخلاقية، تحتّم جميعاً أن يكون عطاء الشعب للدولة عن يُسْر لا عن عسر. فلينظر الولاة في تحسين أحوال العامة، إذن، قبل أن ينظروا في الأخذ منهم. يقول عليّ لعماله على الخراج:

«ولا تبيعَنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا رزقاً

يأكلونه، ولا دابّة يعتملون عليها. ولا تضربَنّ أحداً منهم سوطاً لمكانِ درهم. ولا تُقمْه على رجله في طلب درهم. ولا تبغ لأحدٍ منهم عَرَضاً في شيءٍ من الخراج. فإنما أمرنا أن نأخذ منهم بالعفو!» ويقول أيضاً: «وتفقّد أمر الخراج بما يُصلح أهله. فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم!».

وهذه النظرة إلى أحوال الأرض وتراوحها بين العمارة والخراب، وترتيب صلاح الدولة على صلاح العامل والفلاّح، هي من الصحة والدقّة بحيث إن العلوم الاقتصادية والاجتماعية تؤيدها اليوم، وقد انقضى على عهد صاحبها قرونٌ طوال!

ولكنْ، كيف يتاح لهذا الشعب أن يجهد في عمارة الأرض ويفجّر منها الخير فيأمن الأفراد والجماعات؟ لقد وضع عليّ لذلك قاعدة عامة هي من القواعد التي تقرّها العلوم الاجتماعية الحديثة أيضاً!

رأى بعض المفكرين الأوائل أنّ عمارة الأرض تكون بأن يُستخدَم فيها الأرقّاء والأسرى والمستضعفون غصباً وقسراً. وإنْ هم رحموا فالمأجورون من الناس يُنتجون فينالون بعض الجزاء. أما الجزاء الأوفى في شرع أولئك المفكرين فيذهب لطبقةٍ تملك الأرض وتستغلّها بغير جهد، هي طبقة أصحاب الجلالة والسموّ و «الشّرف» الرفيع والنبلاء والأثرياء وأهل الأرستقراطية الفارغة والفساد العريض وسائر المترهّلين.

ولطالما سقطت قيمة الإنسان وقيمة العمل في مثل هذه الشرائع. ولَطالما أفاد الحكّامُ وأنصارهم من بؤس الناس وشقاءِ الكادحين اللذين تبررهما شرائعُ الاستعباد، بل قل شرائع التقتيل الجماعي، في التاريخ القديم والحديث. وقد كان من نتائج هذا النمط من التفكير الاجتماعي البدائي. أنْ تَساندَ الحكّام والكهنة، وتعاونوا على أن يمصّوا دم الجماعات وروحها باسم الوطن تارة وباسم الرب الذي يعبدون تارة أخرى. وإليك

صورة عن هذا الواقع الذي نرسم، نأخذها عن العالم المؤرخ الإنكليزي ولز، يقول:

«كان الكهنة يلقّنون الناس أنّ الأرض التي يزرعونها، ويدأبون فيها، ليست لهم، وإنما هي للآلهة التي في المعابد. وقد يهبها الآلهة للحكّام، ويهبها الحكّام لمن يشاؤون من خدَمهم وموظفيهم.

«واستكشف الرجل العادي شيئاً فشيئاً أنّ الرقعة التي كان يزرعها لم تكن له، إذ كان الربّ مالكها! وعليه أن يدفع جزءاً من محصوله للربّ. أو أن الإله قد وهبها للحاكم، وللحاكم أنْ يفرض عليها ما يراه من الضرائب. أو أنّ الحاكم قد منحها إلى موظّف هو سيّدٌ للرجل العادي. وكان للربّ أو الحاكم أو للسيّد في بعض الأحيان عملٌ يجب قضاؤه. وكان لِزاماً على الرجل العادي عند ذلك أن يترك رقعته ويشتغل لمولاه. ولم يحدث قطّ أن تحدّد في ذهنه ولا أن اتّضح لديه تماماً أمر رقعة الأرض التي كان يزرعها: إلى أيّ حدّ كانت ملكيته لها. إذن ليس للرجل العادي من الأمر، ولا من الحياة، ولا من الأرض شيء»[1].

والتاريخ العربي، بعد عليّ، سيقدّم لنا شواهد لا تحصى من استئثار الحكّام بالأرض والأموال والأرزاق ومن لجوئهم إلى أسطورة «الحق الإلهي» الذي هو حقّهم يعطون من يشاؤون ويحرمون من يشاؤون وليس لأحد أن يعارضهم فيما يفعلون لأن الأرض ملك الربّ وهم ممثّلوه على الأرض فهي، إذن، ملكهم!!

أمّا عليّ بن أبي طالب، فتتوضح الأمور في عقله على صورة رائعة! لقد أدرك أن الأرض ملكُ مَن يعمل فيها، وأنها لا يخربها إلاّ عَوَز أهلها ولا يعمرها إلاّ المفيدون منها. فهم إمّا ذهبتْ أتعابهم إلى حلوق الحكام

---

(١) «من هنا نبدأ» لخالد محمد خالد ص٢٦.

وبطون المترفين وأكياس الولاة وجيوب المحتكرين، تهاونوا وأهملوا، وابتأست حالهم ومن حقهم ذلك! وهم إمّا ذهبتْ أتعابهم إلى أولادهم، ثم إلى بيت مال الدولة التي تُعنى، فعلاً، بالمصالح العامة، أقبلوا على العمل وثبتوا فيه، وانتعشت حالهم وانتعشت فيهم الدولة.

إن رضا الشعب بهذا الصدد هو، في نظر عليّ، المقياس الوحيد لصلاح النظام وصلاح الحاكم. أما الضغط والقسْر فهما من سقط التدبير. يقول عليّ: «وإن أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودّة الرعية، وأنه لا تظهر مودّتهم إلاّ بسلامة صدورهم، ولا تصحّ نصيحتهم إلاّ بقلّة استثقال دُوَلهم!».

ولتقديس العمل في الأرض، وكل عمل، ووضْع الحدود الحصينة دون البطالة ودون التمنّع عن العمل، قرّر عليّ أن الأساس في تفضيل الناس بعضهم على بعضٍ هو العمل، لا الحسب الموروث ولا السيادة المصطنعة. كما قرّر إثابةَ كلٌ بما يعمل. وشدّد في ذلك حتى عُرف بانتصاره لمن يعمل، وخذْله لمن يسأل أو يطلب ولا يعمل عملاً يفيد به، وتفيد الجماعة. وقصّته مع أخيه عقيل بن أبي طالب إذ جاء يطلب من بيت المال مالاً بغير جهدٍ بذله فردّه خائباً، قصة معروفة. وليس في نظر عليّ ما هو أبعد عن العدل مِن ألاّ يثاب عاملٌ على عمله؛ ومِن أن يذهب جهد عامل إلى صدق مستثمرٍ مستغلٍّ؛ ومِن أن يضيع على العامل بعضُ عمله مهما كان هذا البعض قليلاً؛ ومن أنْ يكون في الأعمال المتقنَة ما هو صغيرٌ وكبير!

فربّ عامل «دائب مضيّع، وكادح خاسر» في زمنه، وهو يأبى ذلك! اسمع هذا القول الخالد، الذي يبقى في أصول الدساتير الاجتماعية والإنسانية ما بقي المجتمع والإنسان.

«ثم اعرف لكل امرىءٍ منهم ما أبلى ـ أي ما عمل ـ ولا تُضيعَنّ بلاء

امرىء إلى غيره. ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه. ولا يدعونّك شرف امرىءٍ إلى أنّ تعظّم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً!».

فعمارة الأرض، والمكافأة العادلة على العمل، هما الأساس السليم الذي ارتأى عليّ أن يبني عليه مجتمعاً سليماً. جاءه مرةً أهلُ إقليمٍ من الأقاليم يقولون له إنّ في بلادهم نهراً قد طمرت الأيام مجراه فعَفا، وأنّ في حفْره من جديد خيراً لهم. ورجوه بعد ذلك أن يأمر عامله على إقليمهم بأن يسخِّرهم في احتفار هذا النهر الدارس. فما كان من عليّ إلاّ أن قبل فكرة احتفار النهر، غير أنه أبى عليهم ما ارتضوه لأنفسهم من التسخير. فكتب إلى عامله واسمه قرظَة بن كعب، يقول:

«أما بعد، فإن قوماً من أهل عَمَلك أتوني فذكروا أنّ لهم نهراً قد عفا ودرس، وأنهم إنْ حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم، وقووا على كلّ خراجهم، وزاد فيء المسلمين قِبَلهم. وسألوني الكتاب إليك لتأخذهم بعمله وتجمعهم لحفْره والإنفاق عليه. ولستُ أرى أن أجبُر أحداً على عملٍ يكرهه. فادعُهُم إليك، فإن كان الأمر في النهر على ما وصفوا فمَن أحبّ أن يعمل فمُرْه بالعمل. والنهر لمن عمل دون من كَرِهه. ولأنْ يعمروا ويقووا أحبّ إليّ من أن يضعفوا. والسلام».

فليس التسخير مما يجوز في شرع عليّ وإن رضيَ الناس أن يُسخَّروا. بل العمل هو الشريعة والقاعدة. يقول عليّ: «وأُمرتم بالعمل». أما النهر فلن يكون فيه نصيبٌ إلاّ للذين يعملون فيه. ثم إنّ الذين يكرهون العمل لا يجوز إجبارهم عليه. والعمل بالرغبة، دون إكراه أو إجبار، أمرٌ يشدّد عليه ابن أبي طالب في كل شأن. وهو يشدّد عليه مشيراً تارةً وطوراً مصرحاً. ومن دستوره في ذلك هذا القول الصريح الذي جعلَه قاعدةً في ما يتعلّق بالعمل: «ألاَ فاعملوا في الرغبة!».

وبهذه النظرة العميقة لأحوال العمل والعامل، استطاع عليّ أن يسبق مفكّري الغرب بما ينيف عن ألف عام. ثم إنه ركّز نظرته هذه على أساسٍ من العدالة لا أرفع منه ولا أعقل. فهو لا يجبر الناس على العمل وإنْ مفيداً. لأن فكرة الإجبار بحدّ ذاتها انتقاصٌ من القيمة الإنسانية وإساءةٌ إلى الحرية الخاصّة ثم إلى العمل نفسه الذي لا تكتمل شروطه بالإكراه. ولكنه يدفعهم إليه، من جهة ثانية، بأن يجعل خيرات هذا العمل من نصيب العاملين وحدهم: «والنهر لمن عمل دون من كرهه». ثم، أليستْ هذه النظرة هي أحد الأسس الرئيسية التي تقوم عليها النظريات الاجتماعية الصالحة في القرن العشرين!

إذن، فلكلٍّ أن يعمل! وليس هنالك صغير ولا كبير إلا بما يعمل! ولكلّ من يعمل جزاء عمله! وليس للبطِر الكسول ومن يدّعي الشرف ونبل المحتد أن يذهب إليه شيء من تعب الكادحين مهما كان هذا الشيء قليلاً! وإنّ الله إنْ أحبّ أحداً فإنما «يحب المحترفَ الأمين» كما يقول عليّ.

وإذا جاء العمل النافع بالملكية، فإن هذه الملكية من حق الأفراد بالطبع. غير أنها لا تكون ـ بجملتها ـ من حقهم إلا بمقدار ما ينسجم ذلك مع مصلحة الجماعة. أما إذا كانت المصلحة العامة تقضي بالحدّ من هذه الملكية فهذا ما يجب أن يصار إليه، لا تردّدَ في ذلك ولا جدال! فإن كل ملكية لا بدّ لها من أن تخدم الجماعة، لأن العبرة فيها هي: المنفعة العامة إلى جانب المنفعة الخاصة! وإذا فُهمت حدود الملكية على هذا النحو، كانت سبباً رئيسياً في القضاء على تضخّم المال وعلى خلق الطبقية الاقتصادية في المجتمع.

أمّا إذا كان في المجتمع قوم لا يستطيعون العمل لعجز أو قصور، كالطفولة اليتيمة أو كالرقة في السن، فهل يهمل الإمام عليّ حق هؤلاء في الحياة الكريمة كما تهملهم المجتمعات العربية اليوم، مثلاً؟ أم أنه ينظر إليه

بعين الإنسان العادل، القائم بأصول نظرته على المقاييس الإنسانية التي تتبنّاها المجتمعات العادلة الصحيحة؟

إن للجماعة على الفرد حقوقاً. وإن للفرد على الجماعة مثل هذه الحقوق. والشعب جسم واحد متكافل متعاون، وكل فرد فيه يثاب بما يعمل. وقد «قسم الله بين الناس معايشهم» فليس من حق أحد أن يستأثر بمعيشة سواه. أما العاجز عن العمل، أي عمل، كالطفل والشيخ، فعلى الجماعة أن تقوم بحاجاته. عليها إنصافه مثل إنصاف غيره من الناس. وهذا حقّ للفرد على الجماعة، لا منّة ولا عطف! واجب مركّز، لا برّ ولا إحسان! أما المسؤول المباشر عن إقامة هذا الحق، فالدولة بأشخاص ممثليها. يقول الإمام عليّ: «فإن هؤلاء من بين الرعيّة أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم. وتعهّد أهل اليتم وذوي الرقة في السنّ[1] ممّن لا حيلة لهم!» وإذا لم يكن عليّ ليُطلق على هذا الأصل من أصول تدبيره الاجتماعي لفظ «الضمان الاجتماعي» أفلا نرى، نحن، أنه سبق ألوف المفكرين الغربيين إلى إدراك هذه الضرورة الاجتماعية، وإلى جعل العمل بها واجباً من واجبات الدولة، لا عطفاً من «جود» المحسنين، ولا غيثاً من سماء الغيورين، ولا شَرَكاً من أشراك المنافقين!!

فإن عليّاً الذي يرى أن الفقر هو الموت الأكبر، وأن الفقير غريبٌ في بلده، لا يريد أن يُقطَع الفقرُ والجوع بثمنٍ من المنّة المهينة والعطف الكاذب من جهة الحاكم. ولا بثمنٍ من الخضوع والمذلّة والمسكنة من جهة المحكوم. لذلك يقرر هذه الحقيقة تعظيماً لكرامة الإنسان إذ يقول: «الجوع خيرٌ من ذلّ الخضوع!» فعلى المرء أن ينال حقّه ونفسُه في عافية لأن «شر الفقر فقر النفس!».

(١) الذين تقدمت بهم السن فعجزوا عن العمل.

وممّا يدخل في باب رفع الحاجة عن الشعب، ذلك الاهتمام العظيم الذي كان يبديه عليّ نفسه بما كان «الأشراف» من العمال في عهد عثمان لا يقيمون له وزناً، وبما لا تعيره أكثر حكومات العالم العربيّ اليوم التفاتاً، وذلك لـ «صغر» شأنه من جهة، ولانشغالهم بما يسمّونه «سياسات عليا» من جهة ثانية.

أما هذا الشيء «البسيط» فلم يكن بسيطاً في نظر عليّ، لأن عليّاً كان عظيماً حقاً، والعظمة والبساطة تلتقيان أبداً، وأعني به: الاهتمام بأحوال السوق التي يباع فيها المتاعُ والقوت، وبدراهم العامّة التي يسطو عليها التجّار فينهبونها بواسطة الكيل والميزان والسعر. وحين نعلم اليوم أنّ غلاء أسعار الملح ـ وهو شيء لا قيمة له في حساب أكثر الحكّام المشارقة ـ كان في جملة الأسباب الرئيسية التي عجّلت بإيقاد نار الثورة الفرنسية، ندرك قيمة آرائهم في ما هو بسيط وغير بسيط من الأمور، كما ندرك قيمة سياستهم «العليا» الباردة!.

لم يكن عليّ صاحب سياسات «عليا» بل صاحب عدْلٍ في الحكم وأمانةٍ في العمل. لذلك كان يغتدي صبيحة كلّ يوم فيطوف بنفسه أسواق الكوفة ويتفقد بنفسه أهل كلّ سوقٍ منها، ويفحص بنفسه أحوال الشارين والبائعين، ويحمل المخالفين من التجّار قسْراً على أن يكونوا بشراً لا جزّارين، ويقف على رؤوسهم مذكّراً إيّاهم بالعقاب إن هم احتكروا أو اختلسوا أو بخسوا الناسَ اليسير من حقوقهم، ثم يناديهم قائلاً:

«يا معشر التجار إلخ..»[1].

لقد اقتنع ضمير عليّ واقتنع عقله بأن الناس في المعاش أُسْوة. وبأن هذه الحقيقة إنما هي ضرورةٌ من ضرورات الحياة وأسلوبٌ في دفع الفرد

---

(١) راجع النص في ص١٤٤ من هذا الكتاب.

في طريق الحرية، وعاملٌ على بناء المجتمع بناءً صحيحاً. فإذا هو يجعل المساواة في الحقوق قانوناً. ثم يقرّر على ضوء هذا القانون أن أهل الحاجة أولى من أهل السابقة في الإسلام بالأموال العامّة، وأنّ الحاجة نفسها تعادل الجهد المبذول والعمل النافع في الاستحقاق؛ فهي، على هذا، مبرر للحصول على المال وتملّك الأرض!

وكانت وصايا الإمام لعماله على الأمصار تتلاحق وفيها أوامر مشدّدة برفع كل حجز، وعدم استيفاء الضرائب من أهل الحاجة؛ ثم بمساعدة هؤلاء كي تُقبل عليهم الأرض بالخير. فيما كان يأمر باستيفاء هذه الضرائب أضعافاً مضاعفة من الأغنياء كي يثري بيت مال الجماعة تحقيقاً لما يمكن تحقيقه من المساواة بين الناس!

وكم يصغر في نظرنا، اليوم، في عصر إعلان حقوق الإنسان، أن نرى الكثير من حكومات هذا الشرق السعيد، الفريد في سعادته، تُثقل أهل الحاجة من الشعب بالضرائب تستوفيها من قُوتهم الضروري، ومن دمهم، بالتهديد، والوعيد، والحجز، وبيع ما لديهم من ضئيل الممتلكات تحت أعينهم، وبما إلى ذلك جميعاً من وسائل العصور الفرعونية، أو القراقوشية، أو السلطانية. مع العلم بأن هذه الحكومات لا تعرف شيئاً عن حقيقة هذا الشعب الذي تريد أكله، ولا تعترف له بحقوق، ولا تعمل على رفع الحاجة عنه كي يستطيع مكافأتها على «جهودها» المشكورة!

وكم يعظم في نظرنا ابنُ أبي طالب حين يقول لكلٍّ من عماله، وهو يراقبهم كي لا يقصروا أو يهملوا، وكان ذلك من بضعة عشر قرناً: «لا تبيعَنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف؛ ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعتملون عليها. ولا تضربنّ أحداً منهم سوطاً لمكان درهم. ولا تقمْه على رجله في طلب درهم. ولا تَبع لأحدٍ منهم عَرَضاً في شيء من الخراج فإنما

أمرنا أن نأخذ منهم بالعفو!». «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج!».

❀ ❀ ❀

لقد أدرك الإمام عليّ الحقيقة الكبرى في تكوين المجتمع الطبقيّ، فصاغها بهذه الكلمات القلائل، في ذاك العهد البعيد، بعد أن فصّلها وأوضحها في أكثر من مكانٍ من عهوده ووصاياه، قال: «ما جاع فقيرٌ إلاّ بما مُتّع به غنيّ!».

هذه الحقيقة الكبرى، التي تقيم عليها الأنظمة العادلة اليوم، قواعدَها في العلاقات الماديّة بين الناس، سبق لابن أبي طالب أن أدركها منذ بضعة عشر قرناً، وأنْ فصّلها بما يسمح به زمانه من قواعد وأصول.

حدثني الكاتب اللبناني الصديق ج.ح. قال:

يوم كنت في أحد البلدان الأوروبية التي تسعى في تحرير الإنسان من العوَز والفاقة وويلاتهما، قلت لوزير معارف ذلك البلد: نحن العرب، سبقناكم أكثر من ألف عام إلى إدراك حقيقة المجتمع الطبقي التي تعملون أنتم اليوم على توضيحها. فقال الوزير الأوروبي: وكيف كان ذلك؟ قال: منذ بضعة عشر قرناً قال عليّ بن أبي طالب: «ما رأيت نعمةً موفورة إلاّ وإلى جانبها حقّ مضيع». فقال الأوروبي: إنما نحن أفضل منكم! قال: لمَ؟ وكيف؟ قال: لأن عربياً منكم اكتشف هذه الحقيقة منذ بضعة عشر قرناً وأنتم ما تزالون في مظلمةٍ اجتماعية، فيما طبّقناها نحن قبلكم. فأنتم متأخرون عنّا بضعة عشر قرناً في هذا المعنى!

وقبل أن أختم هذا الفصل لا بدّ من قولٍ أوجز به كل ما تقدم، ثم أدعو القارىء لأن يقابل بين أحدث النظريات الاجتماعية السليمة، وأُسُس النظرية الاجتماعية العلوية:

يمكننا تلخيص فلسفة المجتمع عند عليّ بعبارات تِسْعٍ يقوم عليها تصويره لأحوال المجتمع من حيث الثراء والفقر، ومن حيث الطبقية المالية، ثم يجري عليها دستوره في رفع الحاجة عن العامّة والمساواة بين الناس جميعاً في الحقوق والواجبات. أمّا العبارات التسع، فهي:

امنع من الاحتكار.

ما جاع فقيرٌ إلاّ بما مُتّع به غنيّ.

ما رأيت نعمة موفورة إلاّ وإلى جانبها حق مضيع.

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج.

لست أرى أن أجبر أحداً على عمل يكرهه.

قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل.

النهر لمن عمل دون من كرهه.

اعرفْ لكلّ امرىءٍ منهم ما أبلى ولا تضيعنّ بلاء امرىءٍ إلى غيره

إيّاك والاستئثار بما الناس فيه أسوة.

فإذا أنت أمعنت النظر في هذه العبارات، أدركتَ أنها أصولٌ عميقة في بناء كل مجتمع صحيح تُحفظ فيه حقوق الإنسان وتُرعى فيه الحرية الإنسانية بأروع معانيها وأوسعها. أصول تقوم عليها النظريات الاشتراكية الحديثة ولا تخالفها في شيء.

وبعد. فليبارك القارىء هذا العقل العربي الجبّار!

لا تعصب وَلاَ إطلاَق

- وإذا وُجدتْ رابطة الإخاء الإنساني بصفة الإنسان وحدها، فما في ذلك إثم!

- وكيف يغرق هؤلاء من المواضيع الحيَّةِ في مُطْلَقَاتٍ لا تجوز حتى في جماد الطبيعة! وكيف يتَّخذون من قياسات الوزن والمساحة حدوداً للإنسان الذي لا يُحَدّ، وللحياة المتحركة المتطوّرة التي تأسَنُ إما حُدِّدتْ بإطلاقٍ ويلزمها الانقباض، فإذا هيَ لا حياة وإذا هو لا إنسان!

ويتابع عليّ بن أبي طالب سيره الصاعد في الطريق الرحب. فيقرّر للإنسان، على تُخوم حقوقه في المعاش، حقوقاً أُخرى لا يكتمل إلاّ بها. ويجوز كل نطاقٍ إلى الحدود الإنسانية البعيدة لا تقف عند عقيدةٍ معيّنة ولا تنتهي عند تخوم العنصريَّة الضيّقة المؤذية. وذلك تأكيداً لكرامة الجنس البشريّ بكافّة عناصره ومقوّماته الماديّة والأخلاقيَّة.

يأبى ابنُ أبي طالب أن يفرض على الناس عقيدة معيّنة فيما يتعلّق بالدين أو المذهب. وفي كلّ ما له صلةٌ قريبةٌ أو بعيدة بالوجدان الخالص وحياة الإنسان الداخلية التي تتصوّر وتتلوّن بصورٍ وألوانٍ نابعةٍ من الذات أو حاصلةٍ من ارتباطات الإنسان بالبيئة الخاصة والعامة. فهو، وإن كان خليفة النبي وحصن الإسلام وأمير المسلمين، يأبى أشدّ إباء أن يفرض على أحد

من الناس أن يؤمن بما يؤمن به المسلمون ديناً. فالناس أحرار في أن يؤمنوا بالله على ما يرون. وأن يعتقد كل منهم على طريقته في الاعتقاد شرط ألاّ يلحق ذلك الأذى بالجماعة. والخلق كلهم عيال الله، والدين هو المعاملة.

وصفةُ الإنسان كافية في نظر الإمام عليّ لأن تجعله محترماً، محبوباً، مرفوقاً به، معطوفاً عليه، غير مهدور حقّه. يقول في رسالته إلى عامله على مصر: «ولا تكوننّ عليهم[1] سَبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. ولا تندمنّ على عفوٍ ولا تَبْجَحَن بعقوبة!».

إذن، فلكلّ إنسان من الحقّ مثل ما لك وإن اختلف عنك ببعض ما يعتقد، أو بكلّ ما يعتقد. والدين نفسه، أليست غايته أن يشدّك إلى الآخرين برابطة الإخاء؟ فإذا وُجدتْ رابطة الإخاء بصفة الإنسان وحدها، فما في ذلك إثم!

وهو، على كل حال، يريدك ألاّ تجعل رأيك في أمرٍ من أمور الحياة والأحياء مدار الحكم والقياس المطلق. فالحياة واسعة الحدود والأحياء في هذه السعة دائرون، فما عليك أن تقيم نفسك الحكَمَ الأول والأخير على تصرّفات الخلق وهم لا يلحقون بك الأذى. وما أدراك! فرُبّ أمرٍ تخاله عظيماً وهو في سعة الوجود غير عظيم. وربّ امرىءٍ تستصغر شأنه وهو، لو عرفتَ، أرفع منك شأناً! يقول الإمام نصّاً صريحاً: «فلا تستصغرنّ عبداً من عبيد الله فربّما يكون وليّه وأنت لا تعلم!» فإذا أنت حملتَ هذا القول الحكيم إلى مداه البعيد، أدركتَ موقفه الصريح من التعصب والإطلاق!

---

(١) أي على الناس جميعاً.

وإذا كان أخوك على خطإ أو إساءة، فعليك أن تعطيه من عفوك وصفحك وألاّ تندم أبداً على عفو وصفح. ثم عليك أن «تحصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك». وعلى ابن آدم، أيّاً كان معتقده، «أن يكون وصيّ نفسه» وأن تكون صلته بغيره صلةَ من يحبّ لغيره ما يحب لنفسه، يكره له ما يكره لها: «فأحببْ لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك». ثم إن المؤمن الحقّ «لا يدع للخير غايةً إلا أمّها». والخير كل الخير هو العدل في الخلق لا فرقَ بين واحدهم والآخر. ثم إنّ مَن قابَلَ الدنيا على منهاج محمد لا يختلف في شيء عمّن يقابلها على منهاج المسيح، أو على منهاج كلّ مَن تمثّلت به الفضائل الإنسانية. فالمهمّ في نظر عليّ هو الدنوّ من الفضيلة. أما الوسائل فالناس فيها أحرار. يقول عليّ:

«وقد كان في رسول الله، كافٍ لك في أسْوة، إذ قُبضتْ عنه أطرافها - أطراف الدنيا - وفُطم عن رضاعها، وزُوي عن زخارفها. وإن شئتُ قلتُ في عيسى ابن مريم، فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخَشِن ويأكل الجَشِب. وكان إدامه الجوعَ وسراجه بالليل القمرَ، وظلاله مشارقَ الأرض ومغاربها، وفاكهتُه وريحانه ما تُنبت الأرض للبهائم. ولم تكن له زوجةٌ تفتنه ولا ولدٌ يحزنه ولا مال يَلْفِتُه، ولا طمعٌ يذلّه. دابّته رجلاه وخادمه يداه!» ويقول في مكان آخر: «أولئك قومٌ اتّخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءَها طيباً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح!» والحقيقة التي أدركها محمد ساعةَ قال: «الأنبياء إخوةٌ أمّهاتُهم شتى ودينهم واحد» أدركها عليّ ساعةَ قال في محمّد: «ومضى على ما مضى عليه الرسلُ الأوّلون». وفي هذين القولين اعترافٌ لا يقبل تأويلاً بأن الفضيلة إنما هي التي تجمع الناس، كما تجمعهم في الأصل الصفةُ الإنسانية.

فحرية العقيدة الدينية حق من حقوق الناس في دستور الإمام عليّ.

فبما أن الحرية لا تُجزّأ، فإن الإنسان لا يمكنه أن يكون حراً من جانب ومقيداً من جانب آخر. فالمسلم أخو النصراني شاء أم أبى، لأن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره! ولو لم يكن الدنوّ من الفضيلة هو المقياس الأصيل في دستور الإمام في الحرية، ولو لم تكن الحرية الفاضلة حقّاً مقدّساً لديه، لَمَا امتدح مَن يسيرون على منهاج المسيح كما امتدح من يسيرون على منهاج محمدا وقد سبق لنا أنْ ذكرنا خبر عليّ مع النصراني الذي سرق له درعه وادّعى أنه اشتراها. وكيف عامله معاملة الندّ للندّ، أو الأب للابن. ثم ما كان من شأنهما أمام شريح القاضي، وكيف أصبح النصراني في عداد من ناصروا الإمام بدمهم وحياتهم!

ولطالما ردّدت جنبات الحجاز والعراق أخبار عليّ في إنصاف صاحب هذا الرأي ممّن يدين بغيره من الآراء إذا حدّثته نفسه بأن ينحرف به عن معتقده أو يجور عليه. ولطالما شاهد الناس عليّاً يعتمّ بعمامته الخضراء ويردّد على أسماعهم ما قاله، مرةً، في مسجد المدينة، جادّاً كلّ الجدّ:

«مَن آذى إنجيليّاً فقد آذاني!» ولطالما فخرَ تاريخنا العربيّ وهو يسجّل في أجمل صفحاته هذا القولَ العملاق التاريخ العربيّ عليّ بن أبي طالب:

«ولو ثُنيتْ لي وسادةٌ فجلستُ عليها لحكمتُ في أهل التوراة بتوراتهم، وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم، وفي أهل القرآن بقرآنهم، حتى تركتُ كلّ كتابٍ ينطق من نفسه: لقد صدق عليّ!».

ثم اسمعْ ما يأمر أميرُ المسلمين به معقل بن قيس:

«اتّقِ الله يا معقل ما استطعت. لا تبغِ على أهل القبلة[1] ولا تظلم أهل الذمّة، ولا تكبّرْ فإن الله لا يحب المتكبرين!».

---

(١) أهل القبلة: المسلمون.

أرأيت كيف يحدّد عليّ اتّقاء الله بألاّ يظلم الإنسانُ أخاه الإنسان وبألاّ يبغي عليه في كثيرٍ أو قليل؟

ثم أرأيت كيف يجعل المسلمين وغير المسلمين في درجة واحدة لا تمايُز بينهم ولا تفاضُل؟

ومثل هذه التسوية بين المسلمين وغير المسلمين في حكم عليّ نراها أنّى اتّجهنا معه.

فهو إمّا تحدّث إلى المسلمين عن أحوالهم جَعَلَ رفْع الظلم عن كواهل الناس أُولى ما يجب أن يتحلّوا به من فضائل الإسلام فقال:

«ولو سلكتم الحقّ... وأضاءَ لكم الإسلام، لمَا ظُلم منكم مسلمٌ ولا معاهَد»[1].

وهو إمّا عنّف المسلمين لتخاذُلهم عن نصرة الحقّ ورفْع الظلم عن مدينة الأنبار ساعةَ غزاها سفيان بن عوف الأسدي ونكّل بأهلها، عَنّفَهم لأنهم لم يدفعوا الظلم عن إخوانهم وأخواتهم من أبناء المدينة لا فرقَ فيهم بين مَن أسلم أو عاهَد، قائلاً:

«...ولقد بلَغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حِجْلها إلخ... فلو أنّ امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به مَلوماً».

وهو إمّا بعث بعهدٍ إلى محمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر بعث إليه يقول:

«أوصيك بالعدل على أهل الذمّة، وبإنصاف المظلوم وبالشدّة على الظالم وبالعفو عن الناس والإحسان ما استطعت! وليكن القريب والبعيد

---

(١) أهل الذمة، أو المعاهدون: الداخلون في ذمة المسلمين من أهل الكتاب.

عندك في الحق سواء».

لقد أمره بالعفو عن جميع الناس، بعد أن لفت نظره إلى أهل الذمّة تمكيناً لفكرة التسوية بين الناس في ذهنه.

ومن عهده إلى نصارى نجران هذه العبارة: «... لا يضاموا ولا يُظلموا ولا ينقص حقٌّ من حقوقهم!».

وجعل عليّ ديّة النصراني كديّة المسلم!

وكان هذا الموقف يقفه عليّ من التعصب انبثاقاً طبيعياً عن شخصية صاحبه القائل في روح الوجود الشامل:

«ولا يلويه شخصٌ عن شخص، ولا يُلهيه صوتٌ عن صوت!».

إن لكل إنسان كرامةً عند عليّ. وإن لكلّ صوتٍ سامعاً.

وعلى الرغم من تعصّب أهل الجهل والغباء من أبناء كل دينٍ في العصور الغابرة، فإن هذه الحقيقة عن عليّ جعلتْ عارفيه من نصارى العرب، في زمانه وبُعيْد زمانه، من أشدّ الناس حباً له وتعلّقاً به. وقد أشار ابن أبي الحديد إلى ذلك في شرح النهج قال: «وما أقول في رجلٍ - يعني علياً - تحبّه أهل الذمّة على تكذيبهم بالنبوّة الخ»...

ولقد بنى عليّ معاملته لغير المسلمين على قوله هذا: «أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا!».

وأرادها سُنّةً مِن بعده!

❁ ❁ ❁

إذن، فالتعصّب الديني مذمومٌ في منطق عليّ. وهو مغاير لأبسط قواعد الحرية التي يؤمن بها على أوسع نطاق ويقيسها بأرحب المقاييس. وإذا نحن قابلنا بين موقفه هذا ممن لا يدينون بمعتقده، وبين رجال

«الإيمان» الأوروبيين في العصور الوسطى، ولاسيما القائمين على محاكم التفتيش، ثم بين سماحة السَمْحِ وتشدّدهم المقيت، لرأيناه يسمو حيث ينحدرون. ولا عجب في ذلك، فالإيمان عند عليّ كان نابعاً من أصوله الإنسانية، ومن نظرته العامة إلى الحياة والوجود. فيما كان إيمان الكثيرين من أُولئك مظهراً من مظاهر العبودية التي انقلبت فيهم إلى عادة، لا أصالة إنسانية فيها، ولا جمال!

ونحن، إذا حاربنا اليوم التعصب الديني أو المذهبي، وما عاد التعصب الديني بذي شأن على كل حال، فإن بعض الأمم قد أبدلتْ به تعصّباً أفتك وأخطر: تعصّباً للقوميات أو العنصريات؛ أو تعصّباً للمذاهب السياسية لا يعفو ولا يعذر ولا يقابل الإنسان بصفح أو سماح! وفي ذلك ما فيه من رعونة وغباء وأثرة مؤذية. فإن المتعصّب يعترف لك، ضمناً، بأنه مالكُ الحق ولا حقّ إلاّ بين يديه! وأنّ نظرته إلى الدنيا هي النظرة! وأن رأيه في شؤون الإنسان والحياة مطلقٌ لا يجوز فيه تعديلٌ ولا يعدِلُهُ رأي! فإذا بهؤلاء المتعصبين للعنصريات أو للمذاهب السياسية يغرقون في المطلقات من حيث يعرفون أو لا يعرفون! والغرق في المطلق، فيما يتعلق بالمذهب والمسلك، شيء من الجمود، فالموت! وكيف يغرق هؤلاء من المواضيع الحيّة والجارية من حالٍ إلى حال، في مطلَقاتٍ لا تجوز حتى في جماد الطبيعة! وكيف يتّخذون من قياسات الوزن والمساحة حدوداً للإنسان الذي لا يُحدّ، وللحياة المتحرّكة المتطوّرة التي تأسَنُ إمّا حُدّدتْ بإطلاقٍ ويلزمها الانقباض، فإذا هي لا حياة وإذا هو لا إنسان!

وكأنّ هذا التعصّب بكافّة ألوانه من طباع بعض الناس من قديم الزمان. فهذا الإمام الجليل لا يفرَغ من محاربة التعصب الديني حتى يعود ليحارب التعصّب بسائر أشكاله ومظاهره. وهو يرى في التعصب للقبيلة أو للعنصر بغْياً وإفساداً ثم تشويهاً لوجه الحياة الجميل. ويرى في الفخر

بالآباء ضرباً من ضروب هذا التعصّب فيُخزيه. اسمعه كيف يخاطب أهل العصبيّة من أبناء زمانه:

«ألاَ وقد أمعنتم في البغْي وأفسدتم في الأرض! فاللَّهَ الله في كِبْر الحميّة، وفخر الجاهلية. فإنّه مَلاقِحُ البغضاء ومنافخ الشيطان التي خدع بها الأممَ الماضية والقرون الخالية!

«ألاَ فالحذرَ الحذرَ من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم وترفعوا فوق نسبهم ـ أي احتقروا غيرهم من الناس وتعصبوا عليهم ـ وجاحَدوا الله على ما صنع، فإنهم قواعدُ أساس العصبيّة ودعائمُ أركان الفتنة!».

وبعد أن يجعل التعصّب للقبيلة والعنصر بغياً وإفساداً وتشويهاً لوجه الحياة، ثم يقرنه إلى الفتنة، يعود ليطلق هذا المذهب الحكيم في معنى التعصّب أيّاً كان لونهُ، مقرّراً قاعدة لا أراها تزداد مع الأيام إلاّ رسوخاً، يقول:

«ولقد نظرتُ فما وجدتُ أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلاّ عن علةٍ تحتمل تمويهَ الجهلاء، أو حجّةٍ تليط بعقول السفهاء!».

وليرجع الراجعون إلى كلّ ما قيل في معنى التعصب، فإنهم لن يجدوا في أصوله أكثر من هذا الأصل المزدوج الذي ذكره ابنُ أبي طالب: فإمّا أنْ يتعصب المتعصبون عن جهل وإمّا أن يتعصبوا عن سفاهة! وكِلا الجهل والسفاهة يحتملان البغيَ والإفسادَ والكبر على الحياة، وهي ما صوّرها ابنُ أبي طالب في قولَيْه السابقين!

وهكذا، فإن كلّ تعصّب مذموم في عقيدة ابن أبي طالب. اللهمّ إنْ لم يكن تعصّباً للفضيلة والعدالة والحقوق العامّة! اللهم إن لم يكن تعصّباً لإنصاف الطبقات المظلومة من ناهبيها ومحتكري خيراتها! اللهمّ إن لم يكن

تعصّباً للاستقامة والصدق وسلامة الضمير! اللهمّ إن لم يكن تعصّباً للحرية نفسها ولكرامة الجنس الإنساني! اللهمّ إن لم يكن تعصّباً لإنصاف الخلق من المتعصّبين للأذى! يقول الإمام في خطبته المسمّاة بالقاصعة:

«فإنْ كان لا بدّ من العصبية فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ومحاسن الأمور والأخلاق الرغيبة والأحلام العظيمة والآثار المحمودة، والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي والإنصاف للخلق واجتناب المفاسد في الأرض!».

ومن آياته في الاندفاع مع الطبيعة الخيّرة التي تكره التعصّب لفكرةٍ أو لحالةٍ راهنة أيّةً كانت، وصيّته بالخوارج وقد قسطوا عليه وحاربوه ملءَ قواهم قال:

«لا تقاتلوا الخوارج من بعدي. فليس مَن طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه!».

ولكي يجعل الإمام في أفهام الناس أن التعصّب لا يعني إلاّ اعتراف المتعصّب بأنه لا يخطىء، يأمر بالمشورة ثم يعطي المثل بنفسه فيقول: «فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحقّ، أو مشورةٍ بعدل، فإني لستُ في نفسي بفَوْقِ أن أخطىء!».

الحَربُ وَالسِّلم

- هلكَ من ادَّعى وخاب من افترى.
- الغالب بالشرّ مغلوب.
- بئس العدوان على العباد.
- إنّ في الصلح أمناً للبلاد.
- حُطْ عهدك بالوفاء، ولا تغدرنَّ بذمّتك ولا تخيسنَّ بعهدك ولا تختلنَّ عدوّك ولا تقوّينَّ سلطانك بسفك دمٍ حرام.

عليّ

وللإنسان على الإنسان حقوقٌ كثيرةٌ فوق هذه. في طليعتها عقْد حبل المودّة والألفة بين الناس أفراداً وجماعات، قبائلَ وشعوباً. الناس الإخوة الذين يجمعهم أصلٌ واحد، وطريقٌ مشتركة، وغاياتٌ لا تتباعد.

فإنّ الحرية، واليُسر، والأنظمة الموضوعة، والأعمال الموروثة، والمساعي المستحدثة، وغيرها ممّا يتعلق بالإنسان، أمورٌ لا معنى لها ولا مبرّر للنظر فيها، مع الحرب التي تمحق الإنسان ومن أجله كانت كلّ تلك الأمور!

وكلّ قولٍ يدّعي خدمة الإنسان ولا يدعو إلى السلم، هو قولٌ كاذبٌ وخُلقٌ لئيم!

وكلّ عملٍ يدّعي خدمة الحياة ثم يدفع الأحياءَ إلى الموت تحت سنابك الخيل وشظايا الحديد، هو عملٌ منافق وشيء عقيم!

وكل نظرٍ في حال الإنسان وحال الحياة لا تتبعه الدعوة إلى المؤاخاة بين البشر الإخوة، هو نظرٌ عاجزٌ ورأيٌ سقيم!

فما أعجزَ القول والعمل والنظر ساعة تنقلب الأنهار دماءً والرياض صحارى ويطلع الشوك في القصور!

وما أعجز القول والعمل والنظر ساعةَ يرتفع الإنسان كالعُصافة في طريق الزوبعة، ويُطرَح في أشداق حربٍ تأكله أكلاً عظيماً فإذا هو لا شيء! وإذا جمالات الحياة وأمنياتها قد أصبحتْ عدَماً وخَواء! وإذا البوم تهبط إلى خرائب عمرانه فتقرّ فيها وتجد لنفسها محلاّ!

وإذا كانت الحرب مَهْلكةً فالسلم وحده مَنجَاة! وهو، إلى ذلك، الغاية الموصلة إلى غايات: هو الحالة التي تمكّن أبناء الإنسانية الواحدة من أن يستخدموا مواهبهم وطاقاتهم جميعاً، ويتعاونوا في مساعيهم الواحدة، ليبلغوا أمانيهم المشتركة الواحدة، مرحلةً مرحلة.

وابن أبي طالب الذي تتماسك مذاهبُه في كلّ ميدان تماسكَ الفروع النامية على أصلٍ واحد، يدرك أن السلم سياجٌ عظيم يشيد حول الإنسان وحول الحياة فيمنع عنهما كلّ شرّ.

يخاطب ابنُ أبي طالب الناس قائلاً: «إن الله لم يخلقكم عبثاً!».

ولِمَ خلق الله الناس في مذهبه؟

إنه يجيب عن هذا السؤال بنفسه، يقول: «إن الله خلقكم حَرَماً في أرضه وأمْناً بين خلقه... وجمعَ ألفتكم فنشرت النعمةُ عليكم جناح كرامتها وأسالت لكم جداول نعيمها!».

فالألفة إنْ هي إلاّ نعمة الوجود على الناس في مذهب عليّ. وإليك قبَساً من الدفء والحنان العظيمين اللذين يشيعان في قلب ابن أبي طالب وعلى لسانه ساعة يتحدّث عن السلام والألفة، يقول:

«وعقد الله بينهم حبل الألفة التي ينتقلون في ظلّها ويأوون إلى كنَفها بنعمةٍ لا يعرف أحدٌ من المخلوقين لها قيمةً، لأنها أرجح من كلّ ثمنٍ وأجلّ من كلّ خطر!».

وإذا كان السلم بين الناس مبعثاً لمثل هذا النعيم، فعلامَ يتعادى الناس الأشقّاء ولِمَ يتنافرون؟ أصغِ إلى هذه الزفرة من قلب عليّ:

«يا أيها الإنسان! ما آنَسَك بهَلَكة نفسك؟ أليس من نومك يقظة؟»

وتتعاون الأعمال والأقوال في حياة عليّ تنفيراً من التعادي والتناحر والاقتتال، وتحسيناً للتصافي والتآلف والمؤاخاة! وهو يأمر بالتعاون من أجل السلم، ويعمل له، لـ «أنّ في الصلح أمناً للبلاد». ويأمر بكراهية الحرب، ويكرهها، لأن الحرب عدوان و «بئس العدوان على العباد». ولأنّ الخسارة هي في كلّ حال، النتيجة المحتومة لهذا العدوان: «ومَن زرعَ العدوان حصدَ الخسران!» ولأنّ في الحرب ويلاً على بني الإنسان: على المنتصر والمنكسر معاً! وفي الحرب امتهانٌ لكرامة الإنسان هو الخروج على العقل والضمير والمودّات وقيمة الحياة في شخص الغالب. وهو المهانة والمذلّة وضياع الدم والحياة في شخص المغلوب. وفي مذهب عليّ أنّ «الغالب بالشرّ مغلوب»، وليس هنالك ما هو شرّ من القتال وسفك الدم.

وكان من مبادىء الأمور عند عليّ أن يذكر الغارات، وهي مظاهر الحرب في القبائل الجاهلية قبل الإسلام، في عدد السوءات المريعة. فالغارات وعبادة الأصنام ووأد البنات من معدنٍ واحدٍ في نظره. وهي، إلى

ذلك، تجسيد لجهل الإنسان حقيقةَ نفسه وحقيقة الحياة، وبئس الجهل في كلّ حالاته. بقول عليّ: «وأطباق جهلٍ من بنات موءودة، وأصنامٍ معبودة. وغارات مشنونة!».

وقد بلغ به مقْتُه للحرب أنه كان ينهى عن القتال حتى في أضيق حدوده وأعني المبارزة، فيقول: «لا تدعونّ إلى مبارزة». ولعلّ قارىء عليّ يلحظ أنه كثيراً ما يذمّ أخلاقاً في الناس وأشياء في الدنيا. أمّا في أخلاق الناس فكان يذمّ الميلَ إلى الفتنة والجنوح إلى القتال أوّل ما يذمّ. وأمّا الدنيا فلا يسوءه من وجوهها وجهٌ أقبح من الحرب، فتراه إذا هاجَه من أمورها هائجٌ قال فيها: «وإنها دارُ حربٍ وسلبٍ ونهب!».

والحرب مَتْلَفةٌ للحقّ بقدر ما هي تغطية للباطل. والسماء والأرض وُجدتا بالحق في مذهب عليّ. وبالحقّ يعلو الإنسان ويقوم المجتمع وتسعد الدنيا. أمّا الباطل فهو مجمع المخزيات والرذائل. وإذا كان الأمر كذلك فما هو نصيب الحرب من القيمة في خاتمة كلّ حساب؟ إنها مجمع المخزيات والرذائل «لأنها ـ أي الحرب ـ إذا أقبلتْ شُبّهتْ» أي ارتفع فيها شأن الباطل وانخفض صوت الحق. وإذا كان السلم هو الحقّ، فإن «مَن تعدّى الحقّ ضاع مذهبه!».

هذا هو أساس نظرة عليّ إلى الحرب. ولا عجب في ذلك، فهو نظرٌ يلائم إيمانه العميق بالحرية، ويلائم ثقته بالإنسان، ويلائم احترامه العميق للحياة والأحياء وما يجب أن ينصبّوا عليه من العمل الخيّر المفيد.

وهو لذلك يكتفي بأن يخاطب أصحابه في بعض الحالات قائلاً: «وحسْبُ عدوّكم خروجهم من الهدى إلى الضلال» منعاً من الفتنة وميلاً إلى السلم.

وهو لذلك يأمر المخطىء المسيء بأن يعتذر عمّا فعل رفعاً لأسباب

القتال. ويأمر مَن أسيءَ إليه بأن يقبل عذر من اعتذر له مهما كان ذنبه عظيماً، قائلاً له: «اقبلْ عذر من اعتذر إليك!» و«قاتلْ هواك بعقلك تسلم لك المودّة!».

وهو لذلك لا يرى في شيعته صفةً أجدر بالتقدير من نزوعهم إلى السلم وميلهم عن الحرب وإلحاحهم في طلب العافية لأنفسهم وللناس جميعاً، فيقول في ما يجب أن يكونوه: «شيعتنا إن غضبوا لم يظلِموا، بركةٌ على مَن جاوروا سلمٌ لمن خالطوا».

❋ ❋ ❋

ولكنّ هذه الحرارة في التنفير من الحرب والدعوة إلى السلم لا تعني الاستسلام والخضوع في حالٍ من الأحوال، لأنها لا تعني الهروب من المسؤولية وإطلاق العنان للمفسدين. فالحرب ليست كريهةً لذاتها، بل لِمَا تؤذي وتسيء. والسلم ليس محبّباً لذاته، بل لِمَا يعطي أهلَه من إمكانات للطمأنينة، وما يأذن به للناس من الانصراف إلى تحسين المجتمع، وما يفتح أمام الأحياء من طرق الحياة الرحبة الواسعة.

فقد تنتهي الإساءة في بعض الأنظمة والقوانين إلى أنْ تتجمّد على قهر الضعيف وظلْم السواد الأعظم، وأن ترغب لنفسها في السلم كي لا تمتدّ إلى جمودها يدُ الحياة فتُذيبها وتُبدل بها جديداً! فهل الخير عند ذاك إلاّ في القتال سحْقاً لهذا الجمود ومحْقاً لهؤلاء الجامدين!

وقد تنتهي الإساءة في بعض الأفراد، أو الطبقات الشبيهة بالأفراد، إلى أن يريدوا الحياة مغنماً لهم، والأرضَ مكسباً، وحياةَ الناس موتاً، والبشرَ عبيداً أرقّاء، وأنْ يرغبوا لأنفسهم في السلم كي لا تطالهم يدُ الحقّ فتُلغي وجودهم وتمزّق عن الدنيا قناعَها الأسود المقيت! فهل من الخير عند ذاك إلاّ في القتال تحطيماً لهذه الطبقيّة وركلاً لهؤلاء التافهين!

فلو كان لكلٍّ من الحرب والسلم قيمةٌ ذاتية مطلقة، لكانت الثورات التي قامت بها شعوب العالم على الطغاة والمستغلّين والمستعمرين، إثماً وشرّاً. ولكان الخضوع لمشيئة المجرمين من الأباطرة والأكاسرة والقياصرة، يُمناً وخيراً!

ولكنّ الحقيقة أن الخير كل الخير يكمن في ما يعود على الناس بما يُصلح أحوالهم. فإذا نعموا في حياتهم فالسلم أولى بهم. وإذا شَقُوا وابتأسوا وهُضموا وأُكلت حقوقُهم، فالحرب منفعةٌ إلى أن يستقرّ بينهم سلمٌ حقيقي مركّز على أصولٍ إنسانية شريفة، ليس فيها شيء من معنى الاستسلام للطغيان والخضوع للظلم.

هذه الحقيقة أدركها عليّ بن أبي طالب إدراكاً لا مأخذ فيه عليه.

فالحرب التي يكرهها عليّ بن أبي طالب، هي حرب أبي سفيان وأبي لهب لمحمد، لا حرب محمد لهما.

والحرب التي يمقتها ابنُ أبي طالب هي حرب الغُزاة القاسطين الفاسقين لأهل الخير وطلاّب الحق، لا حرب هؤلاء لأولئك!

إنه يدعوك لأنْ لا تكون جانكيزخان، وهولاكو، وهتلر. ولكنه يأبى عليك أن تكون من أبناء الإنسانية التي سعى هؤلاء في تدميرها، وتتحدّث عن السلم فيما تحصد سيوفُهم رؤوس الأبرياء.

وهكذا، فإن الحرب قد تصبح ضرورةً في مذهب عليّ.

فإذا كانت لإنصافِ مظلومٍ من ظالم، وانتصاراً لحقٍّ مغصوب ومالٍ منهوب وكرامةٍ مباحة ودمٍ مهدور، فإنها ضرورة اجتماعية وإنسانية عند ذاك، شرْطَ ألاّ يصار إليها إلاّ بعد محاولات متعاقبة في سبيل التفاهم بغير قتال. اسمعْه بماذا يخاطب أصحابه وقد استبطأوا إذنه لهم في القتال بصفّين، ومقاتلوه هم القاسطون الذين يقول فيهم «إنهم حيارى عن الحقّ لا

يُبصرونه، مُوزّعون بالجور والظلم لا يعدلون»:

«أمّا قولكم: أكلّ ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أُبالي أدخلتُ على الموت أو خرج الموت إليّ! وأمّا قولكم: أشكّاً في أهل الشام؟ فوالله ما دفعتُ الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفةٌ فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحبّ إليّ من أن أُقاتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها!».

ثم شَرْطَ ألاّ تكون الغاية من هذه الحرب النصر بحدّ ذاته، ولا الانتقام، ولا التنكيل، ولا الأذى، ولا الإساءة إلى أسير أو جريح أو مُدْبر أو امرأة أو شيخ أو غلام. بل إعادة الحق إلى نصابه ساعةَ يكون أخو الحرب مؤمناً بأنه على حقّ، وبأن خصمه ظالمٌ لا بدّ من أنْ يُنصَف منه. فإذا أُدرِكت الغاية بأقلّ نصيب من القتال وجب إيقافه في الحال. فاستنكار سفك الدماء إلاّ بالضرورة القاهرة قاعدةٌ أساسية في حروب عليّ. لذلك كان من منطق الغاية التي تهدف إليها الحرب في مذهبه، أنْ يبدأ خصمَه الظالم بالنصح: «وايم الله، لأنصفَنّ للمظلوم ولأنصحنّ للظالم!».

وكثيراً ما كان يلجأ إلى ترهيب خصمه وتخويفه إذا لم يُجْدِه الترغيب في السلم. إذ المهمّ لديه ألاّ تُهرَق الدماء حيث يمكن أن تُحقَن. قال في تخويف أهل النهروان:

«فأنا نذيركم أن تُصبحوا صَرعى بأثناء هذا النهر على غير بيّنةٍ من ربّكم، ولا سلطانٍ مبينٍ معكم. وقد كنتُ نهيتُكم عن هذه الحكومة فأبيْتم عليّ إباء المخالفين المنابذين[1]، حتى صرفتُ رأيي إلى هواكم. ولم آتِ،

---

(١) نهاهم عن إجابة أهل الشام في طلب التحكيم بقوله: «إنهم رفعوا المصاحف ليرجعوا إلى حكمها.. الخ». وقد خالفه أهل النهروان ـ أي الخوارج ـ بقولهم: «دعينا إلى كتاب الله فنحن أحق بالإجابة إليه». بل إنهم أغلظوا في القول حتى قال بعضهم: «لئن لم تجبهم إلى كتاب الله أسلمناك لهم وتخلينا عنك».

لا أبا لكم، بُجْراً[1] ولا أردتُ لكم ضرّاً». ثم إليك هذا الدعاء العجيب بنزعته الإنسانية يطلقه إمامٌ يتألب عليه أخصامه بصفّين، وقد عزم على لقائهم بعد أن فشلت مساعي السلم:

«اللهمّ، ربّ هذه الأرض التي جعلتَها قراراً للأنام ومَدرَجاً للهوامّ والأنعام، وما لا يحصى ممّا يُرى وممّا لا يُرى؛ وربّ الجبال الرواسي التي جعلتَها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً، إن أظهرتّنا على عدوّنا فجنّبنا البغي، وسدّدنا بالحق! وإن أظهرتَهم علينا فارزقْنا الشهادة واعصمْنا من الفتنة!».

وحبّ عليّ للسلم وتعلّقه بأسبابه حتى قُبَيل القتال بلحظات، أمران لا يختلف فيهما شاهدان من الأصحاب والعدوّ. وسيرته حافلة بمظاهر هذا الحب للسلم وهذه الكراهية للحرب. من ذلك ما جرى يوم موقعة الجمل: فحين اجتمع عليه أخصامه القاسطون وساروا بجندهم إليه، أمرَ أصحابه أن يصطفّوا، فقال لهم: «لا ترموا بسهم، ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، واعذروا!» ولم يقاتلهم إلاّ بعد أن رَموا من أصحابه ثلاثة فصرعوهم، وأشهَدَ على ذلك ربّه ثلاثاً!

ولطالما خرج الإمام إلى الزاحفين لقتاله حاسرَ الرأس أعزلَ من السلاح، وهم موقّرون بالحديد معتصمون به، يحاورهم بالمودّة ويذكّرهم بالخير ويخاطبهم بما يتحصّنون له بالجحود والمكابرة، من لهجة القلب المحبّ ومن بيان العاطفة الحنون. حتى لكأنه، وهُمْ أمامه قِطَعٌ من الليل بما أُلبسوا من دروعٍ وتُروس، يتقلّد من احترامه العميق للإنسان درعاً، ومن إيمانه بعدالة مسعاه تُرساً، ومن ثقته بالضمير الإنساني حصناً، ومن عطفه على المظلوم ووفائه للحق وحبه للسلام ألف مجنّ! إنه هو القائل: «مَن

---

(١) بجراً: شراً.

أمنتَ من أذيّته فارغبْ في أخوّته!» وهو الذي يكره الخصومة أشدّ الكره لأن الخصومة والمراء تهدمان أخلاق الفرد وتعصفان بشخصية الجماعة بما ينبت عليهما من نفاق: «إياكم والمراءَ والخصومة فإنهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق!».

لطالما خرج إلى مقاتليه على هذه الصورة تدليلاً على نفوره من القتال، وعلى ميله الخالص إلى حلّ المشكلات بأسلوبٍ هو إلى المودّة والإخاء أقرب، وتحقيقاً للقاعدة التي وضعها لمثل هذا الظرف: «خذ على عدوّك بالفضل فإنه أحلى الظفرين». ثم توكيداً لحقيقةٍ لا يحسّ قيمتها إلاّ الإنسان الإنسان. وهي أن القتال شرّ، وأن الخير الذي يجنيه الغالب لا قيمة له لأنه أتى عن طريق هذا الشر: «ما خيرُ خيرٍ لا يأتي إلاّ بشرّ، وما قيمة يُسرٍ لا يأتي إلاّ بعسر!» فهو يبدأ هذا الشر بكل وسيلة. ويطلب اليُسْر لمبادىء الصلاح بغير العُسر! حتى إذا أبى أعداؤه إلاّ قتاله ظلماً، وإلاّ دمَه ودم البقيّة الخيّرة من أعوانه، عاد يكرر عليهم نداءه من جديد. فإذا أصرّوا على الإثم، وأصبحت الحرب ضرورة اجتماعية وإنسانية، ترك لهم أن يبدأوه القتال. فإن هم فعلوا حاربَهم. ويا لابن أبي طالب يدخل على الموت إذ ذاك إن لم يخرجِ الموت إليه، فيزعزع الرجال ويصرع الأبطال.

وإنه الدفاع الأكرم عن عدالةٍ يريدونها جوراً، وعن كرامةٍ يهدرونها هدراً، وعن حرية يودّون لو كانت عبودية، وعن إنسان يريده عزيزاً ويأبون إلاّ إذلالَه وبكلّ جوادٍ تحتهم نيْطَ غلّ وقيدٌ ثقيل!

إنه الدفاع عن ضرورات اجتماعية ومطالب إنسانية لا يكون القعود دونها إلاّ تخاذلاً وكفراً. يقول الإمام عليّ في موضوع قتاله لمعاوية: «ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينه، وقلّبت ظهره وبطنه، فلم أرَ لي إلاّ القتالَ أو الكفر».

وإليك كيف يوجز ابنُ أبي طالب الفصل الأول من وقعة الجمل:

«وكان طلحة والزبير أول مَن بايعني ثم نقضا بيعتي على غير حدَث. وأخرجا أمّ المؤمنين إلى البصرة، فصرتُ إليهما في المهاجرين والأنصار، فدعوتُهما إلى أن يرجعا إلى ما خرجا منه فأبَيا. فبالغت في الدعاء، وأحسنتُ في اللقاء!» وكان عليّ قد بعث إليهما وهو ببعض الطريق إلى الكوفة بابنه الحسن وابن عمه عبد الله بن عباس وعمّار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة، لعلّهما يقطعان الفتنة، فأبَيا. وفي ذلك يقول عليّ:

«وسرتُ بهم - أي بالمهاجرين والأنصار - حتى نزلتُ بظهر البصرة فأعذرتُ في الدعاء وأقلتُ العثرة، وناشدتهم عقد بيعتهم فأبوا إلاّ قتالي، فاستعنتُ الله عليهم. فقُتل مَن قتل وولّوا مدبرين. فسألوني ما كنتُ دعوتُهم إليه قبل اللقاء، فقبلتُ العافية ورفعتُ عنهم السيف واستعملتُ عليهم عبد الله بن عباس، وبعثتُ إليهم زُفرَ بن قيس، فاسأله عنّا وعنهم!».

وهو إذا كُتب له النصر بفضل شجاعته الفائقة وإيمانه العميق، أدركه من التوجّع ما أدرك المغلوبَ نفسه. فبكى وتألم. وخلا إلى نفسه كئيباً حزيناً كما لا يكون. وإنها، لعمري، مأساة القلب الكبير يحب أبناءه أشدّ الحب، ويكره الظلم أشدّ الكره، فإذا القوم هم أبناؤه الظالمون، وإذا هو بين العطف على الأبناء والكراهية للظلم في مثل تأجّج النار أو أشدّ سعيراً!

ولم يكن على قلب الإمام ما هو أكرهُ من أن يرى دماً مراقاً. وإذ لم يكن على ثقة بأن وُلاته وعمّاله إذا قاتلوا عفّوا عن إراقة الدماء إلاّ بحاجة العدالة والحقّ، أكثر من أوامره إليهم بألاّ يسفكوا دماً. أضف إلى ذلك نظرة عبقرية كان يلقيها فتكشف عن الجانب الدوليّ في هذا الموضوع، كما تكشف عاطفتُه عن الجانب الإنساني الخالص فيه. فسفكُ الدماء يزيل السلطان في نظر الإمام، ويُفقده معناه، ولاسيّما إذا كان عمداً؛ وهو لا يعذُر فيه. بعثَ لأحد عماله يقول: «ولا تُقوّينّ سلطانك بسفك دمٍ حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله. ولا عُذْرَ لك عند الله ولا

عندي في قتل العمد!».

وإني لأعرض للقارىء، بهذا الصدد، أمراً عَجباً! فأيّ إنسان عرف في غير ابن أبي طالب، قائدَ جماعةٍ يأمر وُلاته بألاّ يستعملوا على الجيش إلاّ مَن كرِهَ القتل وإلحاقَ الأذى بالناس، ثم عَذَرَ وعفّ وكان عطوفاً رحيماً طاهر القلب لا يلجأ إلى عنفٍ ولا يقسو! اسمعه، والله، يأمر عامله على مصر بهذا القول: «وولّ من جنودك أنقاهم جيباً - أي أطهرهم قلباً - وأفضلهم حلماً: ممّن يبطىء عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء[1]، وممَّن لا يثيره العنف إلخ. . . .».

إذن، فعليّ يحب السلم ويأمر به، ويكره الحرب وينهى عنها ولا يأتيها إلّمْ تأتِهِ هي وتلحّ، بعد أن تسقط في معالجتها المداراةُ بالمودّة والإحسان. وهو إن حارب سعى في ألاّ يكثر صرعى القتال، وعفّ كلما قدر، وطالما قد قدر وطالما عفّ. ثم رثى المغلوبَ والغالبَ في وقت معاً. وهو إمّا تلقّى دعوةً للصلح تأتيه من عدوّه رحّب وحيّاً «فإنّ في الصلح دعةً للجنود وراحةً من الهموم وأمناً للبلاد». وله أوامر كثيرة لقواده وعماله يوصيهم فيها بأن ينهجوا نهجه هذا، إلى جانب وصاياه بألاّ يقاتلوا قتالاً أرعن فيمتشقوا السيف بتلك السهولة التي تَعَوّدها القواد والمحاربون في العصور القديمة. ومن ذلك قوله: «ولا تحرّكوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم!» وقوله أيضاً: «ولا أعاقب على الظنّة» و «لستُ مُقاتله حتى أدعوه وأُعذِرَ له، فإن ثاب ورجع قبلنا منه، وإن أبى إلاّ الاعتزام على حربنا استعنّا اللّهَ عليه، وناجزْناه». وسوف نتحدث بالتفصيل عن مواقف ابن أبي طالب من أخصامه المعتدين عليه.

❀ ❀ ❀

---

(١) ينبو على الأقوياء: يشتد ويعلو عليهم ليكف أيديهم عن الضعفاء.

وللإنسان على الإنسان حق الوفاء بالعهد تدعيماً لأركان السلم بين الأفراد والجماعات، ومكرهةً للحرب. ولا فرق أن يكون العهد بين أبناء المذهب الواحد أو المذاهب المختلفة. ولا أن يكون بين أبناء القوم الواحد وبين قوم وآخرين. ولا أن يكون بين مسالمٍ ومسالم أو محارب. ولا بين صديق وصديق أو عدوّ! لا مذهب ولا قومية ولا حالة سلم أو حرب تحول دون الوفاء بالعهد في خاطر ابن أبي طالب وفي حكمه. ذلك لأن الوفاء بالعهد تدعيم لأركان السلم كما تقدم، وفي السلم أمنُ البلاد وراحة الناس. ولأنه خدمة للمجتمع المرتبط بقوانين وذمم. ثم إنه غذاء للضمير الإنساني الذي يسعى الإمام في الارتفاع به ما أمكن الارتفاع. وهو، بذلك كله، سبب في التقارب والتوادّ بين الأفراد والجماعات والقبائل والشعوب المختلفة. وهو في كل أحواله مظهرٌ من مظاهر الصدق واحترام الشخصية الإنسانية في ذاتِ مَن أعطى العهد ومن أعطي له سواء بسواء. ثم إن الوفاء بالعهد يرافقه، أبداً، الاطمئنان من الجانبين. وإذا اطمأنّ الجانبان كان لكلّ منهما أن يعمل بوحي الحرية التي يستشعرها فيتمكن من ممارستها في حدود هذا الاطمئنان. لذلك كان الوفاء بالعهد من دستور ابن أبي طالب في الخلافة والولاية. ففرض على كل من أعطى عهداً أو ذمة أن يصونهما بجسده وروحه فيهلك أو يفي بهما.

ويتألم ابن أبي طالب من النكث بالعهد بمقدار ما يتألم من الكذب. يقول في خطبة له: «إن الوفاء توأمُ الصدق ولا أعلم جُنّة ـ وقاية ـ أوقى منه. ولا يغدر من علم كيف المرجع. ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثر أهله الغدر كَيساً ونسبَهم أهلُ الجهل فيه إلى حسن الحيلة! ما لهم؟ قاتلهم الله؟ قد يرى الحُوّلُ القُلّبُ وجه الحيلة ودونه مانعٌ من أمر الله ونهيه، فيدعها رأيَ عينٍ بعد القدرة عليها، وينتهز

فرصتها من لا حريجة له في الدين»[١].

ويقول في رسالة منه إلى عامله على مصر: «وإن عقدت بينك وبين عدوّك عقدة - أي ميثاقاً - أو ألبسته منك ذمّة، فحُطْ عهدك بالوفاء، وارعَ ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جنّة دون ما أعطيت - أي حافظ على ما أعطيت من عهدك بروحك - ولا تغدرن بذمتك، ولا تخيسنّ بعهدك، ولا تختلنّ عدوّك - أي لا تخدع عدوك». ثم إنّه لا يكتفي بهذه التوصية الصريحة بألا يخدع الإنسان حتى عدوّه ومقاتله، بل يشدّد على من تحدّثه نفسه من الوُلاة بأن يعطي عهداً مبهماً يتحمّل التأويل والتفسير على غير المراد، لمخادعة من أُعطيَ له هذا العهد، وللتملّص من الميثاق رغبةً في نقضه وعدم التزامه، أو في الجور وما إليه. يشدّد الإمام على مثل هؤلاء فيقول: «ولا تعقدْ عقداً تجوز فيه العلل، ولا تعوّلنّ على لحنِ قولٍ بعد التأكيد والتوثقة»[٢].

ولم يكن ابنُ أبي طالب ليرى رأياً أو يأمر بتنفيذِ مذهبٍ من مذاهبه إلاّ بعد أن يعيشَ هذا الرأيَ بكلّ كيانه وينفّذ هذا المذهب في كل أحواله جَرْياً على عادته في ذلك. فإذا كان الوفاء بالعهد من آرائه ومن مذاهبه فإنّ عقبةً واحدةً لم تكن لتحول بينه وبين هذا الوفاء مهما صَعُبَ أمرُها وتعسّر اجتيازُها. من ذلك ما جرى له في وقعة صفّين على أثر خدعة التحكيم

---

(١) كيساً: عقلاً، وأهل ذلك الزمان يعدون الغدر من العقل وحسن الحيلة، كأنهم أهل السياسة من بني زماننا. والإمام علي يعجب من زعمهم ويقول: ما لهم؟ قاتلهم الله! يزعمون ذلك مع أن البصير بتحويل الأمور وتقليبها قد يرى وجه الحيلة في بلوغ مراده لكنه يجد دون الأخذ به مانعاً من أمر الله ونهيه.. الخ.

(٢) العلل: جمع علة وهي، في النقد والكلام، بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويحوله إلى غير المراد، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته. لحن القول: ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض. يقول: إذا رأيت ثقلاً من التزام العهد، فلا تركن إلى لحن القول لتتملص منه، بل خذ بأصرح الوجوه لك وعليك.

المشهورة. فإنّ أمر هذه الخدعة ما كاد ينكشف للناس جميعاً حتى قام محمد بن جريش إلى عليّ وقال له: «يا أميرَ المؤمنين، أمّا إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل؟ فواللّهِ إني لأخاف أن يورث ذلاًّ» مشيراً بذلك إلى الكتاب ـ أو العهد بالتحكيم ـ الذي وقّعَه عليّ على أنْ لا يكون في الأمر خدعة. فقال عليّ: أبَعْدَ أن كتبناه ننقضه؟ إن هذا لا يحلّ!

ثم إنّ عليّاً هو القائل: «واعتصموا بالذمم!» و «ذمّتي بما أقول رهينة!».

وهكذا يبدو لنا أن دعوة عليّ إلى السلم إنما هي في نتيجتها البعيدة، تعبيرٌ عن كلّ ما كان يطلبه للناس من عدل ومساواة وحرية. بل تعبيرٌ عمّا كان يضمره في نفسه؛ ويعلنه في دستوره، من العمل الشامل في سبيل الإنسان: العمل الذي يريد أن يستوعب كلّ ميدانٍ تخصب فيه الإنسانية وتنمو.

وإنّ عليّاً، بدعوته الحارّة إلى الألفة بين أبناء البشر الأشقّاء، ليستوي وسائر آباء الإنسانية القُدامى! فما أشبه دعوته بهذه العاطفة الكريمة التي يعبّر عنها محمّدٌ بقوله: «كونوا عبّادَ الله إخواناً». ثم بهذه الفكرة العظيمة التي يطلقها النبيّ أيضاً ساعةَ يسأله أحدُهم: «ما أفضل الأعمال؟» فيجيب قائلاً: «أفضل الأعمال بذْلُ السلام للعالم!».

وما أشبه صوت عليّ بغايته ومُحتواه، بصوت أشعيا إذ يتصوّر ما يمكن أنْ تؤول إليه أحوال الناس حين يتصافون، وإذ يؤكّد أنّ تصوّره لا محالةَ محقّقٌ في غدٍ قريبٍ أو بعيد، فيقول هذا القول العظيم:

«يقال للأسرى: أخرُجوا وللذين في الظلمة ابرُزوا فيرعون في الطرق ويكون مرعاهم في كل الروابي.

«ويُجعَل في البريّة طريقٌ وفي القفر أنهارٌ وفي الأرض القاحلة مخارج مياه!

«ويبني الناسُ بيوتاً يسكنون فيها ويغرسون كروماً ويأكلون ثمرها. لا يبنون ويسكن آخرُ ولا يغرسون ويأكل آخر.

«يطبعون سيوفهم سككاً ورماحَهم مناجل. يسكن الذئبُ مع الخروف ويربض النمر مع الماعز. لا ترفع أُمَّةٌ على أُمَّةٍ سيفاً ولا يتعلّمون الحرب فيما بعد!».

لا ظَالمِ وَلا مَظلُوم

- الذليل عندي عزيزٌ حتى آخذ الحقّ له، والعزيز عندي ذليلٌ حتى آخذ الحقّ منه.

عليّ

- بقَدَر ما يحبّ الإنسانُ الجمالَ يكره القبح. وعلى مقدار ما يطلب العدل ينفر من الجَور. وحَسْبما يتوقّع إلى دفء الوجود تهولُه برودةُ العدَم. وهو لا تحمله قدَماه في وعورة الارض عبْرَ الكهوفِ والأودية وصخور الجبال، إلا إلى ديار المودّة! أمّا الذي لا يكره فهْوَ الذي لا يُحبّ!

وتتصل حلقات السيرة العلوية في القضايا العامّة اتّصالاً مُحْكماً كريماً. وتتداخل مواهب عليّ في الإدارة والولاية والقيادة والأخلاق العظيمة تداخلاً تتألف منه الشخصية العلويّة الفذّة في وحدةٍ متلازمة العناصر، فذّة! فإذا ثورته على الاحتكار والاستغلال هي في الوقت ذاته ثورةٌ على الظلم والظالمين. وإذا نقمته على الأثرياء والأقوياء المستثمرين ثراءَهم وقوّتهم بما يؤذي الجماعة، وعلى الأغبياء المتعالين، هي في حدّ ذاتها نقمةٌ على الاستبداد بكافّة أشكاله. وإذا نزوعه العميق إلى رعاية المستضعَفين بالعدل وقد وُلدوا بشراً لا يهونون إلاّ في مجتمعٍ مغلوط،

وإلى تحرير المستعبدين، وقد خُلقوا أحراراً لا يذلّون إلا وقد ذلّت الكرامة الإنسانية بالذات، هي في الحين نفسه نقمةٌ على من أهان وأذلّ!

وإذا كان في ما رأيناه حتى الآن من انتصار الإمام لأهل الحاجة، انتصارٌ للمظلوم؛ وإذا كان في ما رأيناه حتى الآن من سخط الإمام على خصوم الإنسانية والمجتمع والعاملين في غير هذْي الضمير، سخطٌ على الظالم؛ فما ذاك بسبب يكفينا عناء الكلام على موقف ابن أبي طالب من الظلم والظالمين نصّاً منطوقاً. ففي الظلم نصّاً، ما هو أشمل من الاحتكار والاستغلال والاستهتار بالكرامات؛ وما هو أبعد في الإشارة إلى هذه النقائص، إلى ما بدا منها وما اختفى! والظلم على كل حال، لفظٌ لا تجدُ للإمام قولاً في خطبةٍ أو وصيةٍ أو عهدٍ إلاّ وهو فيه. وإلاّ وثورته تنصبّ على روحه ومعناه. وإلاّ ولسانه وبيانه يصيبانه بكل لعنة! لذلك وجب إفراد فصلٍ يبحثُ في موقف عليّ من الظلم والظالمين، والطغاة العتاة المفسدين الذين ما أهمل ابن أبي طالب قتالهم في وجدانه وعلى لسانه، وبدستوره وذي فقاره، صيانةً للعامّة من غصب الغاصبين ومظالم العابثين.

أمّا قتال الظلم فقد كان في تاريخ الإنسان منذ كان الإنسان، ولكنْ على وجوهٍ وأشكال! وكثرَ حملَةُ أعباء هذا القتال في عهود الفئات المستأسدة الطاغية كثرةً تشرّف تاريخ الإنسانية بقدر ما ينحطّ به ظلمُ الغاشمين. وظلّ هؤلاء المقاتلون يتناوبون ويتعاونون ويتوارثون روح القتال. ومن عظماء الإنسانية مَن كانت أيامهم حلقاتٍ متواصلة من الصراع. فما تاريخ المسيح إلاّ ثورة على المستعمرين الرومان، والمستعمرين الداخليين من الملوك والأرستقراطيين وعبيد الوثنية الاجتماعية، وما تاريخ محمد إلاّ استمرارٌ لتاريخ المسيح في ثورةٍ تعصف عصفاً ولا تنقلب نسيماً نديّاً إلاّ إذا نال المظلومون ما تريده لهم من حال.

وما يقال في المسيح ومحمد يقال في سقراط وغاليليو وفولتير

وتولستوي وبوشكين وبتهوفن وغوركي وروسو وجورج برنارد شو وغاندي ومَن إليهم من أعلام التاريخ الإنساني. وكما يتحوّل الظلم في النفوس والأجسام إلى مادّة من مادّتها، فإذا هو شيء من أشيائها يسهل إتيانُه كما يسهل المشربُ والمطعم والملبس والتنفّس، على نحو ما نرى في حياة نيرون وجانكيزخان وأجلاف المماليك وباشوات بني عثمان، ورجال ديوان التفتيش أو المحكمة «المقدسة» في أوروبا بالعصور المتوسطة، وفي حياة الأباطرة والأكاسرة والفراعنة والسلاطين التافهين، وفي سيرة الحجاج بن يوسف وزياد ابن أبيه وعبيد الله بن زياد ومسلم بن عقبة ومَن إليهم، فكذلك يتحوّل مقْت الظلم في نفوس الآخرين وفي أجسامهم إلى مادّةٍ من مادّتها فإذا هو شيء من أشيائها يعيش بها مع النبض والخفوق.

بهذا أستطيع أن أعلّل ثبوت الأولين على المظالم بما فيها من فظائع وشنائع ثبوتاً لا يتطلب أي جهد، ولا يبتغي في معظم الحالات أيّة غايةٍ كبيرة أو صغيرة أبعدَ من صدور الأشياء عن مصادرها، حتى لَينادي أحدُهم الحجاجُ بن يوسف حَرَسيّه، وهو على مائدة الطعام في رهْطٍ من أصحابه، قائلاً له: «يا حرسيّ، اضرب عنقه» مشيراً إلى عجوز مسكين يقف مرتجفاً بين يديه ولم يرتكب إثماً كثيراً أو قليلاً. ثم يتابع طعامه كأنّ أمراً لم يكن. يفعل ذلك بنفس البساطة التي ينادي بها غلامَه قائلاً له: يا غلام، هات لنا ماءً مبرّداً! وحتى ليحرق نيرون روما وهو يشرب الكأس ويصغي إلى الشعر والعزْف والغناء!

وبهذا أستطيع أن أعلّل أيضاً ثبوت الآخرين على مصارعة الظلم والاستبداد ثبوتاً لا يكونون إلاّ به، حتى ليشرب سقراط السمّ كما يشرب الدواء إذا كان شربُه نهايةً محتومة لهذا الثبوت. وحتى ليحارب فولتير أكبر رأس في أوروبا بزمانه وكأنه مدفوع إلى ذلك كما يُدفَع الظمآن إلى الماء والجوعانُ إلى الخبز. وحتى ليَقف أصحابُ الحسين بن عليّ بين يديه

ويقولوا له، وقد تألّبتْ عليه الدولةُ الأموية فهو منفردٌ وحيد: نموت معك!

هذه الطائفة العظيمة من أبناء البشر يأتي ابنُ أبي طالب في طليعتها. لقد جاء، كما يقول، ليقيم حقاً ويزهق باطلاً! فحدودُه في الدولة هي هذه الحدود! ولكنْ ما أبعدَ أطراف الدنيا القائمة ضمن هذه الحدود والظالمون في زمانه أعظم عدداً وأشدّ بأساً!

لا ظالم ولا مظلوم!

هذه هي إرادة ابن أبي طالب. وهذا ما يأباه زمانه! ويتخلّف عن مسايرته في هذه الإرادة حتى المظلومون أنفسهم لخوفٍ قديمٍ ألمَّ بهم فباتوا يخشون معاندة ظالميهم. أو لجهلٍ حُملوا به على قبول الرشوة إلاّ مَن خلق ربّك من كبار القلوب!

ولكنْ، هل يضعف عليّ والناس متألّبون عليه سائرون إليه في ركاب النافذين؟ هل يضعف الفارس الغريب الكئيب في أرض الآلام يقيم بها بين السباع الضواري، وفي أبناء آدم وحوّاء كراهيةٌ للموت، لا شكّ؟

هل يضعف و «الظالم يزداد عتوّاً» والنافذون «يعملون في الشبهات» ويتاجرون بضمائرهم فيدفعونها ثمناً للمغانم ينتهزونها وللمنابر يَفرعونها، والبلاد نهبةٌ لهم وهم لمظالمهم متعصّبون يأخذهم الكِبْر ويغريهم الفخر؛ يتلوّنون ألواناً ويعدّون لكل حق باطلاً ويتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء، وقد استغلّوا العدل والحقّ، وطغوا وبغوا وأفسدوا في الأرض وتجبّروا؟

هل يضعف وأنصاره أنفسهم «ما عزّت دعوةُ مَن دعاهم، ولا استراح قلب مَن قاساهم. ومَن فاز بهم فقد فاز بالسهم الأخيب! صُمّ ذوو أسماع، بُكْمٌ ذوو كلام، لا أحرار صدقٍ عند اللقاء ولا إخوان ثقةٍ عند البلاء!».

إن المرء ليضعف في مثل هذه الشروط، إن لم يكن عليّ بن أبي طالب! فالحنان العميق الذي يكنّه عليّ للناس يحمله على ألاّ يهادن من

أساء للناس ولو كانت حياته الثمن لذلك! وإنه ليكذب، لعمري، أو يجهل حقيقةَ الطبائع، مَن يخال أنّ من شروط الحنان والرقّة، القعودَ عن الثورة على الظالمين. وأنّ من مظاهر العاطفةِ الوَدود، الاستسلام دون التمرّد ودون العنف في هذا التمرّد! فالحنانُ والعطف يحملانك دون تردّدٍ على أنّ تتمرّد وتثور على الظالم تخليصاً لمن تعطف عليهم ممّا يرسفون به من قيود! وإن العطف والحنان والحب هي التي تدفعك، في بعض الحالات، إلى العنف حتى أقصى حدوده.

فبقدر ما يحبّ الإنسانُ الجمالَ يكره القبح. وعلى مقدار ما يطلب العدل ينفر من الجور. وحسْبما يتوهّج إلى دفء الوجود تهولُه برودة العدم. وهو لا يحمل سيفاً يهوي به على أعناق الطغاة التافهين إلاّ إذا كانت الحياة معبداً له ونعيماً! ولا تحمله قدَماه في وعورة الأرض عبْرَ الكهوف والأودية وصخور الجبال، إلاّ إلى ديار المودّة! أما الذي لا يكره فهو الذي لا يحبّ!

وأسوق دليلاً جديداً على الرقّة والحنان في مزاج عليّ يتّحدان والتمرّدَ والعُنف اتّحادَ الأشياء بذاتها، في سبيل رفْع الظلم بكلّ أشكاله:

روت سودة بنت عمارة الهمذانية أنها جاءت إلى عليّ تشتكي من رجلٍ ولاّه صدقاتهم، فقال لها بتعطّفٍ ورأفة: ألكِ حاجة؟ فأخبرتْه خبر الرجل، فبكى ثم قال: «اللهمّ إني لم آمرهم بظلم خلقك ولا ترْك حقك!» ثم أخرج من جيبه قطعةً من ورق فكتب فيها:

«... فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءَهم ولا تعيثوا في الأرض مفسدين. إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظْ بما في يدك حتى يأتي من يقبضه منك!».

فانظر كيف بلغ به العطف على المرأة المظلومة الشاكية حدّاً أبكاه.

ثم كيف انقلب هذا العطفُ عنفاً آمراً ناهياً سريعاً مقتضب اللهجة يتوجّه به إلى جامع الصدقات الذي جار!

إن ابن أبي طالب لن يتراجع عن محاربة البغْي، ولن يضعفَ وفي الأرض عزيزٌ يضطهد ذليلاً، وكبيرٌ يقهر صغيراً! لن يضعف ولن يتراجع وفي قلبه من الحنان والمحبة ما يكفل له الثبوت في الصراع بين الحقّ والباطل، وما يضمن له القدرة على قيادة المعركة.

وكان عليّ يؤمن إيماناً وطيداً بأنّه «لا بدّ من إمامٍ يُؤخذ به للضعيف من القوي وللمظلوم من الظالم حتى يستريح بَرّ ويُستراح من فاجر» و«أن الله قد أعاذ الناس من أن يجور عليهم» فكيف يجور عليهم الجائرون! و«أنه امتحن الأمراء بالجور» فإذا ظلموا انتهى أمرُهم لأنه «إن أمهل الظالمَ فلن يفوت أَخْذُه فهو له بالمرصاد على مجاز طريقه!» وعند ذاك يكون «يوم العدل على الظالم أشدّ من يوم الجور على المظلوم!» ومن أوامر ابن أبي طالب الدائمة: «أمرتكم بالشدّة على الظالم» و «خذوا على يد الظالم السفيه!».

أجل! إنّ في قلبه من الحنان والمحبّة ما يكفل له الثبوت في الصراع بين الحقّ والباطل. وهو إذا أطلّ على هذا الصراع من بعيدٍ أوجزَ يقول: «لنظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك». ثم إذا هو دنا من المعترك قال: «وايم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه ولآخذنّ الظالمَ بخزامته حتى أُورده منهلَ الحقّ وإن كان كارهاً!» أو أطلق هذه العبارة: «الكفّ عن البغي والإنصاف للخلق واجتناب المفاسد في الأرض!» وهو إذا كان في قلب الصراع الرهيب تفَقّد أنصاره فإذا هم قليل. ونظر إلى أخصامه فإذا هم كثير. فنظر في أحواله وأحوال الناس وقال: «ما ضعفتُ ولا جبنتُ! فلأنقبنّ الباطلَ حتى يخرج الحقّ من جنبه». ثم إنه لن يكفّ عن محاربة الظلم ولو رأى شهادته ماثلة لعينيه. ولن يبالي ولو تألّبتِ العرب عليه

يساندها أهلُ الأرض جميعاً، في شعاب الأرض ووهادها!

ويزداد ابن أبي طالب ثقةً بنفسه وإيماناً بعدالة ما يعمل فيقول: «الذليل عندي عزيزٌ حتى آخذ الحقّ له، والعزيز عندي ذليلٌ حتى آخذ الحقّ منه». «فواللّهِ ما أبالي أدخلتُ على الموت أو خرج الموتُ إليّ».

وإذا هو قاتل الظالمين فبقي لهم في الأرض صولة، قال: «وبقيتْ بقيّة من أهل البغْي، ولئن أذن الله في الكرّة لأديلنّ منهم إلاّ ما يتشذّر في أطراف البلاد تشذّراً».

ورجال العلم في مذهب عليّ قادة الأمّة، وعليهم من ثمّة مسؤولياتٌ جِسام في طليعتها مقاومةُ الظالم والانتصار للمظلوم. يقول: «وقد أخذ اللّهُ على العلماء أنّ لا يُقارّوا على كظّة ظالمٍ ولا سغَب مظلوم!».

ولكي لا تكون في عداد القوم الظالمين، ولا في مَن يعينون على الظلم أو يرضون به، يجعل عليّ ذنوبَ الناس في درجاتٍ يُغتفَر لهم بعضُها إلاّ الظلم، فيقول: «وأمّا الذنب الذي لا يُغفَر فظلم العباد بعضهم لبعض». وهو يرى، في كلّ حال، أنّ «ظلم الضعيف أفحش الظلم!».

وهكذا وضع ابنُ أبي طالب رفْع الظلم بأشكاله وألوانه جميعاً ـ ولاسيّما الظلم الماديّ ـ في أساس دستوره في الشعب. وهكذا حارب الظالمين بلسانه وسيفه وهو معتصمٌ بذمّته في ذلك، وظلّ يُديل من أهل البغْي حتى استشهد عظيماً! ولو قد استوت قدماه من مزالق دهره لغَيّر أشياء!

وتيك آية ابن أبي طالب!

دستُور الإمَام في الولَاة

- إيّاك والاستئثارَ بما الناس فيه أُسْوة.

علي

بعد أن تبيّن لنا موقف الإمام عليّ من المجتمع وأحواله، وظهر لنا أسلوبه في العمل من أجل توطيد العلاقات الاجتماعية على أساسٍ من العدالة متين، لا بدّ من إثبات مختارات من كتابٍ بعث به إلى الأشتر النخعي لمّا ولاّه على مصر وأقطارها، وهو أطول عهوده ومن أجلّها شأناً.

وإذا كنّا قد استندنا في دراستنا هذه على مختلف عهود الإمام وكتبه، لأن حقوق الفرد والجماعة ظاهرة فيها جميعاً، فلا يمكننا الاستغناء عن إثبات مختارات من كتابه هذا لعامله على مصر. ذلك لأنه أجمع كتبه وعهوده لآرائه في بناء المجتمع. ففي هذا الكتاب الجليل دستور عليّ في الولاة كاملاً إلاّ ما تناثر في بقيةِ كتبه وعهوده من أُسُسٍ أخرى وأركان، نأخذ بعضاً منها ونثبتها في خاتمة هذا الكتاب.

وهكذا نتيح الفرصة لأن يطّلع القراء على فصلٍ من أروع ما أنتجه العقل والقلب في ربط الناس بالعلاقات الاجتماعية والإنسانية الخيّرة.

وإليك بعض ما جاء في كتاب عليّ إلى الأشتر:

«ثم اعلمْ أني قد وجّهتُك إلى بلادٍ قد جرتْ عليها دُوَلٌ قبلك من

عذْلٍ وجور. وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قِبَلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم؛ وإنما يُستدَلّ على الصالحين بما يُجري الله لهم على ألسُن عباده، فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرةَ العمل الصالح. فاملِكْ هواك وشُحّ بنفسك عما لا يحلّ لك فإن الشّحّ بالنفس الإنصافُ منها فيما أحبّتْ أو كرهتْ. وأشعرْ قلبك الرحمةَ للرعية، والمحبةَ لهم، واللطفَ بهم، ولا تكونَنّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق، يَفْرُط منهم الزلَل[1] ويُؤتى على أيديهم في العمْد والخطإ؛ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. ولا تندمَنّ على عفوٍ ولا تبجَحَنّ بعقوبة. أنصِف الناسَ من نفسك ومن خاصّة أهلك ومَن لك فيه هوًى من رعيّتك، فإنك إلاّ تفعل تَظلم! ومَن ظَلعمَ عباد الله كان الله خصمه دون عباده. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظُلم، فإن الله سميع دعوة المضطهَدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمّها في العدل وأجمعَها لرضا الرعية. وليس أحدٌ من الرعيّة أثقلَ على الوالي مؤونةً في الرَّخاء وأقلّ معونةً في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسألَ بالإلحاف، وأقلّ شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمّات الدهر من أهل الخاصّة. والعُدّةُ للأعداء العامّة من الأمّة، فليكن صَغوُك لهم ومَيلك معهم.

وليكن أبعدَ رعيّتك منك، وأشنأهم[2] عندك، أطلَبُهم لمعائب

---

(١) يفرط: يسبق. الزلل: الخطأ.
(٢) أشنأهم: أبغضهم.

الناس[1]؛ فإن في الناس عيوباً الوالي أحقّ مَن سَتَرَها. فلا تكشفنّ عمّا غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، فاستر العورة ما استطعت. أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وِتْر[2]، وتغابَ عن كل ما لا يصحّ لك، ولا تعجَلَنّ إلى تصديق ساعٍ، فإن الساعي غاشٌ وإن تَشَبّه بالناصحين.

ولا تُدخلَنّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ولا جباناً يُضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يُزيّن لك الشَرَهَ بالجور. إن شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومَن شَرِكَهُم في الآثام؛ فلا يكونَنّ لك بطانةً فإنهم أعوان الأثَمَة وإخوان الظَّلَمَة، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخَلَف ممّن لم يعاونْ ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه! ثم ليكن آثَرُهم[3] عندك أقْوَلهم بمُرّ الحق لك[4] وأقلّهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً ـ ذلك ـ من هواك حيث وقع.

ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سَواء؛ فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة! وألزِمْ كلاً منهم ما ألزم نفسه. واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حُسْن ظَنّ راعٍ برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عليهم، وترْك استكراهه إياهُمْ على ما ليس قِبَلَهم[5]. فليكنْ منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسنُ الظنّ برعيّتكَ. وإن أحقّ مَن حسُن ظنّك به لَمَنْ حسُنَ بلاؤكَ[6] عنده، وإن أحقّ

---

(١) الأطلب للمعائب: الأشد طلباً لها.
(٢) الوتر: العداوة.
(٣) الضمير يعود على الوزراء في كلام سابق للإمام.
(٤) ليكن أفضلهم لديك أكثرهم قولاً بالحق المر. ومرارة الحق: صعوبته على نفس الوالي.
(٥) قبلهم، بكسر ففتح: عندهم.
(٦) البلاء، هنا: الصنع، حسناً كان أو سيئاً.

من ساءَ ظَنّك به لَمَن ساء بلاؤك عنده. وأكثِر مدارسة العلماء، ومنافثة[1] الحكماء، في تثبيت ما صلحَ عليه أمرُ بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك. وَوَلّ من جنودك أنقاهم جَيْباً[2] وأفضلهم حلْماً: ممّن يُبطىء عن الغضب ويستريح إلى العُذْر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء[3]، وممّن لا يُثيره العُنف.

ثم تفقّدْ من أمورهم ما يتفقَّد الوالدان من ولَدهما، ولا يتفاقَمَنّ في نفسك شيء قوّيتَهم به[4] ولا تَحْقِرَنّ لطفاً تعاهدتهم به[5] وإن قلّ، فإنه داعيةٌ لهم إلى بذل النصيحة لك وحُسن الظنّ بك؛ ولا تدَعْ تَفَقُّدَ لطيفِ أمورهم اتّكالاً على جسيمها، فإنّ لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه. وإن عطفك عليهم يعطِف قلوبهم عليك. وإنّ أفضل قرّةِ عين لولاة استقامةُ العدل في البلاد، وظهور مودّة الرعيّة، وإنه لا تظهَرُ مودّتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصِحّ نصيحتهم إلاّ بقلّة استثقال دُوَلِهم.

ثم اعرف لكلّ امرىء منهم ما أبلى ولا تضيفنّ بلاء امرىء إلى غيره[6]، ولا تقصّرنّ به دون غاية بلائه، ولا يدعوَنّك شرف امرىء إلى أن تُعظم مِن بلائه ما كان صغيراً، ولا ضَعَةُ امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً.

---

(١) المنافثة: المحادثة.
(٢) يقال: نقيّ الجيب أي: طاهر القلب.
(٣) ينبو على الأقوياء: يشتد ويعلو عليهم ليكف أيديهم عن ظلم الضعفاء.
(٤) تفاقم الأمر: عظم. يقول لا تعدّ شيئاً قوّيتهم به غاية في العظم زائداً عما يستحقون، فكل شيء قوّيتهم به واجب عليك إتيانه. وهم مستحقون لنيله.
(٥) أي لا تعدّ شيئاً من تلطفك معهم حقيراً فتتركه لحقارته، بل كل تلطف وإن قلّ فله موقع من قلوبهم.
(٦) لا تنسبن عمل امرىء إلى غيره، ولا تقصر به في الجزاء دون ما يبلغ منتهى عمله الجليل.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك[1] في نفسك ممّن لا تضيق به الأمور ولا تُمحكُهُ[2] الخصوم ولا يتمادى في الزلّة ولا تُشرف نفسه على مطمعٍ ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه[3] وأوقفَهم في الشُبُهات[4] وآخَذَهم بالحجج وأقلّهم تبرّماً بمراجعة الخصم وأصبرَهم على تكشّف الأمور، وأصرمَهم عند اتضاح الحكم؛ ممّن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء، وأولئك قليلٌ؛ ثم أكثر تعاهُد قضائه[5] وأفسحْ له في البذل ما يزيل علّته وتقلّ معه حاجته إلى الناس. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيرُه من خاصّتك ليأمنَ بذلكَ اغتيالَ الرجال له عندك. فانظرْ في ذاك نظراً بليغاً.

ثم انظر في أمور عمّالك فاستعملهم اختباراً[6] ولا تولّهم محاباةً وأثَرَةً، فإنهم جِماعٌ من شُعَبِ الجور والخيانة.

ثم أسبغْ عليهم الأرزاق فإنّ ذلك قوةٌ لهم على استصلاح أنفسهم، وغنًى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجّةٌ عليهم إن خالفوا أمرك أو ثَلَموا أمانتك. ثم تفقّدْ أعمالهم وابعث العيونَ من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإنّ تعاهُدك في السرّ لأمورهم حَدوةٌ ـ حَثٌ ـ لهم على استعمال الأمانة بالرعية.

---

(١) ثم اختر الخ: انتقال من الكلام في الجند إلى الكلام في القضاة.

(٢) تمحكه: تضيق خلقه.

(٣) لا يكتفي في الحكم بما يبدو له بأول فهم وأقربه، دون أن يأتي على أقصى الفهم بعد التأمل.

(٤) الشبهات: ما لا يتضح الحكم فيه. يريد أنه ينبغي الوقوف عن الحكم حتى يرد الحادثة إلى أصل صحيح. ولفظة «أوقفهم» تابعة بالإعراب للفظة «أفضل».

(٥) تعاهده: تتبعه بالاستكشاف والتعرف.

(٦) أي: ولهم الأعمال بالامتحان، لا محاباة، أي: اختصاصاً وميلاً منك لمعاونتهم، ولا أثرة، أي: استبداداً بلا مشورة، فإن المحاباة والأثرة يجمعان الجور والخيانة.

وتفقّد أمر الخراج بما يُصلحُ أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم، لأن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهله. وليكن نَظَرُكَ في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يُدرَك إلاّ بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلاّ قليلاً.

فإن شكوا ثقلاً[1] أو علّةً أو انقطاع شربٍ أو إحالة أرضٍ اغتمرها غرقٌ أو أجحف بها عطشٌ فخفّفْ عنهم بما ترجو أن يصلُح به أمرهم. ولا يثقلَنّ عليك شيء خفّفْتَ به المؤونة عنهم، فإنه ذُخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسنَ ثنائهم، وتبجّحك[2] باستفاضة العدل فيهم. فإنّ العمران محتَمَلٌ ما حمّلتَه. وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يُعوزُ أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمْع[3] وقلّة انتفاعهم بالعِبَر.

ثم انظرْ في أمور كتّابك فولِّ على أمورك خيرَهم ممّن لا يجهل مبلغَ قدْر نفسه في الأمور، فإنّ الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكنْ اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك[4] وحسن الظنّ منك؛ فإنّ الرجال يتعرفون لفراسات[5] الولاة بتصنّعهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء. ولكن اختبرْهم بما وُلّوا للصالحين قبلك: فاعمدْ لأحسنهم كان في العامّة أثراً وأعرَفهم بالأمانة وجهاً! ومهما يكنْ في كتّابك من عيبٍ فتغابيتَ عنه أُلزمتَه.

---

(١) ثقل المضروب من مال الخراج.

(٢) التبجح: سرور المرء بما يرى من حسن عمله في العدل.

(٣) أي لتطلع أنفسهم إلى جمع المال.

(٤) الفراسة، بالكسر: قوة الظن وحسن النظر في الأمور. الاستنامة: السكون والثقة، أي: لا يكون انتخاب الكتاب تابعاً لميلك الخاص.

(٥) يتعرفون للفراسات: يتوسلون إليها لتعرفهم بها.

ثم استوصِ بالتجّار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً: المقيم منهم والمضطرِب[1] بماله، فإنّهم موادّ المنافع وأسبابُ المرافق وجُلاّبهما من المباعد والمطارح في برّك وبحرك وسهلك وجبلك. وتفقّد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلمْ أنّ في كثيرٍ منهم ضيقاً فاحشاً وشحّاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكّماً في البياعات، وذلك باب مضرّةٍ للعامّة وعيبٌ على الولاة، فامنع من الاحتكار فإنْ رسول الله منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً: بموازين عدْلٍ، وأسعارٍ لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمَن قارف حكْرَةً[2] بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه في غير إسراف.

ثم يتحدث الإمام عن الطبقة المعوزة فيقول:

واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت المال، وقسماً من غلاّت كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استُرعيتَ حقّه؛ فلا يشغلنّك عنهم بطرٌ، فإنك لا تُعذَر بتضييعك التافه لإحكامك الكثيرَ المهمّ. ولا تُشخِص[3] همّك عنهم، ولا تُصعّر خدّك لهم، وتفقّد أمورَ من لا يصل إليك منهم، فإن هؤلاء من بين الرعيّة أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وتعهّد أهل اليتيم وذوي الرقّة[4] في السنّ ممّن لا حيلة له.

واجعل لذوي الحاجات[5] منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقعِد عنهم جندَك

---

(١) المضطرب: المتردد بأمواله بين البلدان.
(٢) قارف: خالط. الحكرة: الاحتكار.
(٣) لا تشخص همك: لا تصرف همك.
(٤) ذوو اليتيم: الأيتام. ذوو الرقة في السن: المتقدمون فيه.
(٥) لذوي الحاجات: أي للمتظلمين.

وأعوانك من أحراسك وشُرَطك[1] حتى يكلّمك متكلّمُهم غير مُتَتَعْتِع[2] فإني سمعت رسول الله يقول في غير موطن[3]: «لن تقدّس أمّة لا يُؤخذ للضعيف فيها حقه من القويّ غير متتعتع». ثم احتمل الخُرقَ[4] منهم العِيّ[5] ونحِّ عنهم الضيق والأنف[6].

ثم أمورٌ من أمورك لا بدّ لك من مباشرتها: منها إجابة عمّالك بما يعيا عنه كتّابك. ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تَحرَجُ به صدورُ أعوانك[7]، وامضِ لكلّ يومٍ عمَله، فإن لكل يوم ما فيه.

ولا تُطوّلَنّ احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية شُعبةٌ من الضيق، وقلّةُ علمٍ بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علمَ ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، وَيَقْبُحُ الحسَن ويحسنُ القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشرٌ لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سِماتٌ[8] تُعرَف به ضروب الصدق والكذب، وإنما أنت أحد رجلَين: إمّا امرؤٌ سخت نفسك بالبذل في الحقّ ففيمَ احتجابك من واجب حقٍّ تعطيه أو فعلٍ كريمٍ تُسديه؟ أو مبتلًى بالمنع

---

(١) أي تأمر بأن يقعد عنهم جندك وأعوانك وأحراسك وشرطك فلا يتعرضوا لهم.
(٢) التعتعة في الكلام: التردد فيه من عجز وعيّ، والمراد، غير خائف.
(٣) أي في مواطن كثيرة.
(٤) الخرق: العنف، ضد الرفق.
(٥) العي: العجز عن النطق.
(٦) الأنف: الاستنكاف والاستكبار.
(٧) تحرج: تضيق. بما تحرج به صدور الأعوان، يريد: أن الأعوان، تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات، ويحبون المماطلة في قضائها استجلاباً للمنفعة أو إظهاراً للجبروت.
(٨) سمات: علامات، أي ليس للحق علامات ظاهرة يتميز بها الصدق من الكذب وإنما يعرف ذلك بالامتحان والاختيار.

فما أسرَع كفّ الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بَذْلك[1]، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاةِ مظلمة أو طلب إنصافٍ في معاملة!.

ثم إن للوالي خاصةً وبطانةً فيهم استئثارٌ، وتطاوُلٌ، وقلّة إنصاف في معاملة، فاحسم[2] مادّة أولئكَ بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تُقطعَنّ لأحدٍ من حاشيتك وحامّتكِ[3] قطيعةً[4]، ولا يَطمَعَنّ منك في اعتقاد عُقدةٍ[5] تَضُرُّ بمن يليها مِنَ الناس في شِرْب أو عملٍ مشترَك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مَهنأ[6] ذلك لهم دونك، وعيبُه عليك في الدنيا والآخرة.

وألزِم الحق مَن لَزِمَهُ من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتك وخاصّتك حيث وقع. وابتغِ عاقبته بما يَثقُلُ عليك منه؛ فإنّ مغبّة ذلك محمودة[7].

وإن ظنّت الرعيةُ بك حَيفاً ـ أي ظلماً ـ فأصحِر لهم[8] بعذرك، واعدلْ عنك في ظنونهم بإصحارك؛ فإن في ذلك رياضةً منك لنفسك[9]،

---

(١) يقول: فإن قنط الناس من قضاء مطالبهم منك أسرعوا إلى البعد عنك، فلا حاجة للاحتجاب.

(٢) احسم: اقطع. يقول: اقطع مادة شرورهم عن الناس بقطع أسباب تعديهم، وإنما يكون ذلك بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرف في شؤون العامة.

(٣) الحامة كالطامة: الخاصة والقرابة.

(٤) الإقطاع: المنحة من الأرض. والقطيعة: الممنوح منها.

(٥) الاعتقاد: الامتلاك. العقدة: الضيعة واعتقاد الضيعة: اقتناؤها.

(٦) مهنأ: منفعة هنيئة.

(٧) المغبة العاقبة، يقول: إن إلزام الحق لمن لزمهم، وإن ثقل على الوالي وعليهم، محمود العاقبة بحفظ الدولة.

(٨) أصحر: ابرز لهم وبين عذرك.

(٩) أي: رياضة منك لنفسك، تعويداً لنفسك، على العدل.

ورفقاً برعيتك، وإعذاراً[1] تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحقّ.

لا تدفعنّ صلحاً دعاك إليه عدوّك ولله فيه رضا، فإن في الصلح دعةً لجنودك وراحةً من همومك وأمناً لبلادك وإن عقدتَ بينك وبين عدوّك عُقدةً أو ألْبَسْتَه منك ذمّةً[2]، فحطْ عهدك بالوفاء، وارعَ ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنّةً دون ما أعطيتَ[3]، ولا تغدرَنّ بذمّتك، ولا تخيسَنَّ بعهدك[4]، ولا تختلنْ[5] عدوّك. ولا تعقد عقداً تجوّز فيه العلل[6]، ولا تعوّلنْ على لحنِ[7] قولٍ بعد التأكيد والتوثقة.

ولا تقوّينّ سلطانك بسفك دمٍ حرام، فإن ذلك ممّا يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقلُهُ. ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمْد! وإيّاك والمنّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيّدَ[8] في ما كان من فعلك، أو أن تعِدهم فتُتبع موعدك بخُلفك، فإن المنّ يُبطل الإحسان، والتزيّد يذهب بنور الحقّ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس.

وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التسقّط[9] عند إمكانها، أو الوَهن عنها إذا استوضحتْ. فضع كلّ أمرٍ موضعه، وأوقعْ كلّ أمرٍ موقعه.

---

(١) الإعذار: تقديم العذر.

(٢) أصل معنى الذمة: وجدان مودع في جبلة الإنسان ينبهه لرعاية حق ذوي الحقوق عليه ويدفعه لأداء ما يجب عليه منها، ثم أطلقت على معنى العهد.

(٣) الجنة: الوقاية، يقول: حافظ على ما أعطيت من العهد بروحك.

(٤) خاس بعهده: خانه ونقضه.

(٥) الختل: الخداع.

(٦) العلل: جمع علة وهي في النقد والكلام، بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويحوّله إلى غير المراد، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته.

(٧) لحن القول: ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض، يقول: إذا رأيت ثقلاً من التزام العهد فلا تركن إلى لحن القول لتتملص منه، بل خذ بأصرح الوجوه لك وعليك.

(٨) التزيد: إظهار الزيادة في الأعمال والمبالغة في وصف الواقع منها في معرض الافتخار.

(٩) التسقط، يريد به هنا: التهاون.

وإيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسْوة[1]، والتغابي عمّا تُعنى به ممّا قد وَضحَ للعيون، فإنه مأخوذٌ منك لغيرك، وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ويُنتَصف منك للمظلوم. املكْ حميّة أنفك[2] وسَورة حَدّك وسطوة يدك وغَرْبَ لسانك[3] واحترس من كل ذلك بكفّ البادرة[4] وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملِكَ الاختيار.

والواجب عليك أن تتذكّر ما مضى لمن تَقدمَك من حكومةٍ عادلة أو سنّة فاضلة، فتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدتُ إليك في عهدي هذا، واستوثقتُ به من الحجّة لنفسي عليك لكي لا تكون لك علّةٌ عند تسرّع نفسك على هواها. وأنا أسأل الله أن يوفّقَني وإياك لِمَا فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه[5] مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد!».

وسوف نزيد على عهد ابن أبي طالب للأشتر، ببعض الأوامر والوصايا التي يكمّل بها دستوره العظيم في الولاية، ويركّزه، ويصر عليه، ويمدّه بالدفء والحنان. وذلك في باب المختارات من أدب الإمام، في فصولٍ سوف تأتي في مكانها.

أمّا الآن، فإلى الأبحاث التي تتناول المعاني الإنسانية بين مفكري العصور جملةً وبين عليّ، ثم إلى المقابلة بين مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى، والمبادىء التي خلّفتْها ثورة ابن أبي طالب!.

---

(١) احذر أن تخص نفسك بشيء تزيد به عن الناس، وهو مما تجب فيه المساواة من الحقوق العامة.

(٢) أي املك نفسك عند الغضب.

(٣) السورة: الحدة، والحد: البأس. والغرب: الحد، تشبيهاً له بحد السيف ونحوه.

(٤) البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب، وإطلاق اللسان يزيد الغضب إنقاذاً، والسكوت يطفىء من لهبه.

(٥) يريد من العذر الواضح: العدل، فإنه عذر لك عند من قضيت عليه وعذر عند الله في من أجريت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة.

الفهرس


قالوا في هذا الكتاب
مؤلف هذا الكتاب العملاق الرائد، أديب كبير عالمي المستوى، وصاحب فكر عبقري وقلم شاعري ساحر أخاذ. وهو ذو دراية عميقة واسعة بالتراث العربي من جهة، وعلى استيعاب موسوعي شامل لسائر جوانب الثقافة العالمية من ناحية أخرى، تجتمع في شخصه روح الشاعر والموسيقي والرسام والفيلسوف، وتجمع كتاباته كل مميزات هؤلاء. تجمع كل أحلامهم وآمالهم، وكل ما يعيشونه من أفكار وتأملات.
ويشكل هذا الكتاب، دون مبالغة، أعظم أثر أدبي وفكري تناول حياة علي، وألف في العالم قديما وحديثا. كتبته عبقرية نيرة متحررة موسوعية الثقافة، وصاغه قلم رائع قلما تجد له مثيلا بين أقلام عباقرة الأدب في التاريخ.
من مقال طويل في مجلة
«الطليعة» بالقاهرة
إن شئتم أن أقول في عبقريتكم كلمة، فأعيروني بيانكم!
عبد الحسين شرف الدين